سعد عبد المطلب العدل

الهيروغليفيه تفسر القرآن

إخناتون أبو الأنبياء

- ملك أم نبي
- دار الهجره آخت آتون
- المحبوبه كيـــا
- إخناتون لم يمت فى تل العمارنه
- قربان إلى الله بإمر من الله

مكتبة مدبولي

By arab-rationalists.com

إخناتون أبو الأنبياء

تأليف

سعد عبد المطلب العدل

الناشر
مكتبة مدبولى
2008

By arab-rationalists.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن
كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾
إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا
ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

صدق الله العظيم

[سورة آل عمران – ٧٦ ، ٦٨]

By arab-rationalists.com

الإهـــــداء

إلى داعية السلام

الرئيس / محمد حسنى مبارك

الذي يتلمس خطى جدنا إخناتون نبى السلام العالمى ...

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

كنت قد أعلنت عن موضوع كتابى هذا فى ٢٠٠٠/٧/٣٠ ، فى حديث صحفى لمجلة « نصف الدنيا » التى تصدرها مؤسسة الأهرام من القاهرة ، وقد يعجب البعض – بحـــق – من هذا التصرف ، كيف لمؤلف أن يفشى فكرة موضوع كتابه الذى لم ينشره بعد !!!

أولاً: هو التحدى يا سيدى ، فالإبداع الحقيقى هو ليس أن تستأثر لنفسك بأفكـــارك لاسيما أنها موضوعات تهم العالم كله ، بل أن تطرح موضوعاتك فى العلن ، ربمـــا ليـــدلى آخرون بدلوهم .

ثانياً: لأن هذا الموضوع المطروح فى هذا الكتاب من الموضوعات الصعبة جداً والـــتى تتطلب الإلمام بعلوم كثيره لبحثه ، وهذا ما جعلنى مطمئنًا تمامًا ، والدليل أننا لم نحظ من أى باحث على ما يشفى الغليل فى هذا الشأن فى المدة المنصرمة ، وسبب هذه الصـــعوبة هـــو شمولية الموضوع لأكثر من عشرين تخصصاً ، ولأن هذا الموضوع قد زيف على مدى ثلاثـــة آلاف وأربعمائة سنة فى شقيه الدينى والتاريخى ما يعد أطول عملية تزييف فى التـــاريخ ممـــا صعب الامر على الكثيرين الذين يبحثون فى القشور . حتى أن كتب التاريخ نفسها قد نالها بعض من هذا التزييف مما أبعدها عن صلتها الحقيقية بالموضوع .

ثالثاً: ولأنى مطمئن لما عرضت آنفا كنت أبحث عن ردود فعل عالمية لتصريحى هـــذا ، ولم يطل انتظارى ؛ فقد أعلنت صحيفة الفيجارو الفرنسية بعد شهرين كاملين فى عـــددها الصادر فى ٢٠٠٠/١٠/١ ، عن مؤلفين يهوديين قدما كتابا تحت نفس العنوان الذى كنت

قد أعلنته ، وكنت فى شغف شديد لمعرفة ما كتبوا ، ولكن وللحق لقد خيبا الآمال كما خابت آمالنا فيهم على مدى العصور . فقد جاءت كتاباتهما فى صورة « خربطة » مترنحة لا تصبو إلى ما يمكن أن نسميه علما ، وزادا عليها - كما هو معهود فيهم - بمحاولات تزوير جديدة لتاريخ هذه الحقبة وما بعدها ، ألم يكفهما ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة من التزوير ؟؟!

وبعد ان اطمأننت على أنهما لم يمسا الحقيقة فى قليل أو كثير أيقنت أن محاولتهما تلك إنما كانت فى الحقيقة محاولة لإحباط موضوع كتابى وتفاصيله العلمية . وعلى قدر غبطتى كانت صدمتى فيهما كبيرة ، فقد ادعى اليهود على مدى جميع العصور تميزهم فى مختلف العلوم ، ولكن ما نشره الأخوان فى فرنسا وأعلنت عنه الفيجارو إنما لا يتعدى منهج كتيب ردئ « لأولى حضانة » ، نقلا فيه صفحات من حياة الملك إخناتون من الكتب الشعبية « وخربطا » معالم أجزاء من التاريخ المعروف ، وزادا فى التحقير من شأن أنفسهما بأن ادعا أنهما استغرقا عشرين عاما لإعداد مثل هذا « الكتيب » .

ولكن هذا هو ما عندهم ، وسوف يدهشون مما عندنا ولم يخطر لهم على بال .

أما عن موضوع المنهج فى كتابى فقد نوهت عنه فى الفصل الأول ولكنى أزيد - إمعانا فى العملية - بتصويرى للشواهد العلمية من أمهات المعاجم ، حتى لا يجد فاقدو الموضوعية من النقاد و« المتخصصين متوسطى الحال » سبيلا للحديث عن كتابى ، وفى ذات الوقت فإنى أرحب كل الترحيب بالأساتذة المتخصصين الحقيقيين وأدعوهم لقراءة ما كتبت ، بل وأنتظر منهم كلمة حق ، الجميلة قبل القبيحة ، فالنقد ليس فقط أن أظهر العيوب والمثالب ولكن أولى ان ينوه إلى الإيجابيات ، حتى يكون نقدا بناء .

ومن سمات الناقد الحقيقى ان يظل فى موضوع الكتاب ولا يغادره ، وإلا فقد موضوعيته حين ينتقل إلى مهاجمة المؤلف فى شخصه ، وهذه الظاهرة منتشرة جدا فى محافلنا العربية ، حيث يتخطى الناقد الموضوع لأنه عاجز عن مناقشته ثم يهاجم الشخص .

ومن الضرورى حيت يتعرض الناقد الحقيقى لنقد الكتاب لا بد من توافر صفة العلـــم فيه ، والعلم بكل الموضوعات المطروحة فى الكتاب وليس لجزء منها حتى يكون نقده علميًا، أما اولئك ، فلهم أن يقرأوا كتابى وشكرا لهم عند هذا الحد ، أما التعرض لكتابى فى منهجه ومنهجيته فهذا يتطلب العالم الحقيقى الملم بجميع فروع العلم الذى طرحه الكتاب ، وهـــى تصل إلى عشرين علما مختلفا من علوم التاريخ الزمنى والتاريخ الدينى وعلوم اللغات وعلوم الأديان المقارنة والجغرافيا وعلوم المنطق والفلسفة . فكتابى هذا يبحث فى علوم الفكر .

وإذ أقدم كتابى هذا للقراء فإنما أهنئهم وأهنئ نفسى أن كشفنا أخيراً بحمد الله وتوفيقه أطول عملية تزييف فى التاريخ قام بها اليهود ، بل وكشفنا منـــهجهم فى التزويـــر حـــتى لا يعودوا إليه وإن كنت موقنًا أنهم سيعودون .

والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين .

المؤلف

الفصل الأول

مدخـــل إلى المنهج

غنى عن البيان أن من يخوض فى الموضوعات ذات الصبغة الدينية هو من قبيـل مـن يمشى على شفا جرف هار يوشك ان يقع فى الهاوية السحيقة ، وهو معرض إن عـاجلاً أو آجلاً أن يحيط به خطر محدق .. فمعظم المشتغلين بموضـوع الأديـان والمـدافعين عنـها وفلاسفتها على مر العصور يكاد يكون لهم طابع خاص وسمة مشـتركة ، ألا وهـى سمـة التعصب لدرجة مخيفة ، يحصنون أنفسهم بهذا التعصب خشية أن يؤدى بهم ذلك إلى القصور فى الدفاع عن معتنقهم ، وحماسهم فى هذا الدفاع يخلق منهم ليس فقط محدودية أفـق بـل ويجعل منهم أناسا جامدين لا يرون إلا ما يرون ولا يناقشون إلا ما يتصورون أنه الصواب ، اتفاقا مع الديانة التى ينتمون إليها ، فلا تتطور لديهم ملكة البحث ولا ملكة التدبر فيما هم بصدده وقد يرون دائما الحق فى جانبهم لأنهم إن لم يفعلوا أحدق بهم خطر الشطط وطوقتهم مغبة الانزلاق إلى المجهول ، والمجهول غير واضح المعالم ، غير واضح النتائج ، ومن ثم يؤثرون شاطئ السلامة ومبدأ التحفظ ، فيحافظوا بذلك على ثباتهم فى عقيدتهم ، فالبعد عن مجـال البحث بالنسبة لأولئك هو خير حافظا لهم من الشطط ، وعليه فلا تجديد ، وعلـى الـذى يشغل نفسه بمسائل البحث فى ذات الموضوع أن يتحمل عاقبة ما هو بصدده .

نقول : فإن لم يكن يملك اليقين الكافى لجدية بحثه ووضوح معالمة بتفصـيلاته ، فلينـأ بنفسه ويحم غيره من شططه وأوهامه .

وكلما أوغلت الموضوعات الدينية قيد البحث فى القدم ، كلما صعبت المهمة حيث أن تلك الموضوعات تطورت فى أشكالها ومضامينها ، بل وتخطت هذا الحد بدرجات أبعد ممـا يجب أن تكون عليه ، حيث يطفو على السطح أحيانا مفاهيم فى شكل معتقـدات تكـون مختلفة عما أراده الله عز وجل ، زد على هذا تعصب كل طائفة لعقيـدتها يـؤدى بهـم إلى إضافات من عندياتهم يعتقدون فى صحتها ، بينما هى فى الواقع والحقيقة منافيـة لمضـمون

العقيدة نفسها ، وتكون تلك الإضافات مشوبة بمغالاة ومبالغة تؤدى إلى نتيجة عكسية ، وتؤثر على منطقية المضمون الدينى وتبعا لذلك تهتز المصداقية ..

وكتابة التاريخ وصياغته مسألة مضنية ، فمهما حاول كتاب التاريخ أن يدونوه بعلمية وحيادية فإن من الصعوبة بمكان أن ينسلخوا عن ذاتهم وموطنهم وانتمائهم وتوجههم الفكرى ، لأنهم جزء من كل هذا بالإضافة إلى ذلك مدى النفع والضرر الذى قد يعود عليهم أو يلم بهم ، فهم حبيسو النظم التى نشأوا فيها وشربوا منها ، وليس أدل على ذلك من محاولة إدراك « الحقيقة » فى واقع عالمى نعيش فيه الآن ، فالحقيقة بالنسبة للشرق مغايرة للحقيقة فى العالم الغربى ، حتى المفردات نفسها والاصطلاحات التى يجب أن تكون أساسا متفقا عليه فى العلم وحتى فى الحوار ، نجدها تحمل عكس دلالتها فى المعسكر الآخر ، ومثالا على ذلك : كلمة إرهاب وإرهابى ، فهى عند البعض لها معنى وعند الآخر عكس المعنى ، بل إن بعض الأبطال فى مكان هم عند الآخر إرهابيون ، والإرهابى هنا رمز للزعامة وبطل تحرير هناك ، وغير هذا كثير حتى أصبحت الحقيقة مزدوجة تحمل الشئ ونقيضه فى آن .

وعليه فإن كتاب التاريخ محكومون بهذه « اللعبة » فى النهاية وهم فى نهاية المطاف سجينو إيديولوجيتهم ومجتمعهم وانتمائهم الدينى ، بل ومنافعهم ومصالحهم الشخصية .

– ما عرضنا له سلفا هو السائد الطبيعى فى الأوساط التى تدعى العلمية فيما يكتبون ، فما بالنا لو كان المفكر الدينى أو المؤرخ الدنيوى مغرضا أو مزورا ..؟

هنا تكون الكارثة ...

وقصص الموحدين الأوائل هى من قبيل تلك الموضوعات ، ولن نعرض لموضوعنا فى صورة القصة ، وإنما سنعرض لإشكالياته فى شكل موضوعات علمية ، نبحثها بتسلسل حسب معطيات التاريخ الحقيقى لبطل موضوعنا ، حتى نصل إلى النهاية ليكون القارئ قد ألم بكل التفاصيل دون أن يتوه فى أحداث ووقائع تشتت فكره وتبعده عن القصة الحقيقة ، كدأب كل من كتبوا حتى اليوم .

وقصص الموحدين الأوائل يفترض – حسب وجهة النظر الجامدة – أن يكون الزمن الذى عاشوا فيه موغلا فى القدم ، بعيدا حتى عن مراحل التدوين وقبل اختراع الكتابة ،

يبتغون من وراء ذلك البعد بالعقيدة إلى شاطئ ناء ، بعيدا عن العلماء والباحثين والمجتهدين ، وجريا وراء أهداف أخرى قد تكون سياسية ، فيحققون من خلال ذلك مآرب سياسية وإيديولوجية .

– وفى وسط هذا الجو الذى يريد أن يستأثر فيه مفكرو الأديان بكل المعطيات ، نجد على النقيض مباحث علوم التاريخ والآثار قد سكتت سكوتًا أبديًا ، بل ووقفت عاجزة تمامًا عن الوصول إلى وضع هذا الزمن الدينى فى الترتيب التاريخى الصحيح ، بل ووصل الحمق بأغلبهم إلى التطاول على الشخصيات الدينية واعتبروها نسجا من خيال وأساطير .

– ونظرًا لتلك العقبات والصعوبات فقد آليت على نفسى أن يكون منهج البحث فى هذا الكتاب – كما هو معهود عندى دائما وكما طبقته فى كتابى السابق (الهيروغليفية تفسر القرآن الكريم) – قائما على ما يلى :

– العلم والمنطق ، علم قائم على الاستعانة بالتراث الدينى غير المشوب بالخرافة وبالكتب المقدسة الصحيحة وكتب التاريخ ، نطبق فى الكشف عن النتائج الصحيحة المنطق الفكرى السليم الذي لا عوج فيه بمقدمات صحيحة لتكون النتائج صحيحة وصادقة فى آن، وأما علوم اللغة ومراجعها فستكون خير وسيلة لنا ، نستدعى من خلالها كل اللغات التى لها علاقة بالموضوع ، ونكشف فى معاجمها عن المفردات قيد البحث .

– تحقيق واع لما كتب فى هذه الموضوعات من شتى المراجع على اختلاف مقاصدها والاستفادة من أفكار السلف وآرائهم المستنيرة وبكتاباتهم فى هذا المجال واستخدام منهج المقارنة بينها ، ليتضح الغث من السمين .

وأخيرا اجتهاد مبنى على الأسس السابقة فى إبداء الرأى فى كل ما سنعرض له من المراجع الحقيقية دون التطاول عليها – لأن التطاول هو نوع من العجز على إقامة الحجة والعجز عن فهم المضمون الدينى لهذه الكتب الفهم الصحيح أحيانًا ، أما المرجعيات المغالطة فلن تفلت من التعريض والنقد .

ونحن نحاول إذ نحاول الوصول إلى الحقيقة نتمنى من الله عز وجل أن يحفظنا من الشطط ويهدينا سواء السبيل .

أول القصيدة ..

يتوارى تاريخ الأجداد فى جب النسيان شيئًا فشيئا وتضيع الأحداث فى تيه التاريخ وتنحسر لغتهم على الشفاه وتنضب وتلملم فى قمتهات لتنزوى فى أكداس الذكريات ، فما يبقى منها إلا مجرد رسوم بكماء على حوائط معابد ومقابر هنا وهناك ، غير مفهومة لا تنطق ولا تفشى لأحد بسرها ، ونحن أبناؤها الذين رضينا أن نكون تارة أتباعا لليونان ، وللرومان تارة أخرى ، ومن قبلهم الليبيون والفرس وغيرهم ، كما لو كان الله الواحد الأحد قد أراد أن يترل بنا غضبه فينسينا من نحن ومن كنا ، ربما لأننا لم نستجب فى حينه لنداء الله الواحد الأحد على لسان جدنا العظيم ، صاحب التوحيد الأول وصاحب الرسالة العالمية الفريدة لكل البشر وسليل الملوك والتاريخ المجيد – جدنا وسيدنا إخناتون ..

ومن عجائب القدر وهزءات التاريخ أن أول من يفشى لنا بجزء من السر – سر الآباء العظام – هو اليهودى المؤرخ المعروف باسم جوسيفوس الذى عاش فى الإسكندرية القديمة عام ٧٠م حيث يسرد لنا وقائع تاريخ الآباء العظام – آباء الدنيا كلها وملوك العالم القديم بأجمعه ، فى ثنايا كتابه « ضد أبيون« Contra Apion »أوفى الرد على إبيون » ويوثق مراجعه عن كاهن مصرى كان يدعى « مانيثون » ، والذى عاش فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلفوس – ٢٨٣ – ٢٤٥ ق م) . ويبدو أن مانيثون هذا كان على درجة عالية من الثقافة ملما باللغتين المصرية القديمة واليونانية ، وربما كلفه بطليموس بكتابه تاريخ مصر فقد كتب كتابا تحت اسم Agyptiaka . بدأ تاريخه بحكم الآلهة وقسم التاريخ إلى ثلاثين أسرة تبدأ بالملك – مينى – وتنتهى بالإسكندر الأكبر ، ولم يصلنا من هذا المؤلف شيئًا[1].

والعجيب والملفت للنظر فى قصته أنه غفل جزءا هاما – بل وأهم جزء من التاريخ المصرى القديم – ألا وهو قصة وتاريخ أول الموحدين ، بل إنه رغم هذه الغفلة تعرض لهم وصورهم وكأنهم مملكة إناث أو مخنثين .

وقصة جوزيفوس لكى تكون مقبولة لنا فلا بد أن نناقشها على وجهين :

الوجه الاول : أن يكون المؤرخ – جوزيفوس – هذا قد نقل فعلا عن كاهن مصرى اسمه – مانيثون – كل ما باح به من تاريخ العظام ، فإن كان هذا هو الحال فلا بأس ، فقد أدى رسالته العلمية على خير ما يكون ، وشكرًا له وشكرًا لجدنا – مانيثون – على ذلك رغم التقصير .

الوجه الثانى : أن تكون شخصية مانيثون وشخصية – إبيون – وقد كان كاتبًا سكندريا – هما شخصيات وهمية من بنات خيال جوسيفوس اليهودى ، على غرار المحاورات الأفلاطونية ، التى كانت لها شهرة عالمية فى وقته ، يبث فيها مؤلفها على لسان أبطاله حقائق وأكاذيب تجد من الآذان ما يسمع لها ويصدقها ، لأنه فى الظاهر لا يرويها عن نفسه ، وإلا لتشكك الكل فيما يخبر به الرجل من أول وهلة ، ولعرف المغزى والمقصد الذى ينتويه خبثه ومكره ومن خلال العرض التسلسلى لملوك مصر العظام يسقط جوزيفوس أهم حقبة من التاريخ – أهمها لما لها من القيمة الروحية والفكرية والفلسفية ما يمكن بها أن يتغير تاريخ البشرية جمعاء .

لقد أغفل جوسيفوس على لسان مانيتون لب وقلب التاريخ المصرى قاطبة ، أكان ذلك عن عمد من مانيتون ، أم سوء نية من المؤرخ جوزيفوس ، هذا ما سيتكشف لنا حالا.

نقول أنه بعد خراب أقدم مدينة للتوحيد معروفة لنا فى التاريخ – آخت آتون (فى موقع العمارنة فى محافظة المنيا حاليًا) – تبارت أطراف عديدة فى محو كل ما يذكر بتلك العقيدة الجديدة ، فهدموا المدينة حتى ساوت الأرض ومحوا ما كتب إبانها ونسبوا بعضه إلى غير مصادره ، حتى فى معابد طيبة وهليوبوليس امتدت معاول الهدم والمحو لكل ما نقش وكتب على الحوائط له علاقة بحكام آخت آتون ، واعتبروها كأن لم تكن ، وقاد كل هذه الحملات إلى جانب الكهنة الفرعون الجديد المعروف باسم – حور محب – أو حور م حاب ، والذى كان قائدا للجيوش ولم يكن سليل أسرة ملكية بل كان من عامة الشعب وترقى فى الجندية حتى حكم البلاد ، وبكل الحقد والغل بدأ حملته الشعواء ليمحو السيرة العطرة للآباء العظام ، وأطلق على رائد التوحيد لقب مجرم آخت آتون ، وحذا حذوه على كل فترات التاريخ ليومنا هذا كل من له غرض ومصلحة .

فإن كان مانيثون شخصية حقيقية بالفعل عاش ككاهن من سمنود وكتب تاريخ مصر ، فقد اتبع بذلك سنة سابقيه بأن تجاهل تلك الحقبة ..

أما إذا لم يكن الحال هكذا فلا يبقى أمامنا الآن سوى أن المؤرخ اليهودى – جوسيفوس – قد ألف بنفسه شخوصه – مانيتون وإيبون – من بنات خياله وأفكاره ، واختار لعمله صورة المحاورة الأفلاطونية ، لينسج من خلالها ملاحم دفاع عن بنى جنسه –اليهود– حين انبرى المدعو –إيبون السكندرى– يسب اليهود لسبب وللا سبب ويرميهم بكل شائنة ، وحيث أن سوء النية والقصد مرجح من جانب جوسيفوس ، فهو الذى ادعى أيضا أن العرب هم الهكسوس مثلا وأن اليهود كانوا فى مصر إبان تلك الفترة ، فلا بد وأن يكون سبب التناحر بينه وبين إيبيون سببا قويا دفعه دفعا إلى الدفاع عن بنى جنسه وعن نفسه بكل ما أوتى من سبل وأدوات .

ولكن يا ترى ! ما هو سبب هذا الخلاف الحاد الذى جرى بينه وبين إيبيون السكندرى؟؟

لا بد وأن يكون سببا قويا معقولا ، أقلها مثلا التسبب والضلوع فى نشوب حريق مكتبة الإسكندرية القديمة ، والتى ضاع من جرائها مجهود ثلاثة آلاف سنة من علوم وفنون حضارة البشرية جمعاء ..

وإذا كان الحال هكذا ، فلا بد وأن يكون الدافع وراء الحريق أقوى من خسارة البشرية لمكونات الحضارة ممثلة فى نفائس مكتبة الإسكندرية وما احتوته من كتب فيها علوم وأسرار يحرص اليهود وشخص كجوسيفوس هذا على عدم وصولها وإفشائها حتى لا تعود عليه وعلى بنى جنسه بخسارة جسيمة يمكن ان تقضى على كيانهم وإيديولوجيتهم وبالذات سر الأسرار الذى سنبحثه فى هذا الكتاب بحثا علميا وافيا بعيدا عن أى غرض سوى إظهار الحقيقة أيا كان مذاقها .

ولكى لا نكون متجنين على أحد فى مسألة حريق المكتبة ، سنضع هذا الموضوع فى الصفحات التالية على كفة ميزان النقد العلمى بما يليق وأهمية الموضوع .

من أحرق قلب الأم

منذ أن تأسست مدينة الإسكندرية فى شتاء ٣٣٢-٣٣١ ق م أصبحت تلعب الدور الرئيسى فى مصر وفى الملاحة فى البحر المتوسط طيلة ألف عام ونيف ، فقد كانت عاصمة مصر إلى أن جاء الفتح الإسلامى فى عام ٦٤٢ ميلادية ، بعدها انتقلت العاصمة إلى الفسطاط التى بناها القائد عمرو بن العاص ، ورغم ذلك ظلت الإسكندرية تلعب دورا بارزا فى تاريخ مصر وحتى الآن .

ولقد عرفت هذه المدينة نهضة فكرية منذ إنشائها على يد الإسكندر الأكبر وخلفائه من البطالمة الذين قرروا أن يجعلوا من مدينتهم منارة للفكر والعلم ما استطاعت به أن تنافس أثينا حاضرة الإغريق نفسها .

لذلك كان مجمع الإسكندرية العلمى الذى أطلق عليه الموسويون - أى معبد ربات الفنون والعلوم - فى مقدمة المنشآت التى علت إلى عنان السماء وقد ألحق به المكتبة الكبرى[٢].

فكرة إنشاء المكتبة : ظهرت فى مطلع القرن الثالث قبل الميلاد فى عهد الملك بطليموس الأول صاحب لقب سوتير الذى شهد التاريخ له بأنه لم يكن القائد العسكرى الفذ فحسب ، بل كان أيضا الرجل المثقف الذكى ، وهو الذى كتب أعظم كتاب عن حياة الإسكندر الأكبر بل يقوم رصيده أصلا على أنه المؤسس الحقيقى للدولة البطلمية بعد وفاة الإسكندر والتى دامت لمدة ثلاثة قرون وقد حكم من ٣٢٣-٢٨٤ ق م .

وقد استقدم الإغريقى ديمتريوس الفاليرى الأثينى وهو من الشخصيات الفذة التى اشتغلت بالسياسة والفلسفة وهو أيضًا من المشائين الذين أخذوا عن أرسطو ، وقد قدم إلى الإسكندرية ٢٩٥ ق م حيث اقترح إنشاء مجمع علمى وتلحق به مكتبه تجمع فيها الكتب ، رحب الملك بالفكرة ، وعين ديمتريوس الفاليرى مشرفا ورئيسا للموسيون ، وقد بنى الموسيون فى منطقة القصور الملكية التى تسمى البروخيون وألحقت به المكتبة الكبرى أو « المكتبة الأم » تمييزًا لها عن المكتبة « الابنة » التى ألحقت بمعبد السرابيوم فيما بعد .

على أن المكتبة الأم قد أخذت زخرفها وازينت فى عهد خليفته بطليموس الثانى وقد عين أمينا لها شيخ شعراء الإسكندرية -كاليماخوس- وقد نشأ فى تورينة فى برقة ويعتبر بمؤلفة المشهور البيناكس Pinakes مؤسس علم المكتبات على وجه الإطلاق .

وهذا الكتاب هو فهرس لمحتويات المكتبة قسمة إلى عشرة أقسام ورغم أن هذا الكتاب لم يصل إلينا إلا أن بعض المعلومات الجزئية التى أوردها الكتاب اللاحقون تشير إلى أنه وضع أسسا وقواعد لتنظيم الكتب على النحو التالى :

- شعر الملاحم والشعر الغنائى بصفة عامة
- الشعر التمثيلى وينقسم إلى نوعين : التراجيديا والكوميديا
- كتب القانون
- كتب الفلسفة
- كتب التاريخ
- أدب الخطابة
- كتب الطب
- كتب العلوم الرياضية
- كتب العلوم الطبيعية
- متفرقات[٣]

عدد الكتب وكيفية تجميعها : لجأ البطالمة فى جمع الكتب إلى كل الأساليب التعسفية وغير التعسفية ، فمثلا كانوا يصادرون الكتب من السفن التى تدخل الميناء ، وكانوا حريصين على الحصول على المخطوطات الأصلية للكتب ، ومن أشهر القصص فى هذا المجال ما يرويه الطبيب الإغريقى المعروف -جالينوس- من أن بطليموس الثالث بعث إلى أثينا يطلب المخطوطات الأصلية لمسرحيات أبسخولوس وسوفوكليس ويوربيدس التى كانت مودعة فى خزائن المدينة ليقوم بنسخها فى الإسكندرية وردها ثانية ، ونظير تسليمه تلك الأصول أودع فى أثينا مبلغ ١٥ تالنتون من الفضة ضمانا لسلامة المخطوطات ، ولكن

الذى حدث أنه أخذ المخطوطات ونسخها ورد النسخ واحتفظ بالأصل فى الإسكندرية وخسر بذلك وديعته التى تقدر بمبلغ كبير جدا بما يعادلها فى وقتنا الحاضر .

أما عن عدد المخطوطات التى احتوتها المكتبة فيذكر أحد الشراح القدماء لروايات أرستوفانس فى بعض هوامشه التى وجدت فى مخطوطة عثر عليها فى مكتبة -الكوليجيو رومانو- Collegio Romano فى روما معلومات قيمة فى هذا الشأن وترجمة النص كما يلى :

« لأن ذلك الملك بطليموس فيلادلفيوس الذى كان على معرفة بالفلاسفة وغيرهم من المؤلفين المشهورين ، بعد أن اقتنى الكتب ودفع ثمنها من الأموال الملكية من جميع ارجاء العالم قدر المستطاع ، مستعينا فى ذلك بديمتريوس الفاليرى أنشأ مكتبتين : واحدة خارج القصر والأخرى داخله ، وكان بالمكتبة الخارجية ٤٢,٠٠٠ مجلدا ، وفى القصر ٤٠٠,٠٠٠ مجلدا مختلطا ، و٩٠,٠٠٠ مجلدا مفردا ومختصرات ؛ كما ذكر كاليماخوس ، أحد رجال القصر وأمين المكتبة الملكية وأراتوستنيس أمين المكتبة ذاتها من بعده بقليل[٤] »

يستدل من المعلومات الواردة بتلك الوثيقة أن مكتبتى الإسكندرية نمتا فى جيل واحد نموا هائلا وضمتا معا أكثر من نصف مليون مخطوطة ، وعلى وجه التحديد ٥٣٢,٨٠٠ مخطوطة .

وبالطبع لم تقتصر المكتبة على الكتب اليونانية بل إنها ضمت كل ما كان فى خزائن الكتب المصرية فى مختلف المعابد على طول وادى النيل ؛ فنحن نعرف أن كثيرا من المعابد المصرية القديمة اشتملت على مدرسة تخدم أغراض التعليم المختلفة كأقسام لتعليم الحرف المختلفة لإعداد الرخامين والنحاتين والمثالين وغيرهم ، كما اشتمل المعبد على مكتبة تضم الوثائق والكتب من شتى أنواعها الدينية والسياسية والعلمية والأدبية ، وقد أطلق على قاعة المكتبة اسم « دار الحياة » وكانت لهم بمثابة المجمع العلمى .

من اشهر تلك المكتبات ، مكتبة رمسيس الثانى بمعبد الرمسيوم والتى أشار إليها ديودور الصقلى فى فقرة مشهورة يصف فيها المعابد وصفا يطابق الواقع ، حيث يقول :

« وبعد ذلك توجد المكتبة المقدسة التى كتب عليها - شفاء الروح - » ويؤكد صدق ما ذكره ديودور الصقلى ما عثر عليه الأثرى فلندرز بترى Flenders Petrie فى هذا المكان من المعبد على وثائق بردية ترجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة ، ومن بينها أقدم نماذج معروفة من المؤلفات المسرحية فى العالم ، ومن نصوص هذه المسرحيات نفسها ثبت أن هذه المكتبات اشتملت على كتب فى شتى العلوم والفنون .ومن عبارات ديودور الصقلى نفسه يقول :« وكان للذين يقومون باختراعات علمية أو بتصميم أعمال نافعة رفيعة عند أوزوريس وإيزيس » ، والأمثلة كثيرة على مكتبات أخرى مثل معبد الإله تحوت فى إدفو وقد بقيت قاعة المكتبة حتى الآن ومسجل على جدرانها قائمة بأهم محتوياتها ، ولا بد أن تكون مكتبات الإسكندرية قد ضمت لحوزتها كل محتويات تلك المكتبات[٥].

علماء استفادوا من المكتبة : اهتم علماء المجمع السكندرى - الموسيون - بالمكتبة واستعانوا بما تحويه من نفائس فى علومهم وأبحاثهم واكتشافاتهم كما أولوا جزءا كبيرا من نشاطهم فى تحقيق التراث العلمى والتاريخى والأدبى ، كما فعل الكاهن المصرى -مانيثون- الذى أعاد كتابة التاريخ المصرى القديم كما يذكر المؤرخ اليهودى -جوزيفوس- كما أن إقليدس كتب فى علوم الرياضيات وأرخميدس فى علوم الهندسة وأراتوستنيس فى الرياضيات والفلك « وهو الذى عين المحيط القطبى للكرة الأرضية » كما نجد الطبيب هيروفيلوس فى علم التشريح ، وهيرون مكتشف الطاقة البخارية ، وفيلون اليهودى فى الفلسفة ، وأفلوطين وهو من أبناء أسيوط فى الفلسفة وبطليموس الجغرافى فى العصر الرومانى وإليه تعود أول خريطة للعالم ، وغيرهم وغيرهم كثير ممن ذكره التاريخ أو لم يذكره .

حادث إحراق المكتبة : حاول جمهور كبير من المؤرخين إلقاء تهمة حريق المكتبة على المسلمين عند فتحهم للإسكندرية على يد عمرو بن العاص مستندين إلى رواية مؤرخ مسلم اسمه عبد اللطيف البغدادى وهو معاصر لصلاح الدين الأيوبى وقد رحل فى عدد من الأقطار الإسلامية وروى بشكل عرضى « لا تتعدى هذه الرواية جملة عرضية » قصة إحراق المسلمين للمكتبة على يد عمرو بن العاص بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب وذلك فى كتابه

« الموعظة والاعتبار[٦] » ، ثم أتى من بعده عدد من المؤرخين من أمثال القفطى فى كتابه تاريخ الحكماء ، وأبى الفرج ابن العبرى فى كتابه مختصر تاريخ الدول ، وأبى الفداء فى كتابه المختصر فى تاريخ البشر ، والمقريزى ولحق بهم جورجى زيدان فى القرن الماضى [٧] ، وكل هذه الكتابات توجه أصابع الاتهام للمسلمين بإحراق المكتبة . وما لبث أن تلقف الغربيون هذه التهمة وبدأوا يدرسونها ويدعمونها ويحشدون لها شواهد وأدلة لكى يثبتوا عداء الإسلام للعلم والكتب والحضارة بشكل عام .

ويرجع أول اتهام إلى يوليوس قيصر حين حضر إلى الإسكندرية عام ٤٧ ق م متعقبا يومى الذى كان قد هرب إلى مصر ؛ ففى الإسكندرية وجد قيصر حربا أهلية أخرى بين الملكة كليوباترا وأخيها بطليموس الرابع عشر ، وحين اتخذ قيصر جانب كليوباترا تورط فى الحرب القائمة ، وأعلن عليه المصريون الحرب بقيادة أخيلاس ، ويذكر قيصر فى نهاية كتابه: « .. وعلى ذلك دارت المعركة بكل العنف الذى لا بد أن يوجد ، حينما يرى أحد الجانبين فى الأمر انتصارا سريعا ، بينما يرى الجانب الآخر فيه نجاتهم . أما قيصر فقد أحرز النصر – أحرق هذه السفن جميعا وسائر السفن التى كانت فى الترسانة البحرية لأنه لم يتمكن من حماية جبهة بهذا الاتساع بقوة صغيرة ، وفى الحال أنزل جنوده من السفن إلى فاروس » .

هذا الجزء من الفقرة التى يتحدث فيها يوليوس قيصر عن قيامه بحريق هائل فى السفن التى كانت فى الميناء وفى الترسانة البحرية والتى بنى عليها المؤرخون اتهاماتهم للرومان بحرق المكتبة لأنهم تصوروا مبنى المكتبة متاخما للميناء فطالته النار التى أتت على محتوياتها من كتب ومخطوطات .

ومصادر أخرى تشير إلى تفصيلات الحادث عند كتاب لاحقين أولهم – سينيكا – الذى كتب حوالى منتصف القرن الأول الميلادى عن الحادث وربما نقل عن المؤرخ – ليفيوس – وهو يشير وبلا شك إلى أن ٤٠٠,٠٠٠ كتاب احترقت فى الإسكندرية بسبب « النار التى أضرمها قيصر فى السفن » . ومن بعده بلوتارخ (٤٦ – ١٢٧ م) الإغريقى من خيرونيا حيث يقول : « فلما أوشك أسطول –قيصر– أن يقع فى أيدى

أعدائه ، اضطر إلى أن يدرأ الخطر بالحريق ، وانتشرت النار من الترسانة البحرية ودمرت المكتبة الكبرى » .

كما نجد الكاتب الرومانى – أولوس جيليوس (١٢٣ – ١٦٩ م) يقول بصراحة : « إنه قد جمعت أو نسخت كمية هائلة – يقصد من مكتبة أثينا – فى مصر بواسطة ملوك البطالمة ، نحو من ٧٠٠,٠٠٠ جزء ، ولكن هذه الكتب جميعها احترقت فى حرب الإسكندرية الأولى ، عندما دمرت هذه المدينة ولم يكن ذلك عن قصد أو عمل إرادى ، ولكن حدث عرضا بواسطة الجند الاحتياطى » .

ويعلق المؤرخ – ديون كاسيوس – فى مطلع القرن الثالث الميلادى على هذا الحريق بقوله : « .. ونشبت النار فى أماكن كثيرة ، كما احترقت مخازن الغلال والكتب ، ويقال إن هذه الكتب كانت كثيرة العدد عظيمة القيمة » .

والمؤرخ إميانوس مارقللينوس من القرن الرابع الميلادى يقول بصراحة : « كان هناك مكتبة لا تقدر قيمتها بثمن والتى يجمع الكتاب القدماء على أنها ضمت ٧٠٠,٠٠٠ كتاب قد احترقت بالنار فى حرب الإسكندرية حينما دمرت المدينة زمن الدكتاتور قيصر » .

ويؤكد صحة النبأ مؤرخ أخير من القرن الخامس الميلادى وهو – أوروسيوس – الذى يذكر فى حديثه عن حرب قيصر فى الإسكندرية يقول : « وأثناء المعركة ذاتها صدر الأمر بحرق الأسطول الملكى ، الذى كان قد رفع على الشاطئ ، وحينما امتد ذلك الحريق إلى جزء من المدينة أيضا أتى على ٤٠٠,٠٠٠ كتاب مودعة فى بناء كان قريبا ، وكان شاهدا فريدا على اجتهاد ودأب أسلافنا ، الذين جمعوا هذا القدر الهائل من أعمال النبوغ الرائعة[٨] » .

ولم تفلت المسيحية من نفس الاتهام الذى وجه لقيصر من قبل ؛ ففى مطلع القرن الثالث بعد الميلاد عندما تعرضت الإسكندرية لغضب الإمبراطور – كاراكالا – لحق الموسيون أذى كبير وعامل علماء الموسيون معاملة قاسية وألغى جميع امتيازاتهم وطرد العلماء

الأجانب ، وكانت هذه الحوادث فاتحة لسلسلة من الكوارث تعاقبت على الموسيون ودور العلم والكتب فبعد نصف قرن تقريبا تعرضت المدينة مرة أخرى سنة ٢٦٥ م للاضطهاد من - جللينوس - ضد المسيحيين ، وأصاب المدينة تدمير شديد وخاصة الحى الملكى الذي يقع فيه الموسيون ، وبعد أقل من عشر سنوات موجة من الاضطهاد على يد الإمبراطور - أوريليانوس - (٢٧٢ م) وتلاه اضطهاد الإمبراطور - دقلديانوس - حين هاجم المدينة فقتل كثيرا من مواطنيها واحترقت أجزاء كثيرة من المدينة وأمر بحرق جميع الكتب التى تبحث فى صناعة المعادن بقصد صناعة الذهب والفضة ، وقد وصلنا وصف هذا الحريق على لسان - يوحنا الأنطاكى - يقول : « جمعت هذه الكتب القيمة وأعملت فيها النيران دون شفقة » . ولما تمكنت المسيحية لعبت نفس الدور فى المأساة فقضوا أيضا على الكتب التى تمت للوثنية ولو بأدنى صلة ، وربما قضوا على المعابد وحولوها إلى كنائس ومنها على الأرجح مبنى الموسيون والمكتبة الأم .

وأخيرا اقام عمرو بن العاص والمسلمين بحرق المكتبة .

ولسنا ننوى فى هذا المقام الدفاع عن الرومان أو عن المسيحيين أو حتى عن العرب ، بل إننا بصدد إجراء أكبر وأعظم من هذا ، الا وهو :

فتح ملف القضية من جديد : وتقديم حيثيات جديدة فى قضية إحراق المكتبة الأم ، لأن الدراسات المختلفة قديمها وحديثها أغفلت - ربما عن عمد - حيثيتين على درجة عالية من الأهمية والخطورة نريد أن ندخلهما فى ملف القضية وبهذا يكون لنا الحق فى إعادة التحقيق من جديد ؛

أول الحيثيتين أن جميع المحققين عمموا القول فى قولهم مكتبة الموسيون ولم يشيروا من قريب أو بعيد إلى ما هو أهم من ذلك وهو محتوى المكتبة القديمة نفسها والتى بالتأكيد قد جمعت كل التراث العلمى والأدبى الفرعونى الذى كان قد بلغ أوجه ومداه - وهذا فى الحقيقة هو كل ما يعنينى ويعنى البشرية كلها ، والبرهان على ما أعنى هو أن هناك فجوة

واضحة وصريحة بين ما علم الفراعنة على طول ثلاثة آلاف من الأعوام وبين ما تلتـه مـن فترات تاريخية ويحق لنا أن نسأل : أين ذهب هذا التراث بأكمله ، فإن كان العلماء الـذين حققوا فى حادث الحريق قصدوا مكتبة إغريقية فى الإسكندرية فكما وضح مـن العـرض السابق أن كل ما هو إغريقى فى المكتبة له نسخ فى بلاد الإغريق نفسها ، فنتيجـة بحـثهم انتهت إلى أن البشرية لم تفقد شيئًا ، لأن الأمر لا يعدو فى نظرهم سوى فقد نسخ لها أصول فى بلاد الإغريق ، أما نحن فما يهمنا الآن هو أن نعرف : أيـن العلـم المصـرى والآداب والفنون المصرية ، حيث أن البشرية بدأت من مرحلة الصفر بعد ذلك ، وما ينبغى أن يكون الأمر كذلك .

الحيثية الثانية : اتهام أطراف كثيرة ، من رومان ومسيحيين وعرب لا يفى بمتطلبـات التحقيق ، فقد كان هناك أطراف أخرى موجودة على الساحة لم يـتم طرحهـا فى دائـرة الاتهام ، فالإسكندرية كانت مسكونة فى ذلك الوقت من جنسـيات مختلفـة لم تـذكر فى التحقيقات ، وعلينا الآن أن نلقى الضوء عليها لنرى هل يمكن ان تشير أصابع الاتهـام إلى آخرين أم لا ، وإن كان الأمر كذلك فما هى الدوافع التى تكمن وراء شخوص الاتهام ، بما يكفى لإقامة الحجة عليهم ، وذلك فيما يخص مكتبة بعينها ، ألا وهى المكتبة الـتى حـوت الكنوز المصرية القديمة .

سكان الإسكندرية : يقول ديودوروس ، استنادا على قوائم السكان الرسمية فى عام ٦٠ ق م أن عدد المواطنين الأحرار فى الإسـكندرية كان يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ نسمة ، لكنه لا شك أن عدد سكان هذه المدينة كان يزيد كثيرا على ذلك لأن المصريين واليهود والعبيد وكذلك كثيرين من الإغريق وأشباههم كانوا يعتبرون خارج هيئة المواطنين .

وشملت المدينة بوجه عام :

الإغريق – المقدونيين – الفرس – المصريين – اليهود ، وطوائف أخرى مثل التراقيين والفروجيين والسوريين والفينيقيين والقاريين والبابليين والهنود والأعراب .

وكان اليهود أهم العناصر الأجنبية بعد الإغريق فى دولة البطالمة وقد استقروا فى مصر قبل الفتح المقدونى بأجيال كثيرة لأنه يقال أنه فى خلال القرن السابع كان ملوك إسرائيل يستبدلون بالجنود خيولا من مصر ، وكانوا يشتغلون بالتجارة والجندية . ويحدثنا المؤرخ اليهودى – جوسيفوس – بأن الإسكندر الأكبر أو بطليموس الأول ، عندما فتح مصر ، أنزل عددا من اليهود فى حى خاص بهم فى الإسكندرية ، كما تشير النقوش والوثائق البردية والملفات الأثرية إلى انتشار اليهود فى أنحاء مصر طوال عصر البطالمة ، ففى الجبانة اليهودية بالإبراهيمية فى الإسكندرية وجدت مقابر لليهود من عصر البطالمة الأوائل كما انتشرت معابدهم فى جميع الأنحاء من مصر .

وكان اليهود يمارسون مختلف المهن فى مصر كالزراعة وإدارة المصارف والتزام الضرائب والجندية ، وبعضهم تولى مناصب ذات شأن فى خدمة الحكومة كالضابط والقائد ورئيس الشرطة وسكرتير للملك ، فضلا عن قائدّى جيش كليوباترا الثانية .

وقد تركز اليهود بوجه عام فى الإسكندرية حيث سكنوا الحى الرابع ، وكان هذا الحى يجاور الحى الملكى من الجهة الشمالية الشرقية ومع ذلك فقد انتشر عدد منهم فى مختلف أحياء المدينة ، وقد تكونت لهم جالية كبيرة لدرجة أنهم منحوا حكما ذاتيا ومحاكم خاصة بهم ، كما حصلوا على امتيازات أكبر فى زمن قيصر حيث يقول جوزيفوس بأنه قضى أن يقام فى المدينة نصب من البرونز أثبت عليه أن يهود العاصمة مواطنون أسكندريون [٩] .

وإزاء كل هذه الاعتبارات نرى أن اليهود بسلطانهم الذى اكتسبوه سواء فى عصر البطالمة أو فى العصر الرومانى كانت لديهم السطوة والقوة الكافية من خلال مناصبهم المدنية أو كجنود فى الجيش والتى تجعل فى إمكانهم عمل أى شئ مهما عظم حتى إحراق مكتبة الإسكندرية ، فربما أن مجموعة من الجنود اليهود استغلوا الموقف وقت إحراق قيصر للاسطول فى الميناء بتدبير من رؤسائهم أو حاخاماتهم أو رئيس جاليتهم – جنارخيس أو أثنارخيس كما كانوا يسمون – فتسللوا إلى داخل المكتبة القديمة التى تحوى الكنوز المصرية القديمة وأضرموا فى الكتب النار ، لأنه لا يمكن حرق الكتب إلا من داخل المكتبة ذاتها ،

كل هذا بشرط أن يكون لديهم الدافع القوى والمقنع لهذه الفعلة ، على الأقل الدافع المقنع بالنسبة لهم .

فهل يا ترى ! قد توفر لديهم مثل هذا الدافع ، لا بد وأن يكون قويا يستحق كل هذه المغامرة التى قضى بها على تراث ثلاثة آلاف سنة من حضارة العالم القديم .

لعل فصول كتابنا هذا تكشف هذا الدافع .

والحكم بعد المداولة !!

هوامش الفصل الاول

(١) مصر الفرعونية – د. سيد توفيق – ص٣٩ – ١٩٨٧ – دار النهضة العربية .

(٢) مكتبة الإسكندرية القديمة – د. مصطفى العبادى – ١٩٧٧ – الأنجلو .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المرجع السابق .

(٦) كتاب الإفادة والاعتبار – عبد اللطيف البغدادى – ص٥٢ – دار قتيبة دمشق– تحقيق أحمد غسان سبانو .

وقد ذكر البغدادى فى وصفه لعمود السوارى بالإسكندرية سنة ٦٠٠ هجرية : « وأرى أنه الرواق كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده ، وأنه دار العلم الذى بناه الإسكندر الأكبر حين بنى مدينته ، وفيها كانت خزانة الكتب التى حرقها عمرو بن العاص بإذن من عمر رضى الله عنه » . ولاحظ أن البغدادى لم يكن على دراية كافية بالتاريخ حتى أنه لم يعرف تمام متى عاش ارسطو ، فقد أنشئت الإسكندرية بعد وفاة أرسطو بزمن طويل ، وبالتالى لم يزرها .

(٧) تاريخ التمدن الإسلامى – جرجى زيدان – ج٣ ص٤٤ – مراجعة حسين مؤنس– دار الهلال – ويلاحظ أن جورجى زيدان قد غير رأية وأدان العرب فى حريق المكتبة .

(٨) مكتبة الإسكندرية القديمة – مصطفى العبادى – ١٩٧٧ – الأنجلو .

(٩) تاريخ مصر فى عصر البطالمة – د. إبراهيم نصحى – ج٢ – ١٩٨٧ – الأنجلو .

الفصل الثاني

النمـــــــــروذ

لم يكن تحتمس الرابع الوريث الشرعى لعرش مصر إبان الأسرة الثامنة عشرة فى الدولة الحديثة (١٥٥١ – ١٣٠٥ ق م) ، ولكنه سوغ لنفسه كرسى الحكم باختلاق قصة شبيهة للتى اختلقتها من قبله الملكة حتشبسوت ؛ والأسطورة تحكى – كما هى مسطرة على اللوحة الجرانيتية التى ترجع إلى العام الأول من حكمه ، وهى قائمة حتى الآن بين مخالب تمثال أبى الهول المعروف بالجيزة – أنه وهو ما يزال يافعا ذهب ليحتمى بظل أبى الهول بعد رحلة صيد مضنية ، وهو ذا فى المكان غلبه النعاس ، فرأى فيما يرى النائم الإله – حور م آخت – الذى هو مجسد فى أبى الهول ، يبث إليه البشرى بتاج مصر لو أنه حرر تمثال أبى الهول من الرمال التى كانت تغطيه بمرور الزمن ، وقد تحقق الحلم ووفى الملك بوعده بأن كشف الرمال عن جسد أبى الهول ، وها هو الملك تحتمس الرابع يرى فى أثناء حكمه يرتقى عربته الحربية التى تجرها الجياد الأصيلة ومقدمتها مزينة بمناظر تمثل ساحات القتال ، منظر لا يخفى على الرائى مقدار العظمة والأبهة التى تخلب الأبصار ، وعربته تلك مازالت تشهد على ذلك وهى معروضة فى المتحف المصرى الآن[1] ، وكان الرجل يتمتع فوق ذلك بحنكة سياسية وعسكرية ودبلوماسية أيضا فقد خطا خطوة جريئة عندما تزوج من أميرة ميتانية وهى الأميرة – موت م أويا – وتفادى بتلك المعاهدة السعيدة صدامات عسكرية فى سبيل تأمين حدود مملكته ، ورزق وليا للعهد فى فترة حكمه الأخيرة من هذه الأميرة ، الذى نصب ملكا على مصر ، ذلك هو أمنحتب الثالث[2] .

T: Nb-m3ᶜt-Rᶜ

– نب ماعت رع

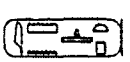

E: Jmn-htp

– أمنحتب

جلالة « حور » الثور القوى ، المضئ فى الصدق ، محبوب الإلهتين ، مؤسس القانون ، ومهدئ الأرضين « حور الذهبى » ، العظيم فى القوة ، ضارب الآسيويين ، الإله الطيب ، حاكم طيبة ، رب القوة ، شديد البأس ، ملك الوجه القبلى والوجه البحرى ، نب ماعت رع ابن الشمس ، أمنحتب حاكم طيبة ، محبوب أمون ، ملك الآلهة ، وخنوم سيد الشلال الذى يعطى الحياة ..

عصر هذا الملك هو من العصور المزدهرة فى حضارة مصر القديمة ، يقول سيريل ألدريد : « إنه عند اعتلائه العرش كان نمو مصر المضطرد فى قوتها وثراؤها قد بلغ الذروة .. كل هذه الثروة المنصبة داخل مجتمع عالمى مفتوح فى دولة ذات بلاط فاخر به حاشية ضخمة من الأميرات الأجنبيات وبطانتهن أثرت على البيئة النمطية المصرية[٣] » .

وكان حكم تحتمس الرابع ومن بعده خلفه أمنحتب الثالث طويلا ومستقرا ، فازدهرت الفنون الراقية ، فظهرت ثلاثة أجيال من المصورين والمثالين والمعماريين والحرفيين على مستوى رفيع أمكنهم تنفيذ كل ما أنيط بهم من أعمال ، ولم توجد بعد ذلك فترة أخرى تحقق فيها مثل هذا الازدهار لفن النحت مع الضخامة فى حجم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج .

وقد كان المقر الملكى على الأرجح فى غرب طيبة ، فمن المؤكد أنه بنى قصرا منيفا هناك ويقترب هذا البناء لأن يكون مدينة صغيرة أو مجمعا يغطى ما يقرب من ثمانية أفدنة ، وكان يسمى « الملقاطا أو قصر المسرات » وكان هذا القصر متصلا بمعبد جنازى بواسطة ممر وخصص لعبادة آمون ، وكان بناء ضخما لدرجة أنه استخدم فيما بعد كمحجر ، وكأنما هى سخرية القدر حيث تباهى الملك بأنه قد بناه ليبقى للأبد ولكى « يخلد خلودا أبديا » ومن كل ذلك لم يبق اليوم منه سليما سوى تمثالين عملاقين للملك أطلق عليهما فيما بعد « تمثالا ممنون » .

وقد صورت قصة الولادة الإلهية للملك على جدران معبد الأقصر الذى أمر بإقامته الملك أمنحتب الثالث ليبرهن على أنه الإله وابن الإله .

وعن موسوعة سليم حسن : « .. غير أن طبيعة أمنحتب الإلهية لم تكن رسمية فقط ، بل كان مثله كمثل الملكة حتشبسوت من قبله ، ابن الإله مباشرة . وذلك أن الإله آمون ملك الإمبراطورية الأعظم وربه الأعظم قد تمثل للملكة « موت م أويا » بشرا سويا فى صورة تحتمس الرابع ، على حسب ما جاء فى نص معبد الأقصر ، ونفخ فيها من روحه واجتمع بها ، ووضعت له غلاما زكيا اسمه أمنحتب الثالث ، وبذلك يكون آمون هو والده الروحى . ولا غرابة فى أن نرى هذا الفرعون يعد نفسه منذ نعومة أظفاره ابن الإله ، وسنرى أنه كان مؤلها فى المعبد الذى أقامة لنفسه ولإلهه « آمون » لهذا الغرض » . وهكذا فإنه كان يعبد بشكل قاطع فى صور تماثيله بصولب ومنف ومصر الوسطى وطيبة وهو ما زال حيا[٤].

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن نوضح معلومة خافية عن الكثيرين ، وهى أن لقب « فرعون » – وأصله : بر + عا ، ويكتب هكذا pr·ʿ3 .

وترجمته الحرفية هى البيت العظيم ، هو رمز للحكم كأن نقول فى عصرنا هذا : البيت الأبيض كرمز للحكومة الأمريكية مثلا – هذا اللقب لم يكن معروفا إلا ابتداء من الملك تحتمس الثالث ، مؤسس الإمبراطورية فى الدولة الحديثة ، ولم يكن هذا اللقب معروفا لا فى عصر الدولة الوسطى ولا فى عصر بناة الأهرام فى الدولة القديمة [٥].

بقى أن نذكر أن الآسيويين كانوا ينطقون اسم الملك أمنحتب الثالث .

نب معت رع : نمروا ، وهذا النطق هو بعينه ال – نمـــروذ –

« ممنـــون » جدًّا

استكمالا لمنجزات أمنحتب الثالث – النمروذ – نقول إن أعظم وأفخم بناء أقامه هذا الملك فى طيبة معبده الجنازى الذى أقامه على الضفة اليمنى للنيل فى السهل المنبســط وراء شاطئ النهر ، وقد كان غرضه الأول من إقامته أن يكون معبدا جنازيا له يعبد هــو فيــه بوصفه إلها وكذلك ليكرم فيه والده « آمون » ، غير أن عوادى الدهر ويد التخريب لم تبــق عليه ، ولم تذر حجرا من أحجاره ، ولم يصل لنا من أطلاله ما يدل على فخامته وعظمتــه إلا التمثالان المعروفان بتمثالى « ممنون » المنحوت كل واحد منهما فى قطعة واحــدة مــن الحجر الرملى المستخرج من محاجر الجبل الأحمر الواقع بجوار عين شمس بارتفاع يصــل إلى العشرين مترا ، وقد نقل هذا الفرعون هذين التمثالين إلى هذا المعبد فى طيبة الغربية وهــو يعبر عن ذلك بكبرياء وفخار بالعبارة التالية :

« لقد نقلتهما من عين شمس الشمالية إلى عين شمس الجنوبية (طيبة) »

ولقب الفرعون نفسه على تمثاليه « صاحب الآثار العظيمة التى نقلها بقوته من عــين شمس الشمالية إلى عين شمس الجنوبية » .

وتحاك حول هذين التمثالين أساطير لا علاقة لها بصاحب التمثالين وبانيهما ، ولكنا فى الصفحات التالية سنقوم بدراسة علمية لهذا الموضوع لنصل إلى حقيقته التى هى فى الحقيقــة ليست صعبة الفهم والإدراك :

يقولون إنه فى عام ٢٧ ق م حدث زلزال قضى على بعض ما كان ماثلا من خرائــب طيبة ، وهشم التمثال الشمالى من تمثالى « ممنون » فكسر نصفين ، وسقط نصفه الأعلــى ، وكان هذا الزلزال الذى تسبب فى الكسر فاتحة عهد جديد فى شهرة هذا الأثــر ؛ إذ بعــد حدوثه بزمن قصير كان المارة يسمعون فى الصباح المبكر عند طلوع الشمس صوتا موسيقيا ينبعث من التمثال المكسور كأنه صوت عود ، وقد انتشر خبر تلك الأعجوبــة ، ومــن ثم حبك الخيال الإغريقى الخصب الخرافات عن سبب هذا الحادث . وقد أفتوا بأن الصــوت

المنبعث من التمثال هو صوت « ممنون » بن « تيتوس » أخى الملك « برايام » صاحب « طروادة » و « إيوس » الإلهة الإغريقية إلهة شفق الفجر .

وتقول الأسطورة : إن ممنون كان يهاجم أهل طروادة هو وجيش من الإثيوبيين ضد الإغريقيين ، وقد قتله « أخيل » البطل الإغريقى ، غير أن أمه « إيوس » التقطت جثته من ساحة القتال ، ودعت الإله « زيوس » أن يمنحه الأبدية ، وقد صارت الدموع التى انهمرت من عينيها عليه تمثل نقطة الندى التى تظهر كل صباح عند مطلع الشمس . وعلى حسب الخرافة الجديدة التى نشأت حول التمثالين نعرف أن الأصوات الموسيقية العذبة التى كانت تسمع كل صباح عند مطلع الشمس هى نبرات صوت هذا البطل يرحب بوالدته عندما تشرق الشمس فى السماء الوردية اللون .

ولقد نال هذا التمثال شهرة عالية دوت فى كل مكان ، حتى أن أباطرة الرومان قد دفعهم حب استطلاع هذا الشئ الغريب إلى أن يفدوا لزيارته ، ففى القرن الثانى بعد الميلاد قام الإمبراطور « هادريان » بسياحة إلى طيبة ليستمع إلى هذا الصوت ، وبعد مرور سنين على زيارته هذه جاء الإمبراطور « سبتيموس سيفيروس » لزيارة هذا التمثال وسر به كثيرا لدرجة أخذته ، فأمر بإصلاح ما تهدم منه ، فركب الجزء العلوى فى مكانه ، وبذلك ظهر فى صورته الحقيقية ، غير أنه مما يؤسف له أن هذا الإصلاح كان إيذانًا باختفاء هذا الصوت ، ومن ثم بقى صامتا فلم يسمع ثانية[٦] .

تلك هى الأسطورة المزعومة وبها كما رأينا الخصب من الخيال ؛ ابتداؤه : الزلزال المزعوم عام ٢٧ ق م ، والذى شطر تمثالا واحدا منهما دون الآخر ومن منتصفه . ومنتهاه : القصة التى وضعت لتبرر إعادته إلى أصله ، ولكن الحقيقة وللعجب فى داخل نفس الأسطورة ..

فلنر ولنحلل !!

التمثالان كانا على مدخل المعبد الجنازى لأمنحتب الثالث – النمروذ – ولما كان إخناتون فى صباه وبداية مرحلة الشباب والنضج قام هو وأتباعه بالتعدى بالهدم والتكسير

والتخريب لكثير من الآثار والتماثيل التى كانت تمثل الوثنية فى نظرهم ، وكان على كلا جانبى مدخل المعبد تماثيل كثيرة للآلهة ولأبيه فقام هو والأتباع مستخفين فى جنح الليل وحطموا كل هذه التماثيل عدا واحد منهم ، وهو الذى كان قائما طوال الفترة التاريخية من عهد إخناتون إلى القرن الثانى الميلادى ، ولأن وقوف هذا التمثال وحيدا يمكن أن يذكر بالواقعة الحقيقية تآمر هؤلاء الذين يهمهم الأمر على أن يعيدوا التمثال الثانى إلى وضعه الأصلى وإصلاحه ، وحاكوا الأسطورة ، معتقدين بذلك أنهم انتهوا من « الضحك » على كل البشرية التى سوف تأتى فيما بعد ، ولكن لسخرية القدر تصبح عملية الإصلاح للتمثال الثانى وإعادته إلى أصله هى مفتاح كشف السر ، وتكون الأسطورة دليلا ثانيا على صحة ما كان . أما عن الزلزال فهذا يحتاج إلى علم لدنى ليثبت أنه أوقع بواحد من التمثالين دون الأخر ، إن كان هناك زلزال من الأصل قد وقع ، ولماذا هذا التمثال على وجه الخصوص ؟!!

على العموم : سيتضح هذا أكثر كلما توغلنا داخل الموضوع .

الآلهـــــة بالمئـــــات

كان يعبد فى مصر على طول تاريخها القديم أكثر من ألف إله فى صور آدمية وحيوانية ونباتية ، وكان عند بزوغ شمس الدولة الحديثة ، بعد أن قضى أحمس الأول على فلول مـــا يسمى بالهكسوس وأخرجهم إلى غير رجعة من مصر ، أن أخذت سمة جديدة فى التطـــور ، حيث أخذ الإله « رع » فى تبوء مكانة متميزة بين صفوف الآلهة كإله واحد متفرد أزلى حتى أن سلسلة المعبودات الأخرى بدأت تندمج وتذوب فى المعبود رع ، وقد بدأ إدماج الآلهـــة الأخرى فى اسم رع ، فنجد : منتو رع ، سوبك رع ، خنوم رع ، آمون رع ، حتى إلـــه الموتى – أوزوريس – الطيب نراه وقد اندمج أيضا فى إله الشمس ، حيث تندمج الشمس مع إله الموتى كل ليلة بعد غروب الشمس فى العالم السفلى ، ويكونان « الروح المتحـــدة » ويأخذ اسم « أوزى رع » .

ومنذ الأسرة الخامسة أخذ الملوك لأنفسهم عند اعتلائهم العرش اسما له صلة بالإلـــه رع ، ويشارك رع فى طبيعته ، وهكذا يتحد الملك مع الإله – أبيه – خاصة بعـــد موتـــه ، فيكون ذا طبيعة إلهية .

وبهذا يكون الإله رع قد تربع فى إقليم الشمال – هليوبوليس و أون – أما فى مصـــر العليا فكان المتربع على عرش الآلهة هو الإله – منتو ومين – ولكـــن إلى جانبـــهم الإلـــه « آمون » .

نقول بعد طرد الهكسوس على يد ملوك مصر العليا بدأ الإله رع المتربع على عـــرش مملكة الشمال يتحد مع آمون المتربع على عرش مملكة الجنوب ويكونان إله الدولة المتحدة ، بل ويصبح أكبر إله فى الدولة كلها . وإلى جانب هذا وذلك ظلت الآلهة المحلية تعبد جنبا إلى جنب مع الإله الرسمى الأكبر آمون رع [٧].

ويحلو لمعظم المفكرين وكتاب التاريخ والديانات المصرية القديمة أن يجدوا تمهيـــدا لمـــا يسمونه « الثورة الكبرى » أى ثورة إخناتون الدينية ، بل ويسمون هذه الحقبة – بغير حق

– عصر الهرطقة ، ويبحثون بلا جدوى عن بذور للتوحيد تمهد لدعوة إخناتون ، وكأن هذا هو الشئ الطبيعى . ولكنا نرى أن هذا التعسف لا محل له فى هذا الموضوع – موضوع النبوات – بل وعلى النقيض منهم نقول : لظهور أى نبوة فلا بد وأن يكون المجتمع الإنسانى قد وصل إلى قمة مرحلة الشرك ووصل فى عبادة الأوثان إلى منتهاها فهذا ما يحتم ظهور النبى . ولا يستطيع الغربيون أن يفهموا ذلك بسهولة ، فهم بعيدون كل البعد جغرافيا وإيديولوجيا عن المنطقة التى تنزلت فيها الرسالات ، اللهم إلا إذا كان وراءهم دوافع أخرى .

نقول مع تحول العبادة الرسمية للدولة إلى التوحيد بين رع وآمون تكونت سيطرة كهنوتية متعصبة وقبضت بالتدريج على زمام الأمور فى صورة طبقة من الكهان شرعت فى نشر هذه العبادة ، وابتدعت عددا كبيرا من الاحتفالات تتحكم فى مجرياتها ، بل ووصل الأمر إلى أنهم اكتسبوا لأنفسهم حق البت فى الأمور السياسية ومجريات أمور الدولة ، وشيئا فشيئا تشابكت الهيئات السياسية مع الهيئات الكهنوتية ، حتى وصل بهم الحال مع السلوك الكهنوتى الموجه أن بدأوا يظهرون فى مسيرات فى الشوارع لتتوقف مسيرتهم أمام مكان أو شخص ، وكان الإله آمون يشير على هذا الشخص فيتحول إلى ملك[٨] ، ولعلنا نرى هذا بوضوح فى الأسر التالية لهذه الفترة .

البـــــــداية

لقد عاش الملك والإله – أمنحتب الثالث – نب معت رع – نمروذ – حياة مزدوجة ، حياة الإله أو ابن الإله المهيمن على الدين والدولة فى مملكته يحكمها بما أملاه عليـــه وحيـــه هو ، وعلى الجانب الآخر أخذ كإنسان يرشف الملذات رشفا ويعبث بحياته وحياة الآخرين غير آبه بما سيحدث فى الغد ، والغد القريب .

وفى ليلة من ليالى عام ١٣٩٠ ق م ، ولدت له زوجته الملكة – تى – غلاما زكيـــا ، وأعطته اسم أبيه أيضا – أمنحتب (آمون راض) ، ولم يكن أحد ليتكهن بمـــا ســـيحدث فى المستقبل القريب جدا ، ولم يكن أحد ليتكهن أن من صلب هذا الأب العابث سيخرج مـــن سينير الدنيا كلها ويملؤها بترنيمات الوحدانية الحلوة العذبة ، ليحقق بذلك ثورة ما لها مـــن شبيه فى تاريخ البشرية حتى ذلك الموعد .

شب الغلام أمنحتب الابن على حب الطبيعة والتأمل فيها وفيما وراءها يبحث عـــن الخالق لهذا العالم بعد ما رأى فى ورش العمل الكثيرة فى جميع أنحاء مصر النحاتين ينحتون آلهة من حجارة متعددة أشكالها وأحجامها وألوانها ، فأخذ بما له من حدة ذكاء وفطنـــة يـــدرك سخافة ما ينحتون ويصنعون .

وتتوالى الأيام والفتى يكبر ويناقش الكبار من معلميه فى مدرسة أون – هليوبـــوليس حيث تلقى تعليمه – ورجال القصر فى كل ما يعن له من أسئلة غريبة واستفسارات ، وهم من أمره يعجبون .

وما إن قوى عوده واشتد ، نما لديه كم معقول من المؤيدين له فى أفكاره حتى بـــدأوا خلسة يدبرون شيئا ما ..

لقد هداه تفكيره إلى تلقين مجتمعه درسا فلسفيا تربويا وعمليا ، حيث وضـــع خطـــة طموحة لتحطيم تلك الأوثان العملاقة هو ومن تبعه ، متخفين متنكرين ، فهداه منطقـــه إلى البدء بتماثيل مدعى الألوهية – أبيه – ليروا ما إذا كان سيتصرف كإله أم كبشر ضعيف ،

وفى ذات الوقت يبعثون بفعلتهم هذى روحا جديدة فى كيفية استخدام المنطق والعقل السليم فى التأثير على التفكير لدى عامة الناس لكسب مزيد من المؤيدين ، فإن جاءت العاقبة وخيمة فسيكون الأب بالتأكيد رحيما على ابنه فلن يقتله ربما لأن كرسى العرش يحتاج إليه . وخير بداية تكون بالمعبد الجنازى فى غربى طيبة ، حيث استغلوا فرصة غياب الملك الأب بعيدا عن العاصمة ، وأعملوا معاول الهدم والتحطيم فى جميع الأصنام والتماثيل التى كانت فى مدخل المعبد على الجانبين (أمنحتب الرابع مصور وهو يحمل المعول على جدار معبده فى الكرنك) ، حتى التمثالان الكبيران فى المدخل لم ينجوا من التحطيم ، فقد قطعوا تمثالا منهما نصفين ، وتركوا التمثال الآخر معلقا عليه المعاول ، لتبدأ بهذا عملية تعليمية تمهيدية لتفعيل دور العقل فى مسألة الألوهية والعبادات .

ولسنا نقول هذه القصة من عندياتنا ، فإن عليها الدليل والبرهان فى قصة التمثالين التى سردناها قبل قليل – تمثالى « ممنون » ، فمسرح الأحداث لا يمكن أن يجد لنفسه مكانا أنسب من هذا المسرح فى هذا المكان فى طيبة ، ليس هذا فقط بل إن الذين نفذوا العملية السرية قد رآهم الآخرون ولأنهم كانوا ملثمين ، أو على الأقل قائدهم ، لم يمكن التعرف عليهم فلما عاد الملك الإله إلى عاصمته فوجئ بهذا المصاب ، فلما سأل عن الفاعلين ، لم يجد إجابة سوى أن هناك فارسا متخفيا متنكرا أو ملثما قاد هذه المؤامرة ، ونعجب عندما نتعرف على تلك الكلمة من اللغة المصرية التى أطلقوها لتعبر عن الفاعل ، بل إنها كشف حقيقى نهديه إلى كل من يقدر العلم والإبداع ، تلك الكلمة المصرية هى :

إبـــــــرام

وكلمة إبرام لو حللنا أجزاءها لوجدناها تتكون من كلمتين مصريتين

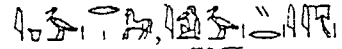
: الجواد (النوع الأصيل من الخيل)

jbr [ext, näg, syll] Hengst

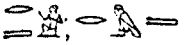
: رام أو رامه أو رمتش (كما يصر علماء المصريات على نطقها) وتعنى رجل [٩] Mann,

rmṯ

فيكون معناها الحرفى : الرجل على الجواد ، والمعنى التركيبى : الفارس ونتساءل الآن : هل كان لتغيير معالم التمثالين وإعادة بناء التمثال الثانى ، وفوق ذلك نسج أسطورة غبية لتغيير ملامح الحدث الحقيقى ، معنى غير الرغبة ممن يهمهم الأمر فى طمس الحقيقة وتزييف التاريخ ، لقد قادونا بسهولة ويسر إلى اكتشاف الحقيقة الغائبة ، وأنا شخصيا « ممنون » جدا لهم ولتمثالى « ممنون » .

وستلعب مسألة اللثام والفتى الملثم دورا مركزيا فى بقية حياة البطل والداعية – أمنحتب الرابع ، فلنتابع !!

مـــــلك أم نبى

ومع بلوغ الفتى أمنحتب مبلغ الرجال فى أوائل العشرينيات من عمره ، ينصب ملكا مشاركا مع أبيه فى الحكم ، وقد كان له أخ أكبر منه قد نصب ملكا مشاركا قبله ، ولكن أتاحت وفاته المبكرة الفرصة أمام ملكنا الشاب أن يتبوأ مقعده على كرســى الحكــم إلى جانب أبيه الذى كان قد بلغ من الكبر عتيا ، وقصة الأخ هذه سنعرضها بتفصيل أكثــر فى كتابنا القادم إن شاء الله ..

من الوهلة الأولى عند اعتلاء أمنحتب الرابع – الفارس المعروف لدى كثير من رعاياه تحت اسم – إبرام – وكما هو معروف عند اعتلاء العرش سجل اسمه فى خرطوش ملكى ، وكان الخرطوش الملكى فى العادة بمثابة إعلان عن برنامج الملــك الإصــلاحى الجديــد فى المملكة ، وكان ذلك يتم منذ فجر التاريخ المصرى فى خمسة خراطيش ملكية . فنجد مليكنا الشاب بجرأة وجسارة يتجاهل العرف السائد فى كتابة اسم إله المملكة – الإله آمون رع – ليسجل محله اسم إلهة الجديد « آتون » .

وكلمة « آتون » رغم كونها مفردة من مفردات اللغة المصرية القديمة ورغم التعســف الواضح عند الباحثين لإرجاعها إلى أصلها القديم لتعنى قرص الشمس إلا أن هذا الكــلام يتهاوى عندما نعرف أن هذه الكلمة بقيت لنا حتى الآن لتدل على المعنى الحقيقى لها :

فكلمة « آتون » قد تحولت إلى « آدون » وتكتب فى العبرية هكذا :

אדון – سيّد ، أستاذ ، مولى ، رَبّ ، بعل

وكلمة אדון האדונים – ربّ العالمين[١٠]

فلا مندوحة من التسليم بأن هذه الكلمة تعنى « الله » باللغة المصرية القديمة ، ولا مفر إلا أن نسلم بأن أمنحتب الشاب قد استخدمها بهذا المعنى ، وسيتضح لنا كلما توغلنــا فى هذا البحث صحة كلامنا .

والملفت للنظر فى سياسة هذا الملك الشاب أنه قد تنازل عن برنامج السياسة الخارجية الذى كان يصور الملك فى غزواته وفتوحاته وتأديبه للممالك الخارجية لصالح برنامج تبشيرى دينى ، وقد بدأ برنامجه بالبناء بيديه فى – الكرنك – ولما علا البناء وارتفع لم يهده للإله آمون كما كان متبعا من قبل ومن بعد ولكن لإله آخر هو – رع حور آختى – الذى هو آتون .

ويظهر الإله الجديد فى التبلور شيئا فشيئا ويتخذ اسما رسميا لم يحمله إله بعده فى تاريخ الحضارة المصرية وهو كما يلى : « فليعش رع حور آختى الذى يتهلل فى الأفق باسمه شو ، الذى هو آتون » . هذا هو الاسم الإلهى فى هذه المرحلة المبكرة والتى تعتبر مرحلة تحضير للنبوة أو رحلة البحث عن الذات الإلهية .

يقول الأستاذ « هورنونج » Hornung حقيقة هذه التسمية ليست مجرد مسمى ، وإنما نوع من « النطق بالشهادة – شهادة التوحيد » والتى ستأخذ شكلها الطبيعى فى الخطوات التالية ربما فى السنة الثالثة من حكمه وتظهر فى شكل خرطوشين يحتويان على اسم الله الواحد[١١] .

ولأول مرة فى التاريخ نجدنا نعيش لحظة بلحظة تبلور فكرة التوحيد كما لو أن الله الواحد قد بدأ يشرق على البشر ، ويختار ويختص ويشرف برسالته ملك ملوك الأرض الذى لم يؤله نفسه قط – فهو : « ابن الإنسان » كما سمى نفسه وسماه أتباعه – ولم يؤله اباه قط ، ولم يؤمن بتعدد آلهة قط ، ولم يسجد لوثن قط ، بل سعى إلى الله بنفسه سعيا خالصا لوجهه ، فوجده وتهللت نفسه به وانشرح صدره للإيمان فكرس حياته كلها للدعاء لله الواحد وأخذ على نفسه أن يطهر الأرض من الآلهة المزيفة والقضاء عليهم جميعا حتى لو تخلى عن ملكه الذى لا يساوى فى نظره شيئا إلى جانب ملك الله .

وكم ذا نلاحظ مقدار السعادة التى بدأت تغمر بيت وعائلة ملك مصر الشاب ، فقد كان هذا هو الخط المميز لكل ما نراه على حوائط معبد الكرنك[١٢] ، لكأن الإيمان بالله الواحد يعطى هذا الشعور العام لكل من يؤمن به ، وهذا إن دل فإنما يدل على أن زوجة الملك السيدة نفرتيتى قد لاحظت علامات الإشراق الإلهى أو علامات النبوة على زوجها .

وتشير الصور على حوائط المعبد إلى عبودية الملك لله فقد تخلى عن فكرة تأليه نفسه – وكان يستطيعها – وقد ادعاها معظم من سلفه ومن لحقه ، فنجد المناظر المصورة على الحوائط تصور أمنحتب الشاب فى حياته الخاصة الأسرية وكأنه يريد أن يكشف بذلك لكل البشر أنه الإنسان وابن الإنسان ولا يزيد .

وانعكست كل هذه البساطة أيضا فى التغييرات والإصلاحات التى حدثت للغة ؛ وهذا بديهى ، فمجتمع كهذا كان يعبد مئات الآلهة ويقدس الملوك أيضا لا بد وأن تعدل مفردات لغته وتختفى مفردات وتظهر تعبيرات جديدة تتفق مع الواقع الجديد ، فقد فرضت اللهجة العامية التى يتكلمها الناس – عامتهم وخاصتهم – فى حياتهم اليومية سطوتها حتى نهاية حكم الأسرات ، تلك اللهجة هى المصرية الحديثة كما يسميها علماء المصريات الآن .

وفى طراز البناء فقد استخدمت مواد جديدة من طوب الحجارة أصغر من التقليدى يسمونه « التلاتات » وقد عثر عليها وقد استخدمها أعداء الديانة الجديدة فى البناء فى فترة لاحقة بعد أن خربوا المعبد وانتزعوها منه كنوع من الانتقام ، وصاحب ذلك فن جديد يعود إلى الطبيعة والطبيعة على عكس ما كان مألوفا آنذاك وسنفصل ذلك فيما بعد ، وقد تم توليف هذه التلاتات فى عصرنا الحاضر كمبيوتريا وقد ساعد كشفها فى قراءة جديدة لذلك العهد .

وما من شك الآن أن كل هذه الإشارات والتغييرات والإصلاحات فى بداية حكم أمنحتب الرابع إن دلت فإنما تدل بوضوح على أن هذا الملك قد شغل نفسه بأمره هذا وهو فى مرحلة مبكرة جدا من عمره كما يدل عليه تلك الحملات التخريبية منه ومن جانب أتباعه على قلتهم للقضاء على عبادة الأوثان . من تلك المناظر التى تلفتنا وتؤيد ما ذهبنا إليه منظر أمنحتب الشاب وهو يحمل فى يده فأسا أو بلطة ، بينما نجد منظرا آخر يحتفل فيه الملك الشاب بالعيد الثلاثينى – حب سد – وذلك يعطينا عمرا تقريبيا له فى ذلك الوقت . وحياته حتى تلك المرحلة السنية تعتبر مرحلة تحضيرية للنبوة تتسم بالتطرف الشديد ، وهذه فى الحقيقة تشير إلى التكليف من الله بالرسالة . ونحن لا نجد مبررا لكثير من نقاد الوحدانية بالذات لهذه الفترة التحضيرية لأن التكليف المحض لم يأن أوانه بعد ولكنه لا بد آت .

وعلى نقيض فن النحت فى المدرسة القديمة الذى كان مثاليا وجامدا وساكنا نرى هنا فنانا من طراز آخر يمتاز بالحركة التعبيرية العاطفية المليئة بالإحساس والتى لم تراع الواقع الساكن ، فهى نوع من التشويه المزاجى للواقع والحقيقة عمدا وقصدا ، مما دفع الكثير من الباحثين أمثال هاينريش وشيفر وشامبليون وفيدرمان وشارف وفولف إلى وصفه بالكاريكاتورية ، ويعتبرون هذا الفن الجديد نوعا من القبح والدمامة التى تصفع المشاهد لها وبالذات تماثيل الملك الشاب[١٣] ، وقد صدقوا والله فى التعبير ، فهذا التأثير الذي يصفع مشاهده كان مطلوبا فى تلك اللحظة التى يحاول فيها الملك الفنان والفيلسوف ترسيخ فكرة أنه بشر وابن بشر فكان لا بد أن يبالغ فى وسيلته تلك التعليمية حتى يصل إلى هدفه ، ولهذا لا يحق لأحد إلا إذا كان سطحيا أن يفترض أن الملك الشاب كان مصابا بأمراض أثرت على شكله الخارجى ، بل إن البعض لم يكتف بذلك وأخذ يعرض الملك الشاب على الأطباء المتخصصين – طبعا عرضوا التماثيل الحجرية . ياللسخافة والسطحية !! إنهم لا يعلمون أن قراءهم قد كشفوهم وكشفوا نواياهم .

أما عن عنصر الحركة الذى أضافه الملك الشاب بنفسه إلى فن هذه المرحلة فنجده واضحا يضاف إلى كل ما هو قابل للحركة كالملابس والأشرطة المعلقة بالملابس والتيجان ، كما تظهر لنا العربة التى تجرها أزواج من الخيول يمكن تمييزها وتفسير ما تعبر عنه من الحركة السريعة التى تدب فى كل شئ حتى فى روح ذلك العصر ، وهى بالطبع ليست حربية ولكنها وسيلة لقطع المسافات فى المكان والزمان ؛ من الإنسان إلى الإنسان ، من الإنسان إلى المعبد ، من المعبد إلى الله .

حتى شكل وحركات العبادة بدأت تنحو منحى آخر هو أقرب لعبادة وصلاة المسلمين من ركوع وسجود وتقبيل للأرض .

ومما يميز الديانة الجديدة أيضا نزع الخجل أمام التصرفات الإنسانية فهذا يرجع الإنسان إلى طبيعته الحقيقية ، ويتجلى ذلك فى علاقة الملك بأفراد أسرته وعودته إلى بشريته ليتساوى مع بقية البشر من أبناء شعبه ، فهو بشر وابن بشر وليس إلها[١٤] .

حتى الحزن فى لحظات الموت أمكن للإنسان أن يظهره بلا أدنى حرج وعلى رأسهم الملك نفسه ، فالعواطف إنسانية وليست حكرا على أحد دون الآخرين ، وإظهار الحب والعاطفة ليس حكرا على طبقة دون طبقة لأننا كلنا بشر ، وهذا كله وإن تعارض – كما يقول الاستاذ هورنونج : « مع المبادئ المتزمتة التى يدعو إليها الملك الشاب » فإنما يتسق فى النهاية مع المذهب نفسه فى بداياته ، ويبرهن على صحة ما نذهب إليه من أن الفن مقصود متعمد لخدمة الديانة الجديدة التى هى مازالت فى مرحلة النمو والتبلور ، لأن كل هذا الفن الجديد ليس من خيال الفنانين أنفسهم ولكنه إملاء وتعليمات من الملك نفسه الذى يعرف ما يفعل ويفعل ما يريد ويريد ما يريده الله الواحد خالقه ومكلفه[١٥] .

حتى تصوير الملك فى الفن السابق لذلك العهد وكان يصور من قبل فى صورة أضخم من أتباعه ومن كل رعاياه بدأ هو الآخر ينحسر ويصبح ماضيا ، ففى مناظر تقديم القرابين ، بدأ الملك الشاب والداعية للدين الجديد يظهر فى حجم أقل من الذين يقدمون القرابين وهذا تأكيد واضح على إثبات إنسانية الملك وبشريته وأن لا فرق بين هذا وذاك أمام الله إلا بالتقوى ، فالذى يقدم الأضحية هو الأقرب إلى الله من الآخرين حتى ولو كان الملك فى حضرته ، وقد تحقق هذا فى كل المناظر المصورة فى ذلك العهد .

فأى ملك هذا الذى يصل به الأمر على أن يقلل من شأن نفسه ويقلل من مقامه أمام أتباعه ؟ اللهم إلا إذا كان الملك نفسه قد اقتنع بدين جديد وبوحدانية مبرهن عليها ، لا ينتابه فيها أى قلق أو تردد أو شك وهذا لا يحدث مطلقا ولا يكون إلا فى حالة واحدة ، أن يكون الشخص قد حصل مسبقا البرهان بنفسه واقتنع به وعايشه وتعايش معه ، وهذا لا يصح إلا أن يكون قد رأى وحى الله .

التوحيـــــــــد

لم تطل فترة الانتظار حتى كان التحول الكامل إلى عبادة الله الواحد الذى ليس له شبيه ولا شريك فاختفت الصورة واختفت التماثيل واختفى كل ما هو مادى يدل علـــى الله ولم يبق سوى الرمز الذى يدل عليه مع مجتمع إنسانى لا يؤمن إلا بما هو مصور مرئى وما هـــو ملموس محسوس .

فكيف لشعب ولفن لا يؤمن إلا بهذا أن يصدق أن هناك إلها لا يرى ولا يلمس ، لهذا كان لا بد من مخرج يقرب فكرة الإله للناس ، فكان الشكل البسيط والرمز المقنع : أشـــعة الشمس التى تتدلى من السماء وتنتهى بالأيدى البشرية التى تهدى البشر نفس الحياة الـــذى يدخل فى معاطسهم ممثلة فى علامة العنخ ☥ .

وحتى فى هذه المرحلة لا يدل هذا الرمز على عبادة قرص الشمس فى ذاته ولا ينطـــق بعبادة أخرى غير عبادة الله الذى لا يرى ؛ فأسماء الله الحسنى هى صفات لله عز وجل قريبة من قدرة الإنسان التخيلية ، فمثلا اسم الله « المعطى أو الوهاب » يمكن أن يصوره فنـــان فى هيئة يد تعطى ، واسم الله « الكامل » يمكن أن يتخيله عقل مخلوق بأكمل الأشياء ألا وهـــو الدائرة ، التى يمكن أن تتمثل فى دائرة قرص الشمس مثلا ، وقوة الله فى اسمـــه « القـــوى » يمكن أن تترجم إلى صورة القوة الكامنة فى الشمس على أنها أعظم قوة فى الكـــون علـــى الإطلاق وهى سر الحياة وسر بقائها ، فلا يمكن على هذا أن يكون رمز الشمس وشعاعاتها المنتهية بالأيدى هى الله نفسه ولا يمكن أن تكون محل عبادة فى ذاتها فى ظل حضارة ماديـــة وفى ظل لغتها التى لا تعرف غير الصور .

كهنة آمون مهمومون

لم يكد الملك الشاب المتوج شريكا فى الحكم يعلن عن برنامجه الدينى والسياسى حتى قامت الدنيا ولم تقعد ، وأخذ كهنة آمون بين مصدق وغير مصدق يتساءلون حول مصيرهم لو أن مثل هذه الديانة فرضت نفسها ، وقد أعطاهم موقف الملك العجوز من ابنه دفعة قوية للتصدى للملك الشاب المارق والثائر على ألوهية أبيه وعلى دين أجداده ، وكل طرف منهم له مصلحته ، فالملك يريد أن يظل مؤلها من قبل رعاياه ، أما الكهنة فالمسالة بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت .

ونستطيع أن نتخيل الموقف فى طيبة آنذاك ومدى احتدام المعركة الفكرية التى أشعلها الداعية الجديد . فالإله جديد ونبى الدعوة جديد ومضمون الدعوة جديد ؛ ومن ملاحظاتنا للتطور التدرجى لهذه الديانة الفتية نقرر أن عملية التوحيد لم تبدأ مرة واحدة وإنما اتخذت مراحل سريعة ومتعاقبة ، ليصاحبها فى كل تغير نشاط فكرى جديد نشأ فى الدائرة التى نشأت فيها ، بما فى ذلك طائفة الكهنة الذين كانوا يبحثون عن مخرج لأنفسهم ولكهنوتهم .

ففى البدء كان آتون وإلى جانبه ما يزال آلهة أخرى تلعب دورها ،

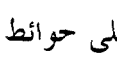

وهذا ما نلاحظه على حوائط معبد الكرنك الذى بناه الملك فى مراحل حياته الأولى ، ولكن صورة التجسيد الآتونى كإله أخذت بعد ذلك تتضاءل وتنكمش إلى أن انحصرت فى الرمز فقط ، وهو الأشعة المنبثقة عن الشمس وتنتهى بالأيدى البشرية ، وهذه التحولات يتابعها الكهنة ويترقبون .

ومن الملاحظ أن إصرار الملك الشاب على استدعاء كلمة آتون من قاموس اللغة المصرية القديمة واستخدامها دون غيرها لترمز إلى إله الواحد يثير لدينا كما أثار بالتأكيد لدى كهنة آمون فضولا يصبو إلى التعرف إلى العلة التى وراء ذلك ، فنلاحظ أن الخالق أو الإله الواحد يعتنى بالبشر ويهيئ لهم أسباب الحياة والسعادة فى الدنيا ويمدهم بحرارة الشمس وضوئها لينبت كل شئ وإلى جانب ذلك استخدمت كلمة « رع » لغويا للإشارة

إلى الشمس المرئية فى صحن السماء وليس إلى الإله المسمى بهذا الاسم قديما ، ومعنى ذلك أن الديانة الجديدة تفرق تفريقا واضحا بين الشمس وبين الله ، ولو كان آتون هو الشمس أو قرصها أو حرارتها لما حدث هذا التدقيق فى الاستخدام اللغوى للمفردات ، ونعود إلى كلمة آتون الذى تسمى به الإله الجديد لنجد أن الملك فى حقيقة الأمر قد خلص اللفظة من مدلولاتها القديمة التى كانت تشير إلى عبادة الشمس واستخدامها استخداما لغويا جديدا لتشير إلى إله بعينه ، وليس أدل على ذلك من انتقال ذات الكلمة إلى الديانات اليهودية فيما بعد واللغة السريانية والعبرية كلفظ من ألفاظ اللغة لتعنى : الرب ، آدون .

ويكون المراد هنا عند الداعية الشاب هو استدعاء كلمة من معجم المفردات المصرية لتكون اسما لإلهه الجديد الواحد المنزه فى وحدانيته بعيدا عن قائمة الآلهة المصرية القديمة . فهل أدرك الكهنة ذلك ؟!

نقول : إنه فى مجتمع مادى لا يؤمن إلا بكل مصور ومنحوت فى شكل أصنام وأوثان للآلهة كان لا بد فى البداية على الأقل من استخدام المنهج التربوى التعليمى لتوصيل المضمون الجديد ، وسمة التدرج كانت واضحة فى منهج الداعية الشاب ولا ينكرها أحد من الباحثين ، فرمز الأشعة التى تنتهى بالأيدى مثلا بعدما اختفت صور الآلهة القديمة التى تتكون من رأس حيوان على جسم إنسان أو من طيور ، قد حلت فى كل الرسوم لتسود ، ولم يتبق منها إلا الأيدى التى تخرج من الشمس لترمز إلى العناية الإلهية بالبشر ، وهذه الصورة البيانية اللغوية بقيت فى معظم اللغات حتى اليوم ، فمثلا نقول إن فلانا يؤيد فلانا ، أو أن الله يؤيدنا بتوفيقه وبركاته ، فلو محصنا فى لفظة « يؤيد » وهى فعل ، فإنه يتضح لنا من غير شك أنها تعود إلى لفظ « يد » ، ونعرف أن حروف اللغة المصرية القديمة صور وأشكال لكل ما هو ممكن الوجود ، يتضح لنا أن الأمر لم يكن يشير فى الواقع إلى أن الإله هو الشمس أو قرصها أو حرارتها بل إن الشمس بمظاهرها ما هى إلا مظهر للإله نفسه أو نعمه التى أسبغها علينا وتخرج منها الشعاعات المتدلية التى تنتهى بكفة اليد لتدل على هدية وعطاء الله للبشر .

وخلاصة القول : استدعاء الداعية أمنحتب الشاب لكلمة آتون ما هو إلا استدعاء للفظ لغوى استخدمه للدلالة على الإله ، وقد رجح هذه اللفظة على غيرها حتى لا يحدث لبس فى الفهم مع الألفاظ الأخرى التى تدل على آلهة مادية مجسدة .

وفى مرحلة تالية نجد الرسالة التوحيدية قد أخذت شكلا جديدا أشبه بالدوجما – مرحلة لا يمكن مقارنتها بأى مرحلة سالفة لها ، بل لا يوجد لها نظير على الإطلاق – مرحلة شمولية وجهت فيها كل الجهود فى جميع مناحى الحياة ، ثقافية ودينية وإدارية واقتصادية ، ويدل على ذلك ما حدث فى هذه المرحلة من إغلاق للمعابد الوثنية وتحويل كهنتها إلى مجرد موظفين فى الدولة بل وصيغ لهم « برنامج تعليم موجه وتغيير مسار » فها نحن نجد الكاهن القديم وقد تقلد وظيفة جديدة فى أحد المحاجر الصحراوية ومع كل هذا الدأب فى نشر الرسالة ومع تمتع الملك الشاب بمكانته كملك مشارك لأبيه ، إلا أن المعارضة قد أخذت على عاتقها مقاومة هذا التوحيد الجديد – على الأقل سرا – بيد أن هذا لم يثن الملك الشاب عن الوصول إلى هدفه ونشر رسالته .

ولا بد أن يكون الموقف قد تفاقم واندلعت المعارضة الساخنة لتطفو على سطح الأحداث تتصدى بكل ما أوتيت من قوة وحيلة للدعوة الجديدة لوأدها فى مهدها . ولا بد وأن تكون هذه المقاومة قد وصلت إلى مرحلة المواجهة الصريحة بل والتقاتل والتناحر بالأيدى واستخدام أسلحة الإيذاء لأتباع الديانة الجديدة على الأقل المستضعفين منهم .

أما الملك العجوز أمنحتب الثالث – نب معت رع – نمروذ فلا بد وأنه انكسر وبات كأسد مهيض الجناح محطم النفس فقد أنزله ابنه من على عرش الآلهة فى السموات ليخسف به سابع أرض ، مما أطمع جمهور الكهنة وأتباعهم بالتبجح والتطاول ، فقد بان أن الملوك ليسوا الآلهة ولا أبناءهم ووصلت الجماعة المصرية إلى مرحلة أولية من التنوير يفرقون فيها بين الآلهة وابن الإنسان ، بينما تعاطفت الزوجة الملكة – تى – مع زوجها ولم تنس على الإطلاق ابنها ولا سيما أنه هو الوحيد المخول لتولى عرش مصر ، فكانت بين نارين حب زوجها ، أو تتخلى عن ابنها فى أشد محنة ، فكان القرار أن تحتفظ بالاثنين بشرط أن يغادر ابنها المكان والزمان إلى مكان آخر وزمان آخر فى رحاب إلهه بعيدا عن المواجهة الشرسة التى كانت تنتظره ، ولأن داعيتنا يميل إلى السلام ففضل أن يترل على رغبة أمه ، فكان قرار الهجرة فاعتزلهم وما يعبدون .

هوامش الفصل الثانى

(١) مصر الفرعونية – د. سيد توفيق – دار النهضة العربية – ١٩٨٧.

(٢) إخناتون – سيريل ألدريد – ترجمة د. أحمد زهير أمين – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) موسوعة مصر القديمة – د. سليم حسن – ج٥ – مهرجان القراءة للجميع .

(٥) Nofertete,Echnaton und ihre Zeit - Philipp Vandenberg - Bastei - Luebbe . 1976

(٦) موسوعة مصر القديمة – د. سليم حسن – ج٥

(٧) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة المصرية العامة للكتاب . ١٩٩٧.

(٨) فجر الضمير – جيمس هنرى بريستيد – ترجمة سليم حسن – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٩ .

(٩) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hannig .

(١٠) قاموس عبرى عربى – يحزقيل قوجمان – دار الجيل بيروت – ١٩٧٠ .

(١١) Echnaton - Erik Hornung - Artemis - 1995.

(١٢) الآثار المصرية فى وادى النيل – ج٢ – جيمس بيكى – مترجم .

(١٣) (١٤) (١٥) Echnaton - Erik Hornung - Artemis .

الفصل الثالث

دار الهجرة آخت آتون

يبدو أن الظروف التى اضطرت الملك الشاب أمنحتب الرابع وأتباعه إلى الهجرة من طيبة كانت ظروفا قهرية ؛ فقد تكالب الكهنة فى معاداة الديانة الجديدة وأتباعها ، واستطاعوا أن يكسبوا الملك العجوز الخرف إلى صفهم ولم يكن ممكنا أن يخلعوا الملك الشاب من ولاية العهد أو من العرش ، فقد كان هو الوارث الوحيد له بعد وفاة أخيه كما أسلفنا ، وكان لا بد من حل يرضى جميع الأطراف ، فكان قرار الداعية هو مغادرة المكان والبحث عن مكان آخر للملك فيه مواصفات تتفق وطبيعة الدعوة التى يدعو الناس إليها ، ومن تلك المواصفات نستطيع وبكل سهولة التدليل على أن إله هذه الدعوة هو الله الواحد ؛

بحث الداعية أمنحتب الشاب عن مكان مناسب ووجده فعلا ، منطقة تقع الآن فى محافظة المنيا فى الصعيد الأوسط ، لم تطأها قدم كافر من قبل ولم تدنس بعبادة آلهة أخرى ولم يسجد فيها من قبل لوثن ولم يعبد فيها ملك فى داخل حدود تلك المدينة المقدسة التى حملت اسم « آخت آتون » .

3ḫt jtn

أى مسكن الرب أو بيت الرب أو أفق آتون ، وطول المدينة خمسة أميال وعرضها ١١٠٠ ياردة ، وأصبح هذا المكان مسرحا لهذه الديانة وتطورها ، هاجر إليها الملك والداعية ليثبت قدم عقيدته ، وحدد حدودها بأربعة عشر نقشا على الأقل ، منحوتة على لوحات فى الصخر ، ومقسما قسما مغلظا على ألا يغادرها وألا يتعدى حدودها إلى الأبد .

فما المقصود بهذا القسم ؟

(أ) هل اراد أن يربط نفسه فى حيز الناسك ، فلا يتحرك وراء حدود منطقته المقدسة.

(ب) أم كان مقصده توضيح أنه لا يصح أن تمتد هذه المنطقة أو تتسع وراء هذه الحدود فيجور بذلك على حقوق الحكام المجاورين له ؟

(جـ) أم أراد أن تنمو ديانته وتكتمل بعيدا عن الأخطار والتهديدات ثم يشرع فى نشرها فى أرجاء المعمورة ؟

(د) أم أنه كان يرى أن أى مكان أخر فى مصر فى ذلك الوقت هو مكان دنس غير طاهر لا يجب أن يطأه لا هو ولا أعوانه حتى لا يعلق بهم هذا الدنس بعد أن شفت نفوسهم وتعرفت على الله ؟

فأيًا ما كان المقصود فقد وضحت لنا المعايير الجديدة التى أتت بها تعاليم هذا المبشر .

أما عن منشآت هذه المدينة فتضم ثلاثة قصور ، أحدها قصر للتصييف ذو تخطيط غريب ثم قصور الحاشية والأمراء ، وتضم أيضا عدة معابد منها معبد آتون ذو الضخامة والفخامة المهيبة ، ثم تضم المدينة أيضا منشآت صناعية للمنتجات المطلية بالزجاج الملون أو المصنوعة من الزجاج نفسه ، أما عن الفن المستخدم فقد شملت روح الحرية كل مظاهر الفن ولو لفترة قصيرة ، فن متحرر يصل إلى درجة الكاريكاتور .

وقد عاشت المدينة لمدة لا تتعدى جيلا واحدا نمت بسرعة وانتهت بسرعة ، ولكن تأثيرها امتد إلى الأسر التى خلفتها .

أما عن شوارع المدينة فتشقها ثلاثة من الشمال إلى الجنوب تقطعها شوارع عرضية ، ويجب أن ننتبه لهذا التخطيط لأننا سنجد لها شبيها فى مكان آخر فى بابل سيكون لنا أيضًا مفتاحا ودليلا على صحة ما نحن بصدده .

وكانت بيوت المدينة تختلف فى مساحاتها وفى فلسفة بنائها ؛ فنحن نجد بيت الكاهن الأعظم يجاور صانع الجلود والوزير يلاصق الزجاج ، وقد زودت تلك البيوت بمغاسل وحمامات ربما للتطهر ، وجميعها مبنية من الطوب اللبن ، وقد عثر فى مصنع المثال « تحتمس »

على قطع فنية ثمينة أمثال الجزء الأعلى الملون للملكة - نفرتيتى - وكذا النحات « أوتا »[1].

أما الجبانة فهى تضم مقابر عادية على الجهة الشرقية خرقا للعادة والتقليد المصرى فى الدفن فى الغرب .

وفى يوم ١٣ من الشهر الرابع للفيضان فى السنة الخامسة من حكم الملك الشاب (المشارك) أعلن الانتهاء من بناء المدينة المقدسة الجديدة وودع الملك مدينة طيبة عاصمة الشرك وولى شطر مدينته وسط احتفالات لتدشينها ووسط أصوات الموسيقى والمغنيين وقف الملك يقسم قسما غليظا أنه يقدم العاصمة الجديدة وقفا للإله الواحد ، كتذكار لاسمه المجد آتون على طول العصور . والجدير بالذكر أنه يقال أن الله هو الذى دله وأرشده بطريق الوحى إلى هذه البقعة الطاهرة التى لم تمس من قبل ولا إله آخر أو آلهة أو ملك له حق فيها .

ومدينة الرب « آخت آتون » مدينة عادية ولكن الجديد فيها أنها بنيت لتكون مكانا لعبادة الإله آتون ولنبيه وأسرته ، ولكهنة العبادة الجديدة المحدودى العدد ومنهم الكاهن « مرى رع » ، الكاهن الأعظم للديانة wr-m3w 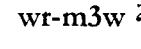 ،

ولمديرى المدينة ومديرى أعمال الحظائر ومدير القصر وطبيب الملك وعمدة المدينة وكل الجهاز الإدارى من كتبة وموظفى الخزانة ومهندسى المعمار والفنانين والضباط والشرطيين وعلى رأسهم رئيس الشرطة « ماحو » ، وكل خدم البلاط وعامة الشعب الذين اشتغلوا فى تربية الماشية والخيول فى المزارع الملحقة بالمدينة فى البر الغربى للنيل ، وفرق من الجيش وحاملى المراوح ورهط من الأجانب بينهم الكثير من الساميين وآخرين من الليبيين ، ورغم أن المدينة كانت غير مسورة إلا أن الدخول لغير المسموح لهم كان محظورا .

ويقدر تعداد المدينة ما بين ٥٠,٠٠٠ إلى ١٠٠,٠٠٠ نسمة .

ويمكن لنا أن نتخيل الحياة فى المدينة وكلها دأب ونشاط ومساواة وحب ، وكانت عربة الملك الشاب التى يجرها حصانان تجوب شوارعها مصحوبا بزوجته جميلة الجميلات « نفرتيتى » ، وفى المساء تحتشد الحشود من سكان المدينة الموحدين فى قاعات المعبد يرتلون ويرنمون ترانيم الوحدانية على أنغام الآلات الموسيقية والعيدان ذات السبعة أوتار والتى يقوم بالعزف عليها فرقة آخت آتون المشهورة « فرقة العميان »[٢] .

وفى ظل هذا الهدوء النسبى تجد الديانة الجديدة الحصن الحصين والتربة الخصبة فتتطور وتنمو ..

ونرى كاتب الملك الحقيقى « أحمس » حامل المروحة على اليمين والمشرف على البلاط ورئيس الخدم بقصر الملك يتقدم بدعاء جميل للملك فيقول : « يطلب أحمس من آتون من أجل إخناتون أن يعطى له أعيادا يوبيلية كثيرة جدا وأعواما كلها سلام ، فليعطه ما يرغبه قلبك إلى مدى ما على الشاطئ من رمال وما لدى سمك البحر من قشور وما لدى قطعان الماشية من شعر – دعه يبقى هنا حتى يسود البجع ويبيض الغراب وتتحرك الجبال ويصب النهر فى الجنوب لكى أستمر فى خدمة هذا الملك الطيب حتى يعين لى المدفن الذى يمنحنى إياه (حتى أموت) . وبالغرابة هذا الدعاء فى بيانه الذى يشبه حدا كبيرا لغة العهد القديم من التوراة .

ومن بين هذه الشخصيات المهمة الكاتب الملكى « آنى » وهو رجل مسن يمكن أن تتطابق شخصيته مع الحكيم آنى الذى يردون إليه حكمه المشهورة والأرجح أنه قد نقلها عن الملك إخناتون .

ويحضر أيضا هذه المنتديات الكاتب الملكى « با آتون محب » وكان رئيس الجنود ، وربما هو نفس شخص الفرعون التالى للمملكة المعروف باسم حور م حاب ، فالاحتمال الكائن أنه قد صبأ وعاد إلى طيبة بعد أن فشلت محاولته للتآمر على حياة أمنحتب الرابع واغتياله بينما كشفها فى الوقت المناسب رئيس الشرطة « ماحو » وقدمه للمحاكمة ، ويحتمل أنه فر من المدينة وعاد إلى طيبة مرة ثانية ليلعب دورا خطيرا فيما بعد[٣] .

إلى توحيد خالص

ومنذ الوهلة الأولى فى مدينة الرب « آخت آتون » وقد وضعت الديانة الجديدة قدمها على الأرض الصلبة فيبدأ تطور عجيب من مرحلة إلى مرحلة تالية بطريقة تحبس الأنفاس ويستشعر الرائى أنه يعيش ميلاد دين لحظة بلحظة « وفمتو ثانية بفمتو ثانية » :

أصبح المعبد فى آخت آتون مفتوحا ليدل على تواجد الإله الواحد فى كل مكان ، وليس مجرد تمثال فى قدس الأقداس فى العبادات الوثنية السالفة .

فقد انتفى وجود قدس الأقداس فى هذه العبادة ولا تماثيل ولا أصنام للآلهة ، وأصبح المذبح والأضحيات التى تقدم للآلهة من الحيوانات المختلفة وليست آدمية وأضحى نثر الزهور على المذبح تقليدا بديعا ، وكل هذه المراسم تتم بين الترانيم الموسيقية والأناشيد والبخور . ولأن الملك يعيش فى الحقيقة وبالحقيقة (معت) فقد اختفت أيضا التماثيل ودخلت رموز بسيطة من أشكال عليها ريشة وتكتب أيضا برمز الريشة (رمز المعت) m3ʿt

الوحى : كان أول ظهور للوحى والملك فى طريقه إلى جنوب النوبة فالغالب أنه قد حدثت له معايشة حقيقية مع الذات الإلهية بطريق الوحى وذلك هو الذى دفعه إلى أن يبنى معبدا يسجل ويقدس فيه هذا الحدث الجلل هناك يحمل اسم « جم آتون » : ويكتب هكذا Jmn-Rˁ-Ḥr-Ꜣḫty ويعنى لقد ظهر الرب ، ومن هذه اللحظة بدأ يبلغ بالإله الواحد لهذا العالم وهو الله الرب الأوحد[٤] . فلما أنكره قومه وأبوه والكهنة لم يكن ليخذل إلهه فلما تصدوا له بكل الجحود والنكران قرر أن يعتزلهم وما يدعون من دون الله فأمر ببناء مدينة التوحيد آخت آتون .

ولم يكن نقل بيت الرب إلى آخت آتون تحديدا للديانة الجديدة وحصرها فى مكان يتنافى مع عالمية الدعوة أو عالمية الإله ولكنه وجد خطرا يحدق به وبأتباعه وبديانته فأراد أن

يحميها حتى تنضج وينضج العقل البشرى معها لحين ثم ينطلق بها إلى كل الآفاق وعبر كل الحدود وهذا ما سيتضح فى الفصول التالية من الكتاب .

تغيير الأسماء : أصبح اسم الإله يكتب فى « خرطوش » 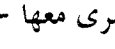 ويكتب كتابة دقيقة وصارمة مراعية تغيير كل الحروف التى كانت تمثل آلهة قديمة كحورس وشو وتستبدل بإشارات لغوية أخرى .

يتغير اسم الملك والداعية بدلا من أمنحتب إلى « أخ ن آتون »

ويتعجب البعض من هذا الاسم ولكن يزول العجب عندما نبحث عن هذه المسميات فى اللغة المصرية القديمة فكلمة أخ تعنى خليل

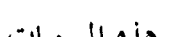
① 3ḫ [allg] nützlich, brauchbar, hilfreich, nutzbringend sein (n für),

وحرف ن : وهو يفيد رابط الإضافة أو

حرف جر وآتون كما ذكرنا من قبل تعنى الرب ويصبح معنى اسم الملك : خليل الرب أو خليل الله .

كما تغيرت الأسماء التى تضم كلمة آمون فى مكوناتها تحولت إلى آتون (كاسم توت عنخ آمون ، ونفرد له كتابا إن شاء الله) .

المناظر التى تعرض العائلة الملكية يشع الحب من جنباتها ليدل على الرباط الجديد الذى تتحقق من خلاله السعادة . كما نجد الملك الداعية فى مناظر تؤكد على بشريته وإنسانيته كما فى مناظر الأكل والشراب ، وهذا لم يرد أبدًا فى الفن المصرى قبل ذلك .

والمتجول فى داخل المدينة يلفت انتباهه عشرة أعلام ترفرف على واجهات معبد آتون منذرة بروح الحرية التى تسود المدينة .

كما تشير الرسوم إلى اتجاه الكل إلى الإله مباشرة بالعبادة وليس عن طريق وسيط أو كاهن أو ملك كما فى منظر « ماحو » رئيس الشرطة وهو يركع تضرعا إلى الله . والإله لم تعد له تماثيل ، وكما هو مكتوب على :

لوحة من لوحات الحدود « النحاتون لا يعرفون الإله » أى أنهم لا يمكنهم تخيل صورة له .

أناشيد الداعية « أخ ن آتون » تصور جوهر العقيدة ولكنها لم تزل مرحلة فى سلسلة التطور الإخناتونى وعلاقته التى تتطور مع الله ولا تظهر فيها الصور المختلفة للآلهة المتعددة .

أمنيات بطول العمر للملك من الأتباع أخذت شكلا آخر بعدد رمال الشاطئ أو قشور السمك أو بعدد الشعر أو بعدد الريش وأوراق الشجر .

عالمية الدعوة : وشمول العناية الإلهية لكل البشر على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأجناسهم فى مصر وخارجها .

نادى الملك من خلال تعاليم دينه الجديد بالأخوة بين جميع الشعوب مع الأعداء كما هو مع الحلفاء فها نحن نراه يؤاخى بين المصريين والحيثيين كما هو منقوش على « شاهد الزفاف » ، فإله إخناتون الواحد هو الذى يستطيع أن يكون إلهاً لكل البشر وهو الذى ينشر نوره عليهم فالله نور السموات والأرض .

بإعلان الاسم الجديد للرب « آتون » وظهور ملاك الوحى للملك أصبح لزاما عليه أن يخطو الخطوة الحاسمة والتى تتمثل فى إعلان الحرب على كل الآلهة الأخرى ، فليس هناك مكان لإلهين فى مكان وزمان واحد ربما من مبدأ « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ليس هذا فقط بل لا يجوز للبشر أن يتخذوا صورا وتماثيل للإله فبدأت حملة شرسة على الآلهة وعلى رأسهم آمون وزوجته موت ، حملة شرسة وصلت أبعادها إلى القضاء والمحو حتى لكلمة الإله فى صيغة الجمع ، فلا يجوز أن تظل كلمة –الآلهة – مكتوبة على المعابد القديمة والجديدة . وواصلت هذه الحملة مهامها حتى فى المعابد خارج الديار المصرية ، حتى على « ميداليات الذكرى » والتى كانت بمثابة وسيلة إعلامية ملكية ، بل وحتى فى داخل الأهرامات وقمم المسلات فى جنوب المملكة وشمالها ، إصرار عنيف على القضاء على التعددية .

حتى اسم الملك نفسه الذى ولد به « أمنحتب » لحقه نفس المصير لأنه يحتوى على كلمة آمون . وشن الملك الداعية حربا على كل الأشكال الحيوانية للإله وقضى على كل

الثنائيات والثواليث والمثمنات والتاسوعات الإلهية فهى حرب شاملة على كل الآلهة لأن التصورات التى فى المخيلة تمثل جزءا مهما من مكون الآلهة التخيلى فى ضمير البشر[٥] .

واضح الآن بعد كل هذا أن الأمر لم يكن ليتعلق فقط بأن يكون فى مصر إله واحد ولكن الأمر يتعلق بإله بعينه . فما كان أسهل من أن يعترف إخناتون بالإله آمون ويجعله واحدا ووحيدا دون أن يؤلب عليه كل الكهنة ، فهذا دليل جلى على أن الإله الذى يتجه إليه إخناتون بعبادته والذى يفيض عليه بفيوضاته لا بد إله آخر من طبيعة مغايرة لتلك التى فى آمون أو غيره ، ولا بد أن يكون إخناتون كان قد وصل فى تلك المرحلة إلى كنه الله عز وجل وتعرف على فيض إشراقاته وآمن باقتناع بأحقيته فى الوحدانية .

نبوة أم هرطقة

يشير أدولف إرمان Adolf Erman فى كتابه – ديانة مصر القديمة – إلى أن عقيدة إخناتون قد وصلتنا عن طريق تسبيحات وأدعية مختلفة فى مقابر العمارنة وأن عصر إخناتون « هو عصر فيه يزهد المرء فيما يملك ويتوق إلى إشباع نهمه بشئ جديد وأنه عصر ازدهار وفخامة وأبهة كما أنه لا يخلو من خطر الانتكاس الذى يكون مصدره البطر » وأن هذه الديانة عالمية فى نصوصها[٦] .

نص نشيد إخناتون الذى وجد الباحثون فيه تشابها كبيرا مع المزمور رقم ١٠٤ من مزامير النبى داود :

بهاء « آتون » وقوته العالمية

أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت يا « آتون » الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تشرق فى الأفق الشرقى

كنت تملأ بلاد الكون بجمالك

أنت جميل ومتلألئ ومشرق فوق كل أرض الكون

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك

أنت يا « رع » وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرضين)

وأنت توثقهم (يعنى البشر) لابنك المحبوب (الفرعون)

ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية (عنهم)

الليل والإنسان

الأنشودة	المزامير
وحينما تغيب فى أفق السماء	تجعل ظلمة فيكون ليل فيه
الغربى فإن الأرض تظلم كالموت	يدب كل حيوان الوعر
فينامون فى حجراتهم ورؤسهم	(المزمور ١٠٤ – ٢٥)
ملفوفة ومعاطسهم مسدودة	
ولا يرى إنسان آخر فى حين أن	
أمتعتهم تسرق وهى تحت	
رءوسهم وهم لا يشعرون بذلك	

الليل والحيوان

الأنشودة	المزامير
وكل أسد يخرج من عرينه ليفترس	الأشبال تزمجر لتخطف
وكل الثعابين تنساب لتلدغ والظلام	وتلتمس من الله طعامها
يخيم والعالم يكون فى صمت فى	(المزمور ١٠٤ – ٢١)
حين أن الذى خلقهم باق فى أفقه	

النهار والإنسان

الأنشودة	المزامير
والأرض زاهية حينما تشرق فى	تشرق الشمس فنجتمع
الأفق وعندما تضئ بالنهار مثل	وفى مآويها تربض
آتون فإنك تقصى الظلمة إلى	الإنسان يخرج إلى عمله
بعيد ، وحينما ترسل أشعتك	وإلى شغله إلى المساء
تصير الأراضى فى عيد والناس	(المزمور ١٠٤ – ٢٢ : ٢٣)

يستيقظون ويقفون على أقدامهم عند

إيقاظك لهم وبعد غسلهم لأجسامهم

يلبسون ثيابهم ثم يرفعون أذرعتهم

تعبدًا لطلعتك ثم بعد ذلك يقومون

إلى أعمالهم فى كل العالم

النهار والحيوان والنبات

الأنشودة

وجميع الماشية ترتع فى مراعيها والأشجار

والنباتات تينع والطيور فى مستنقعاتها

ترفرف وأجنحتها منتشرة إليك تعبدا

وجميع الغزلان ترقص على أقدامها

وجميع المخلوقات التى تطير أو تحط

أو تدب تحيا عندما تشرق عليها

النهار والمياه

الأنشودة	المزامير
والسفن تقلع فى النهر صاعدة أو	هذا البحر الكبير الواسع
منحدرة فيه على السواء	الأطراف هناك دبابات
وكل فج مفتوح لشروقك	بلا عدد صغار حيوان مع
والسمك يسبح فى النهر أمامك	كبار هناك تجرى السفن
وأشعتك تنفذ إلى أعماق البحر	لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه
« الأخضر العظيم »	(المزمور ١٠٤ – ٢٥ : ٢٦)

خلق الإنسان

الأنشودة

أنت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى يذرا من البذرة أناسا

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

مهدئا إياه حتى لا يبكى

ومرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة

على كل إنسان خلقته

حينما يترل من الرحم فى يوم ولادته

وأنت تفتح فمه تماما

وتمنحه ضروريات الحياة

خلق الحيوان

الأنشودة

وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة

تعطيه النفس ليحفظه حيا فى وسطها

وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج منها

وهو يخرج من البيضة فى ميقاته (الذى قدرت له)

فيمشى على رجليه حينما يخرج منها

الخلق العالمى

الأنشودة	المزامير
ما أكثر تعدد أعمالك وهى على	ما أعظم أعمالك يا رب كلها
الناس خافية يا أيها الإله الأحد الذى	بحكمة صنعت ، ملآنة
لا يوجد بجانبه شأن (لأحد) لقد	الأرض من غناك
خلقت الأرض حسب رغبتك	(مزمور ١٠٤ – ٢٤ : ٢٥)
وحينما كنت وحيدا (لا شئ غيرك)	
خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان	
وجميع ما على الأرض مما يمشى على	
رجليه وما فى عليين مما يطير بأجنحته	
وفى الأقطار العالية سوريا وكوش	
وأرض مصر	
وإنك تضع كل إنسان فى موضعه	
وتمدهم بحاجاتهم ، وكل إنسان لديه	
قوته وأيامه معدودات	
والألسنة فى الكلام مختلفة ، وكذلك	
تختلف أشكالهم وجلودهم	
لأنك تخلق الأجانب مختلفين	

رى الأراضى فى مصر وخارجها

أنت تخلق النيل فى العالم السفلى

وأنت تأتى به كما تشاء

ليحفظ أهل مصر أحياء

لأنك خلقتهم لنفسك

وأنت سيدهم جميعا

وأنت الذى تنهك نفسك من أجلهم

وأنت رب كل قطر

وأنت الذى تشرق من أجلهم

وأنت شمس النهار عظيم الافتخار

وجميع كل الأقطار العالية القاصية

تخلق حياتها أيضا

لقد وضعت نيلا فى السماء

وحينما يترل لهم يصنع أمواجا فوق الجبال

مثل البحر الأخضر العظيم

فيروى حقولهم فى مدنهم

ما أكرم مقاصدك يا رب الأبدية

ويوجد نيل فى السماء للأجانب

ولأجل غزلان كل الهضاب التى تتجول

على أقدامها

أما النيل يأتى من العالم السفلى لمصر

فصول السنة

أشعتك تغذى كل بستان (كما تغذى الأم طفلها)

وعندما تبزغ فإنها تحيا ، فهى تنمو بك

أنت تخلق كل الفصول ، لأجل أن ينمو كل ما صنعت

فالشتاء يأتى إليهم بالنسيم العليل

والحرارة لأجل أن تستطعمها

السيطرة العالمية

أنت خلقت السموات العلى لتشرق فيها

ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحدك

مضيئًا فى صورتك مثل آتون الحى (الشمس)

وبازغًا وساطعا وذاهبا بعيدا وآيبا (فى الغدو والآصال)

وأنت تخلق آلاف الآلاف من الصور منفردا بنفسك

والمدن والقرى والحقول والطرق العامة والأنهار

وجميع العيون تراك تجاهها

لأنك آتون (شمس) النهار فوق الأرض

وحينما تغيب

وجميع الناس الذين سويت وجوههم

لأجل ألا ترى نفسك بعد وحيدا

يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته

ومع ذلك فإنك لا تزال فى قلبى

وحى الملك

ليس هناك واحد آخر يعرفك إلا ابنك إخناتون

لقد جعلته عليما بمقاصدك وبقوتك

الوقاية العالمية

العالم يعيش بصنع يدك

فيحيا حينما تشرق

ويموت حينما تغيب

لأن حياتك طول مدى نفسك

والناس يعيشون بوساطتك

وأعين الناس لا ترى إلا جمالك حتى تغيب

وكل نصب يطرح جانبا

وحينما تغيب فى الغرب وحينما تشرق ثانية

تجعل كل كف يندى لأجل الملك

والخير فى إثر كل قدم

منذ أن خلقت العالم

وأوجدتهم لابنك الذى ولد من لحمك

ملك الوجه القبلى والوجه البحرى

العائش فى الصدق رب الأرضين

نفر – خبرو – رع – وع ن رع (إخناتون)

ابن رع العائش فى الصدق رب التيجان

إخناتون ذو الحياة الطويلة

(ولأجل) كبرى الزوجات الملكية محبوبته

سيدة الأرضين : نفر – نفرو – آتون – نفرتيتى

عاشت وازدهرت أبد الآبدين(٧)

ويتابع إرمان تحليلاته حول هذه الديانة التى أخذت صيغتها الأولى فى الشعار « يعيش حور آختى – الذى يتهلل فى الأفق – فى اسمه – شو – الذى هو آتون : » الأنشودة تمر كلها دون ذكر أسماء إله الشمس القديمة وتيجانه وصوالجه ومدنه المقدسة وتغفل كل شئ من سفنه وبحارته وعن التنين أبو فيس وعن الرحلة فى مملكة الأموات وساكنيها وهى أنشودة عالمية يستطيع أن يتغنى بها كل الناس السورى والإثيوبى على حد سواء وذكرها

يدل على اختفاء نظرة التعالى على هذه الشعوب فالناس كلهم سواء أمـام الله ، والملـك المبشر هو الكاهن الأكبر لهذه الديانة « أور ماو wr-m3w 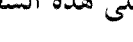 وأنت أى الإله سيد البلاد جميعا وتشرق من أجلها كشمس النهار القوية »

فما معنى هذا التشبيه إن لم يكن الله غير هذه الشمس المحسوسة ؟

ويعلق إرمان : « يفترض أن الإله الجديد لا يناهض آمون ، ولذا فإن الملك لم يظن أنه ارتكب إثما نحو أجداده حين أرجع من جديد إله الشمس نفسه ، ولكن هذا الهدوء لم يـدم طويلا » ، ويستطرد إرمان : « وإننا لنجهل السـبب الذى دعا إلى الاضـطراب ولكننـا لا نخطئ من غير شك إن نحن قررنا أن كهنة آمون كانوا قد كشفوا فى المعتقد الجديد عـن هرطقة لا تحتمل ، وأنهم حاولوا القضاء عليها بشتى الطرق » أليس فى هذا يا أستاذ إرمـان الإجابة الكافية على أن إله إخناتون ليس هو الشمس على الإطلاق؟! وإلا لما اختلف معـه الكهنة .

الديانة الجديدة ثورة ليس فقط على آمون بل على كل الآلهة : حيثما وجد اسم آمون نراه على الآثار حتى الباقية للآن مشوهة وهذا ليس من صنع الملك وحده ولكن كان معـه مجموعة متعصبة اقتحمت المعابد والمقابر لمحو اسم آمون الكريه .

مطاردة الإلهة – موت – زوجة آمون ، وهى تكتب بنفس الطريقة التى تكتـب بهـا كلمة « أم » ، وهذه الكلمة الأخيرة بدأت تكتب بطريقة أخرى حتى لا يظهر الشبه .

غير الملك اسمه من أمنحتب « آمون مسرور » إلى « أخ ن آتون » والتى شرحنا معناها بخليل الرب أو خليل الله ، وأصبح الملك متعصبًا لأنه بتغيير اسمه لا ينكر فقط آمـون بـل ينكر عبادة أسلافه قاطبة . وآتون عنده هو خالق كل شئ وهو الإلـه الوحيـد الواحـد الحقيقى ، ومن الكفر اتخاذ آلهة إلى جانبه أو الاعتقاد بوجود غيره .

كذلك هجر اللقب القديم المتوج بالريشتين لأنه مشتق من الإلهين آمون ومين ، وكان المحو لا يشمل آمون فحسب بل امتد إلى محو كل أسماء الآلهة « كما فى معبد بتاح فقد شوه اسمه وحاتحور وبهو الأعمدة لتحتمس الثالث فى الكرنك شوه اسـم أوزوريـس وإيـزيس

وحورس وآتوم ومنتو وجب . حتى العقاب – نخبت – المحلق فوق الملك لحمايته لم يغفل أمره ، كما محى اسم التيس المقدس . أضف إلى كل هذا كلمة الآلهة أصبحت صيغة الجمع فيها غير مقبولة » .

وتتويجا لذلك نقل العاصمة من طيبة إلى المدينة الجديدة أخت آتون يعتبر فى حد ذاته قطع الصلة بالماضى بأكمله بما فيه من وثنية . وكان ذلك فى العام الخامس أو السادس من حكم إخناتون وكان اختيار مكان المدينة والهجرة إليها بوحى من الله كما هو مكتوب على لوحة حدود أخت آتون .

وكانت حياة الملك إخناتون واضحة تماما لكل الرعية لا أسرار فيها بعكس أسلافه وكهنتهم الذين أحاطوا كل شئ بالأسرار حتى العبادة كانت تؤدى فى وضوح وغالبا فى الهواء الطلق . وكان يوضع فى داخل المعبد حجر البنبن كرمز لانقضاء عهد الوثنية والأصنام ، فهل هذا له علاقة بطقوس الحج بخصوص ما يسمى بالحجر الأسود فى الكعبة فى مكة المكرمة ؟!

الوحى : ويقص لنا إرمان أن الأسس التى قام عليها الدين الجديد ترجع من غير شك إلى شخص آخر ، وكان فضل الملك أن عممه ودافع عنه ولذا يسمى نفسه ابتداء من السنة الرابعة لحكمه « ذلك الذى يحيا فى الحق ، وفى السنة التالية » تطور إلى « ذلك الذي يعرف اسم آتون » ، فهو إذن نبى الإله ، ومن واجبه أن يبصر بجمال آتون ويمجد اسمه وينشر فى البلاد المعرفة بخالقه ، ويجعل اسمه واضحا بين الناس ، لأن أباه الإله تجلى له وأعطاه هو وحده حق فهم أفكاره وقوته .

وكما اختفى العقاب من قبل من كلمة – أم – اختفت رأس الصقر « حور » أيضا وحل محلها حرفان أبجديان هما الحاء ﴿ والراء ﴾ .

وفى العام الثالث خطا الملك خطوة جديدة إلى الأمام فأعطى صيغة جديدة لاسم الإله إذ استبدل اسم حور آختى بعبارة أخرى هى « سيد الأفقين » وهكذا يكتسب معنى جديدا ، ومنذ ذلك الحين يصبح اسم الإله هو : « يحيا رع – سيد الأفقين – الذي يتهلل فى

الأفق – باسمه كأب لرع الذى أتى بصفة آتون» ويقول المؤلف إرمان : « ولسنا ندرى إذا كنا نترجم على وجه الصواب هذه الكلمات الغامضة» ويضيف « والمصرى الذى لم يكن قد درس هذا المذهب بتعمق لم يكن فى وسعه الوصول إلى مدى المعنى المقصود – فإن هذه الكلمات كانت تخفى من غير شك أفكارا أكثر عمقا مما صادفناه الآن» وأضيف أنا على هذا أن بالقرآن الكريم تعبيرات شبيهة بهذه غامضة فى معناها للآن مثل « رب المشرقين ورب المغربين» فى سورة الرحمن وغيرها ..

ويلخص إرمان : وإذا حاولنا أن نفهم هذا المذهب « الديانة» على وجه الدقة فإننا نلاحظ أنه يتجه الآن على عكس ما كان عليه فى البدء ، نحو الاعتقاد بالتوحيد ؛ فإنه يوجد إله واحد ليس له شريك فى الملك ، وكل ما كانت تقوم به جمهرة الآلهة الأخرى ينفرد هذا الآن بعمله لأن فيه ملايين المخلوقات – لقد خلق نفسه بنفسه وهو يعاود خلق نفسه فى كل صباح وفى خلال النهار يجوب السماء ولكن لا ندرى كيف يحدث ذلك ، لأنه إذا كان التعبير القديم الذي يذكر « الشمس تسبح» مازال مستعملا فإنه لم يعد يذكر فى أى مكان شئ عن سفينته أو عن التمثيلات المتصلة بهذه الرحلة ولا يذكر كذلك فى أى مكان تستقر الشمس ليلا والتى ربما تكون فى العالم السفلى ولكن ليست هناك إشارة واضحة صريحة إلى العالم الآخر كما نلاحظ ذلك فيما بعد . ولم تعد للإله صفات مشتركة مع الصور القديمة لإله الشمس آتوم وخبرى وحور آختى ، ولم يحتفظ له سوى باسمى آتون ورع .

أما عن مملكة الموتى فنلاحظ أنها مختلفة تماما ؛ فقد جنحت المقابر إلى البساطة واختفت الاصطلاحات والتورية المعتادة ، فهو لا يتحدث عن « الطيران إلى السماء أو عن الرسو» ولكن يتكلم ببساطة عن الدفن . واختفت تبعا لذلك كل الإشارات إلى عقيدة أوزوريس ومملكته ، فلا نجد محاكمة للميت ، حتى كلمة « المبرر» وإن ظهرت أحيانا فإنها لا تعدو أن تكون إشارة تقليدية لا تعلق أهمية عليها أكثر مما تعلق أهمية على عبارتنا الحالية « المرحوم»[٨] .

آراء وانطباعات

أثارت كشوف آثار الملك إخناتون ردود فعل مذهلة على مدى القرن الماضى نعرضها فى السطور التالية :

– يقول فلندرز بترى Flinders Petrie عالم الآثار الذى كشف آثار أخت آتون العمارنة « إن هذه وبحق « يقصد ديانة إخناتون » ديانة جديدة ، نشأت لكى تؤيد معطياتنا العلمية الحديثة » .

– وفيجال Weigall يؤيد بريستد Breasted أيضا فى رأيه « إن إخناتون هو أول مثالى وأول شخصية عظيمة فى تاريخ العالم وفوق ذلك فهو أول منشئ لديانة على قدر عظيم من الطهارة والنقاء لدرجة يحق معها أن نقارنها بالديانة المسيحية لكى نتبين عثراتها » وفى موضع آخر يقول فيجال « لا توجد أى ديانة تقترب من الديانة المسيحية إلا ديانة إخناتون » ، ويقارن بين خيوط الشمس على رسوم آثار إخناتون مع الصلب المسيحى أو نشيد إخناتون مع المزمور ١٠٤ من مزامير داود ، ويلاحظ إريك هورنونج Hornung أن فيجال يرجع إليه الفضل فى أنه « طبع إخناتون مع وعى وضمير العصر الحديث وجعل منه فى ذات الوقت معلما لكل البشرية » .

– ويقول ردولف أنثس Anthes « لقد كانت ديانة العمارنة هى أطهر وأنصع زهرة عرفت المصرى بالإله – لقد حرر إخناتون نفسه من الصيغ الجوفاء الغير منطقية فى تاريخ الأديان التقليدى ، لقد وقع إخناتون على الطريق المباشر بين الإنسان والله وألقى وراء ظهره عالم الأساطير والرموز وتعددية الآلهة ولكن لأنه لم يكن بينه وبين الله وحى !! فقد رأى الله فى الشمس ، ولكن النور والحياة والحقيقة قادوه إلى الحقيقة الإلهية » ويقارن أنثس بين أفكار إخناتون وبين إنجيل يوحنا .

« لقد بدا لنا إخناتون كنبى لديانة لم يكن بعد قد آن أوانها » .

ويمدح عقلانية إخناتون التى تخاطب عصرنا الحديث ويصف هذه الديانة بالتقدمية وأنها مقدمة وتمهيد لكل الديانات العالمية الكبرى .

– أما سيجموند فرويد Freud فيرى أن النبى موسى « المصرى » قد جمع شمل أسباط بنى إسرائيل من خلال ديانة إخناتون .

– ويقول فان در ليوف Van der Leeuw الهولندى فى كتابه عن إخناتون إنه واحد من عظماء التاريخ » .

– ويقول هورنونج « إن هذه الديانة « مقارنا ذلك ببوذا وعيسى ومحمد » تتطور وتتغير وتخطو خطوات جديدة ، وإخناتون تنمو معه رسالته وتكسب وضوحا لتعطى لنفسها مكانا زاهرا فى المستقبل أكثر مما تعطى فى الماضى ، وبعكس مؤسسى الديانات الأخرى فإن إخناتون لم يغلف نفسه بضباب الأساطير وكل ما وصل إلينا عنه فهو معاصر وتنسب إليه ورسالته وتعاليمه تبلغ إلينا منه وليس عن طريق وسطاء ولا تفسر تفسيرا مخالفا إلا بفعل فاعل من المغرضين فى العصر الحاضر »[٩] .

تلك كانت انطباعات بعض من العلماء والمتخصصين ، وقد لمسوا أوتار الحقيقة ، فإن دل هذا فإنما يدل على أنهم قرأوا فى مضمون الرسالة الإخناتونية روحها ولكنهم لم يدركوا كنهها ومضمونها ولبها الحقيقى ، لأنهم قصروا حياة إخناتون على تلك السنين التى قضاها فى مصر فقط .

والذين يتبنون الرأى بأن إخناتون لم يتلق وحيا من الله يوقعون أنفسهم فى تناقض فى المنهج والمضمون ؛

– ادعاؤهم بأن إخناتون لم يتلق رسالة أو كتابا مقدسا يبلغه للبشر بحجة أنه ليس لها أى أثر باق وصل إلينا مردود عليه بوسائل عديدة :

١– أبو الأنبياء إبراهيم لا شك أنه كان رسولا نبيا له رسالة يبلغها إلى البشر فقد ذكر القرآن الكريم ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾

[سورة الأعلى] فقد أسماها القرآن صحفا وهى لا شك من جنس صحف موسى ، ومع ذلك لم نجد فى العهد القديم من التوراة أى نص من صحفه ورسالته ، فهل معنى هذا أنه لم يرسل برسالة ولم يبلغ شيئا عن رب العزة سبحانه أى تبليغ أو رسالة أو كتاب ؟؟

٢- هل قصور العلماء المتخصصين فى التعرف على تراث إخناتون أو الكشف عنه دليل على عدم وجوده ؟؟

٣- هل يمتلك كل المشتغلين بالكشف عن الآثار حسا دينيا وتخصصا فى علوم الأديان يتيح لهم تفسير الأثر وتحقيق علاقته بالدين والتاريخ الدينى ليصلوا بذلك إلى مضمونه الدينى وما إذا كان وحيا أم لا ؟؟ لا سيما وأن الأمر يتعلق بالبحث فى عصور سحيقة ضاعت معالمها أو ضيعت .

٤- والأهم من كل ذلك هل فيهم الباحث الذى يهمه أن يكشف عن تراث إخناتون الدينى، وإن وجد فهل سيكون عنده الدافع الحقيقى الصادق المتزه الغير منحاز بل الغير معاد ، أى الذى يبحث عن العلم من أجل العلم ، أم أن هناك شوائب أو عوالق ديانات أخرى توجهه بل وتحضه على التغاضى عما يمكن أن يسفر عنه كشف هذا الموضوع ، ويقوم بتفسيره وإعلانه ، أم أنه سيخشى كشف أسرار عظيمة يصر أتباع ديانة ما على ألا ينكشف ؟ أم أنه آت للبحث بقصد التشويش والتعتيم والتغطية عن كل كشف يخص الموضوع ؟؟

تلك التساؤلات وغيرها كثير تدعونا إلى الشك فى منهج هؤلاء ونتائج أبحاثهم ، ونحن لا نريد أن نشكك فيهم وفى نتائجهم ولكنا هنا بصدد الكشف الفعلى عن الحقيقة الغائبة ، التى يكشف عنها من خلال هذا الكتاب .

عالمية الدعوة : يقول الخرطوش الملكى لإخناتون : « إخناتون هو ملك القطرين (يعنى مصر) بينما آتون هو رب العاملين أو سيد العالم كله (موضحة بعلامة أو مخصص السماء والأرض) » .

واضح من هذا الشعار الملكى الذى هو الإعلان الحقيقى والرسمى عن الملك وعقيدته ورسالته أن هذه الرسالة الدينية ليس فقط للمصريين ولكن لكل العالم على حد سواء . ومنها نرد على أولئك الذين يتهمونه بأنه لم يتلق وحيا وادعى الألوهية ، لقد وجد فيه أتباعه روح الله التى هى اعتراف صريح بأن الوحى يتزل عليه حيث يجدونه فى أحوال غريبة وأحيانا طبيعة مختلفة ينطق بحكم وأفكار وتشريعات ليست من صنع الإنسان فبدا وكأنهم مبهورون منه . على أنه هو شخصيا لم يصل به الأمر إطلاقا أن رأى نفسه كإله بدليل أنه يذكر لنا أنه ملك القطرين بينما آتون ملكا وإلها للعالم كله ، فهل أراد أن تكون ألوهيته هو شخصيا إقليمية فى مصر فقط وآتون على العالم ، ألم يكن من المنطقى لو أنه ادعى الأخرى أيضا فهى أسمى وأشمل ، وحيث أن الامر لم يكن كذلك فما بقى لنا الآن إلا أن إخناتون آمن ببشريته المطلقة ، وألوهية آتون المطلقة ، بدليل أن فن العمارنة بكامله وفن ما قبل العمارنة أيضا يقضى على فكرة ألوهية الملك من أساسها بل ويقلل من شأنه مقارنة بأسلافه ومعاصريه من البشر . أما أن يفهم بأن إخناتون يبجل من قبل أتباعه كإله « كما تفسر قسرا نصوص أنشودة بانحسى » فهذا ليس من المنطق فى شئ ولا سيما أنهم الحديثو العهد بديانة توحيدية كهذه وهم فى ذات الوقت أبناء ديانة وتقاليد تؤله الملوك ، أما كنبى يوحى إليه ينطق بالحكمة كما لو لم ينطق بها أحد من قبله فهذا أقرب للفهم والمنطق ، وربما أنه لم يستطع بعضهم التفريق وعلى الأخص بعض فنانى العمارنة . واستخدامهم لأسماء الآلهة القديمة كإله القدر « الحظ » وتعبيرات كالواهب الحياة وإله الوصايا ونور كل الأرض فهذا الاستخدام من قبيل الفقر اللغوى فى مفردات لغتهم التى كانت ما تزال تعجز عن مواكبة الرسالة الدينية الجديدة فكريا ولغويا .

ترنيمة بانحسى : وكمثال لتلك التعبيرات التى انطلق منها المحدثون ليحكموا على إخناتون بأنه قد أله نفسه نسوق النص الآتى :

« أرفع مديحى وثنائى حتى يتجاوز عنان السماء ، أتوجه بالدعاء من خلال سيد القطرين إخناتون الذى هو رب القدر « الحظ » ، موهب الحياة ، سيد الوصايا ، نور كل الأرض ، والذى من طلعته نحيا ، نيل كل الإنسانية ، من روحه « قرينه » ينهل الإنسان منه

حتى يشبع ، السيد الذى يساوى بين البشر ، ويعز الوجيه والفقير ، والنسيم الذى يتنسمه كل متنسم ، والذى من خلاله نتنفس » .

رغم وضوح مدلول نص هذه الترنيمة ، ينطلق البعض بالادعاء على إخناتون إنه نصب نفسه إلها على البشر ، ولكنهم جانبهم الحق فتعبير « موهب الحياة » لا شك من خلال تعاليمه الجديدة التى تدعو إلى وحدانية الله ومن خلال طاعة الله يستطيع البشر أن يجدوا فيها ما يحييهم فى دنياهم وأخراهم .

فالعائش فى الوثنية والتعددية لا شك إنسان ميت فى كلا الحالتين . ومن طلعة الملك يحيا التابع إذا اتخذ من منهجه طريقا للحياة الأبدية السعيدة وتشبيه الملك بالنيل لكل الإنسانية تشبيه بديع فى بيانه اللغوى ومثل هذه التعبيرات موجودة فى معظم لغات العالم ولا سيما المسماة بالسامية ، وهو دليل مؤكد واضح على تلقى الملك للوحى من حين لآخر كمواقيت الفيضان الدورية التى تهب الحياة لكل الزارعين وتهيئ الرفاهية للآكلين والشاربين ، ومن روح الملك « قرينه » ينهل الإنسان حتى يشبع إشارة واضحة إلى أن المرء يستمد من فيوضاته ما يشبع الحاجات الإنسانية الظامئة للشراب والقوت وربما إشارة قرين تشير إلى ملاك الوحى ، ومجمل النص يدل على صفات لا يمكن أن تتوافر إلا فى نبى يوحى إليه يتسم بالحق والعدل والمساواة بين جميع الأتباع بغض النظر عن لونهم وجنسهم ويتنزل الوحى عليه بتعاليم وإرشادات ووصايا غذاء روحيا لكل البشر[١٠] .

نقول إن الذى يحاول أن يفهم تلك الترنيمات والأناشيد والمدائح لا بد وأن يكون نزيها وغير مشبع بأفكار قبلية بعيدا عن أى غرض أو مصلحة حتى يستطيع أن يتفهم تلك الروح الدينية العظيمة التى سادت أتباع إخناتون فترجموها إلى ترانيم ومدائح لنبيهم ، وشعر المتصوفة فى كل الأديان والأناشيد الكنسية تسير إلى أبعد من ذلك فى المدائح النبوية ، ويبدو أن تلك سمة خاصة بعالم الشرق ، لا يستطيع من جبل على تغليب العقل فقط أن يفهمه الفهم الصحيح . فاللغات السريانية والعبرية والعربية تكتظ بتلك الصور البيانية والمحسنات البديعية ، واللغة المصرية القديمة لا تبتعد كثيرا عن هذا المضمون إن لم تكن هى أم هذه اللغات جميعا .

المرأة فى الديانة : على أن من الإيجابيات فى ديانة إخناتون التى لا تخفى على الرائى هو شمول الرسالة لكل من الرجل والمرأة والتوجه لكليهما على قدر المساواة فى التبليغ ، وليس أدل على ذلك من ظهور الملكة « نفرتيتى » دائما فى الصورة ومشاركتها فى العبادات والأدعية وجميع الأنشطة بطريقة حماسية جعلت بعض الباحثين يشركونها فى تلقى الوحى جنبا إلى جنب مع الملك ولكن هذه المزاعم تتهافت أمام الأدلة الصريحة التى توحى بها لوحات الحدود لمدينة أخت آتون ، وفيها يعرب إخناتون نفسه عن اختياره لهذا المكان بإرادته وهو يقسم غليظ القسم أنه لن يحدث أن يغير مكان المدينة أو يبنيها فى مكان آخر حتى لو أن الملكة زوجته نفسها أرادت غير ذلك ، وهذا التصريح يخرج فى الحقيقة أى إنسان آخر يمكن أن يكون قد أثر على الملك أى تأثير فى مذهبه وديانته . وهذا رد صريح أيضا على آخرين يتهمون إخناتون بضعف الشخصية أو خضوعه لتأثير من حوله . ويتمادون فى الاتهامات « وهذا إن عكس فإنما يعكس ثقافتهم الحالية التى لا يستطيعون منها فكاكا » بأن آتون وإخناتون ويضمون إليهما بطريقتهم القهرية نفرتيتى لكى يكونوا ثالوثا مقدسا يكون محور الديانة الإخناتونية ، وديانة إخناتون تربأ بنفسها أن تقبل أفكارهم تلك حتى فى ذلك الزمن السحيق .

وينزه « هورنونج » إخناتون عن أى تأثر بأى إنسان آخر ككهنوت هليوبوليس أو أمه الملكة « تى » أو أخيها الكاهن « آنن » فى هليوبوليس أو زوجته نفرتيتى أو كاتبه « أمنحتب بن حابو » أو المرتد « رعموزا » أو « الآسيوى آبر إيل » أو حتى « آى » حيث لا يوجد دليل على ذلك[11] ولكن هورنونج رغم ذلك لا يتورع عن الكلام عن ثالوث يريد أن يضع فيه عقيدة إخناتون .

وهذا كله دليل على أن إخناتون كان بشرا فردا يبحث عن إله فوجده ، واختاره ربه فأنزل عليه وحيه ، وحبب فيه أتباعه فأحبوه ورسالته وأيدوه ونصروه مختارين طائعين وبايعوه وهاجروا معه إلى دار الهجرة آخت آتون حيث ضاقت بهم أرض طيبة بآلهتها وتماثيلها وأوثانها وكهنتها الذين سخطوا على رسالته ودعوته لزيفهم وخداعهم للبشر وخوفهم على مراكزهم .

ونخلص بعد كل هذا إلى أن مصر هى مهد التوحيد ، تلك المقولة التى حققهـا فقـط الملك إخناتون تحقيقا لم يحدث فى تاريخ البشرية حتى ذلك الوقت بل وبعده لمدة تزيد علـى ألفية ونصف . ومهما حاول المحاولون التقليل من شأن عقيدة التوحيد الإخناتونى أو ابتداع نظريات أخرى تبرهن على وحدانية فى الأديان المصرية قبله ، فإن تلك المحاولات يعوزهـا العمق والمنطق لأنه لم يخل وقت فى مصر القديمة من تعددية الآلهة حتى وإن وضع إله واحـد على رأس القائمة فباقى مجمع الآلهة كان ينظر إليهم على أنهم آلهة ، وهذا يتنافى مع إثبـات التوحيد المزعوم .

فإخناتون بلا أدنى شك هو أبو الوحدانية فى تاريخ البشرية المكتوب .

« رذائـــل » العمـارنة

فى عام ١٨٨٧ ميلادية اتجهت أنظار العالم إلى بقعة من أرض مصر فى محافظـــة المنيـــا تسمى العمارنة التى ذاع صيتها وعلا ذكرها على أثر عثور امرأة فلاحة من القرى المجاورة للتل الأثرى فى أثناء بحثها عن السماد فى خرائبها على عدد عظيم من اللوحات المصنوعة من الطين وكل الرسائل ليست محروقة ولكنها نيّة جفت فى الشـــمس والهـــواء كمـــا يقـــول كنودتسون Knudtzon[١٢] فى كتابه « ألواح العمارنة » ، مكتوبة بالخط المسمارى البابلى فنقلت غنيمتها على ظهر حمارها وباعتها لجار لها بمبلغ عظيم فى نظرها وهو عشرة قروش ، ولقد ظنت فى بادئ الأمر أنها غبنت المشترى فى هذه الصفقة ، إذ وجد الأخير صـــعوبة فى بيعها ، ولا غرابة فى ذلك فإن هذه اللوحات لم يكن فى شكلها أو صنعها ما يغرى جـــامعى الآثار .

يبلغ عدد هذه الرسائل ما يزيد على الثلاثمائة رسالة ، وترجمة هذه الرسائل صعبة كما يقول سيريل ألدريد[١٣] ويجمع باقى العلماء على ذلك ، ذلـــك أن مـــن كتبوهـــا كـــانوا يستخدمون لغة غريبة عنهم مشتقة من البابلية القديمة بعد أن أدخل الكنعانيون عليها بعض التعديلات ثم جمدت مع الزمن إلى لغة دارجة لا يفهمها إلا من يستخدمها وقد لخص بعض الخبراء الرواد صعوبة ترجمة هذه العلامات فقال :

« معرفة اللغة الأكادية لا تكفى لتفسير هذه الرسائل ، ولكن يجب إتقان اللغتين العبرية والفينيقية كذلك ، كما يجب أن يكون الباحث على علم بكل الخطابات ، مما يعينه علـــى استشفاف ما يقصده من كتبوها » .

ولا يقل تفسير هذه النصوص صعوبة عن ترجمتها ، فمن ضمن الصعوبات تلك الحالة الرديئة لهذه الألواح التى وجدت حوافها مقطوعة مما أفقدها العناوين التى تدلنا على اســـم المرسل والمرسل إليه كذلك فالرسائل غير مؤرخة وليست بها إشارات تسهل علينا قراءتها ، ويقول ألدريد إنه فيما عدا أربع وعشرين رسالة كان تحديد الفرعون المرسل أو المتلقى غير معروف[١٣] .

ويبدو واضحا أن ما اصيبت به الألواح من تلفيات كان بسبب النقل والتداول بعد ذلك ، فقد قيل إنها حملت إلى الأقصر فى زكائب على ظهور الحمير والبغال وهو أمر يبدو غير صحيح لأن نقلها عبر نهر النيل آنذاك كان أسرع وأسهل . ومن الغريب أننا لا نجد إلا خمسا وثلاثين لوحا من بين ٣٤٠ لوح هى اللوحات غير الكاملة ، وبعد الكشف الأصلى توالى العثور على لوحات أخرى فى أوقات متأخرة بالكشف المنظم الذى قام به مكتب التسجيلات بالعمارنة بإشراف بترى وبورشارت وبندلبرى ، واستخرج المكتب خمسة وثلاثين لوحا ، إلا أن الغريب أنه لم يكن فيها سوى لوحين سليمين ، وباقيها كسرات لا يعطينا أى منها مضمون رسالة واحدة مثل الكشف الأصلى . ولكن كنودتسون يشك فى أنهم وجدوا شيئا[١٤] .

مضمون الرسائل : سوف نعرض لعينات منها ولكنا نركز على الرسائل التى وردت من بابل لأن الشبهة تحوم حول هذه الرسائل بالذات وهو ما سنوضحه فى نهاية العرض .

من مملكة ميتانى ورد عدد ١٣ رسالة ، ٨ منها موجهة إلى أمنحتب الثالث و ٤ موجهة لإخناتون وواحدة للملكة تى ، وأول هذه الرسائل (كن ١٧) وجهها الملك توشراتا الملك الميتانى لأمنحتب الثالث يشرح فيها ظروف توليه الحكم ويطلب تأييد الفرعون وتوطيد أواصر الصداقة ، أما باقى رسائل هذا الملك فتدور حول ترتيبات زواج ابنته « تادوخيبا » من أمنحتب الثالث وتحديد قيمة الصداق المناسب ، وأما عن الرسائل الموجهة لإخناتون نفسه فهى تعاتبه على عدم الوفاء بوعود أبيه ، وهذه الوعود بالطبع هى إرسال الكميات الهائلة من الذهب الموجود فى مصر كالتراب على حد قوله ، واستياءه من إخناتون كيف يرسل بدلا منها تماثيل وهدايا من الخشب مما اعتبره توشراتا تحايلا حقيرا من الفرعون وظل هذا السخط يتردد فى باقى الرسائل .

وخطاب من ملك « خيتا » يفيد موت أمنحتب الرابع إخناتون وطلبت أرملته أن يرسل ملك خيتا ابنه ليتزوجها .

ومن بابل أرسل « بورنا بورياش » أربع رسائل أو ست للعمارنة أثناء حكم إخناتون إحداها تناولت تملكه السلطة فى بلاده ، وأخرى أوضحت أن المسافة بين البلدين طويلة

جدا ومحفوفة بالمخاطر بسبب قطاع الطرق وسوء الأحوال الجوية مع الإشارة إلى أن المندوب البابلى قد احتجز لفترة طويلة فى البلاط المصرى .

ذلك ملخص عام لمضمون تلك الرسائل .

ويعلق سليم حسن على ذلك : « هذه هى القصة المخزنة لهذا الكنز العظيم الذى بددته يد الجهل والذى يعد بحق أهم كشف حدث فى المدة الأخيرة فى مصر بل فى كل بلدان الشرق الأدنى القديم ، ولا غرو فإن هذه اللوحات التى وصلتنا من هذه الذخيرة التى لا يتجاوز عددها ٣٦٠ لوحا والتى أخطأت يد الجهل تدميرها ، وقد أسفر حل رموزها عن أنها كانت المراسلات السياسية للشئون الخارجية خلال عهد الملك أمنحتب الثالث ثم أمنحتب الرابع وتعد مدة حكميهما من أعظم عصور التاريخ المصرى القديم ، وقد أسفرت المعلومات التى تمخضت عنها تلك الرسائل عن قبس من نور أضاء لنا الطرق المظلمة والمسالك المعماة ، لا فى تاريخ مصر فحسب بل فى تاريخ العالم القديم المتحضر فى تلك الفترة » ولم ينس السيد سليم حسن تعريضه المشبوه حين استطرد قائلا : « فقد كشفت لنا حقائق عن بابل وبلاد آمور ومملكة الآشوريين وبلاد متنى وقبرص وكلكيا وكذلك كشف لنا عن بداية حركة اليهود ونزوحهم لأول مرة فى الأرض الموعودة ..الخ »[١٥] .

التعليق : ولو أن القارئ الفطن توصل إلى الحقيقة بنفسه وحدد موقفه من تلك المراسلات المزعومة ، إلا أن الأمر يستدعى وقفة :

١- عندما عرضت هذه اللوحات بعد كشفها مباشرة على العلماء المتخصصين كان لهم موقف يجب ألا نغفله : أ- فقد عرضت اللوحات على الدكتور « أوبرت » فى باريس لم يمض طويل زمن حتى جاءهم الجواب بأنها من صنع يد حديثة . ب- ثم أرسل بعضها إلى المسيو « جريبو » مدير مصلحة الآثار المصرية وقتئذ فصمت عن إبداء رأيه[١٦] .

٢- العدد المذكور من تلك الرسائل لا يغطى إلا فترة قصيرة جدا من التاريخ ولم يظهر لها نظير فى أى مكان ، مما يدل على أنها لم تكن تقليدا لا سياسيا ولا دبلوماسيا .

٣- البعثة التى نقبت بعد ذلك عن رسائل أخرى لم تعثر على شئ من تلك الرسائل ، أما كلامهم عن كسرات من الألواح لم تؤد إلى فائدة فالمعنى واضح ويؤكد كنودتسون شخصيا بأنه يشك أنهم وجدوا شيئا .. وهدف إعادة التنقيب واضح وهو تأكيد الكشف الأول .

٤- أما لغة الرسائل التى كتبت بها فقد شهد الجميع أنها لغة مؤلفة من خليط من عدة لغات قديمة بينها العبرية ، وسنوضح فى فصل تال تطور وكشف اللغة البابلية ليتضح المغزى والمقصد .

٥- أما عن توقيت كشفها فهو أولا تال للكشف عن تاريخ العمارنة مما يشكك فى نية مؤلف الفكرة ، وثانيا أن ذلك ظهر بعد بحث اللغة البابلية المسمارية وتقنينها ووضعها فى كتب بما يقارب الثلاثين عاما مما يسهل جدا عملية تأليف مثل تلك الرسائل .

٦- غياب ذكر المرسل والمرسل إليه يتمشى مع هذه الشبهة .

٧- لغة تخاطب ما يسمون بملوك بابل لملوك مصر هى فى الحقيقة لغة مغلوطة متبجحة ، لأن بلاد الرافدين فى ذاك الوقت (باستثناء الجزء الجنوبى الذى كان ما يزال مستنقعات ، لم تكن سوى ولاية تخضع للحكم المصرى من أيام تحتمس الثالث . فالوالى كان مصريا وحتى لو كان بابليا ما خاطب آلهته وملوكه بهذا الشكل .

٨- لم ولن تكتشف فى أى مكان فى العالم أى رد على تلك الرسائل صادر من مصر وملوكها لأن ذلك لم يحدث بالفعل، إلا إذا تنبه مؤلفو ومزورو تلك الرسائل وصنعوها.

٩- إجماع الرسائل كلها على فصيلة لغة واحدة أمر غريب جدا ولكنه ساذج ، فإذا صدقت هذه اللغة على بابل وميتان فكيف تصدق على قبرص مثلا . وتبرير ذلك بأن هذه المسمارية كانت لغة الدبلوماسية آنذاك أمر أكثر سذاجة من الأول وليس عليه برهان من أى نوع اللهم إلا إذا قالوا ثانية بتلك الرسائل ، وهذا أمر غير منطقى وغير علمى .

١٠- محاولة ترتيب هذه الرسائل زمنيا أو مكانيا هو نوع من الاعتباط والبعد عن الموضوعية كما يقول سيريل ألدريد .

١١- رسائل الوالى المصرى « ربعدى » فى فلسطين والتى تشير إلى تدهور قوة مصر فى آسيا بينما سياق الأحداث التاريخى لا يدل على ذلك ، ولا أستبعد - لأن مثل تلك الأسماء توراتية أيضا - أن يكون واضعو وصانعو تلك الرسائل منهم ، ولهم يد مباشرة فى ذلك .

١٢- لم يعثر على أى ترجمة من تلك الرسائل باللغة المصرية ، وهذا يناقض الواقع آنذاك ويتعارض مع النظام الإدارى الصارم والبيروقراطية المتقدمة جدا حتى من عصر بناة الأهرام ، لأن مثل تلك الرسائل لا بد أن تعرض مترجمة على الفرعون .

١٣- ناهيك عن الاختراع المهم فى الدولة المصرية والذى لم يظهر له اثر فى تلك المراسلات ألا وهو الكتابة على ورق مصنوع من البردى .

١٤- الهدف لعله اتضح من هذه الرسائل ليس مضمونها لأنها بالفعل لا تحمل من المضمون إلا ساذجه ، بل هو خلق أدلة وبراهين زمنية جديدة تربط بين تواريخ الشرق لمصلحة قضية معينة ستتكشف فى نهاية الكتاب وبالتالى محاولة إنقاذ التوراة مما أصابها بسبب التنوير الحديث للبشر وبسبب الكشوف المتوالية للآثار المصرية وغير المصرية فى العصور الحديثة .

١٥- وناهيك فى النهاية من قول كنودتسون بأن الألواح من الطين النيئ ، ورغم ذلك إصرار الباحثين على القول بأنها من طين محروق ، وشتان بين الإثنين ، فوجود هذه الألواح الطينية فى داخل « السباخ » القريب من السطح والملئ بالأحماض والأملاح على مدى ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة وتحت الطل والمطر طوال هذه السنين ، ألا يفقدها على الأقل طبقة السطح الخارجى بما عليه من كتابة ؟

١٦- الرقمة الطينية لكى تكون وثيقة حقيقية لا بد وأن تكون داخل علبة طينية أيضا عليها نفس النص ، يقول هورست كلينكل[١٧] : كانت هذه الألواح الرسمية تحفظ ضمن

مغلف مصنوع من الطين أيضا ، ويدون عليه نفس مضمون النص المحفوظ فى داخله ، وبهذه الطريقة يمكن تجنب التزوير على اللوح الأصلى ، فعند ظهور أى التباس فى قراءة النص أو اختلاف صحة مضمونه يكسر الغلاف ويقارن النص مع اللوح الأصلى داخل الغلاف ، وثبت أن عدم تطابق النصين ليس مرده إلى خطأ عفوى أو إلى شرود ذهن محرره أو غفلته ، إنما كان التزوير هو المقصود بحد ذاته. وإذا كان الوضع كذلك فأين الأغلفة الخارجية لرسائل العمارنة ، لم نسمع حتى الآن أنه عثر على أمثال هذه الأغلفة التى يجب توافرها مع النصوص العادية ، فما بالك لو أن هذا اللوح عبارة عن رسالة خارجية لملك من ملوك مصر .

١٧- ثم فى النهاية طبيعة الكتابة المسمارية كانت تحمل نفس طريقة الكتابة المصرية المكونة من حروف ومقاطع لأكثر من حرف ، فهى بناء على ذلك ليست بأسهل من الكتابة المصرية حتى تتخذ كلغة دبلوماسية ، لصعوبة التعامل بها ولصعوبة تحريرها ومحدودية المساحة الجغرافية والسكانية التى تتعامل بها .

١٨- وأخيرا ، عفوا إن كنت عنونت هذا المبحث بالعنوان « رذائل العمارنة » ولكن لعل بعد هذا العرض أصبح لى العذر كل العذر فهى ليست رسائل بل رذائل .

المحبوبة كيا

لكم تغير الحال عندما ظهرت المحبوبة - كيا - Kija للباحثين أخيرا ، وانحسرت تلك المناظر العاطفية المألوفة لنا بين الملك وزوجته الملكة نفرتيتى . ففى عام ١٩٥٩ و ١٩٦١ ميلادية بدأ ذكرها لأول مرة فى مؤلفات المتخصصين بطريقة عابرة ؛ ومن وقتها عكف مجموعة من الباحثين - بيريبلكين Perepelkin وهانكه Hanke وهلك Helck وكراوس Krauss على بحث شخصيتها بحثا علميا ، وأصبحت معروفة تماما لكل الباحثين ، ويرى الباحثون أن كيا هو اسم مختصر لاسم أطول من ذلك ويرجحون أنها أجنبية من بلاد ميتانى لمجرد أن لها مدير أعمال من « نهارينا » وسواء أن هذا اسمها أم أن لها اسما أطول أو غير ذلك فعلينا أن نبحث هذا الموضوع كما هو معطى لنا من المراجع .

ولما كانت نفرتيتى تحمل لقب « الزوجة الملكية الكبرى » فإن - كيا - كانت تحمل اللقب الفريد « المحبوبة الكبرى للملك » وهذا اللقب يرفعها عاليا عن باقى نساء الحريم دون أن يكون لها دور دينى فى عقيدة إخناتون كذلك الذى كان للملكة نفرتيتى . فما كانت تصور وهى تلبس تاجا ملكيا ولم يوضع اسمها فى خرطوش ملكى ، ولكن كان ظهورها خلف نفرتيتى كما لو كانت واحدة من بناتها . ورغم أن شخصية - كيا - معروفة تماما لدى معظم الباحثين إلا أن ذكرها نادر فى كثير من الكتب المتداولة ويكاد يقتصر ذلك على الكتب المتخصصة جدا ، مما يدعو فى الواقع إلى الشك والريبة لا فى شخصيتها ولكن فى نوايا البعض ، فما هو الموضوع ؟

تقول « جوليا سامسون »[١٨] : منذ أن أجريت الحفائر الأولى فى موقع المنتجع الجنوبى بالعمارنة ، حدث سوء فهم وخطأ تاريخى استمر طويلا حتى كاد أن يصبح من الحقائق غير القابلة للنقاش ، إلى أن تم تصحيح هذا الخطأ بطريقة علمية فى سنة ١٩٧٤ م ، فمنذ البداية شاعت نظرية تقول إن نفرتيتى قد اختفت فجأة وحل محلها شاب هو فى الغالب كان زوجا للأميرة الكبرى « مريت آتون » كما شاعت نظرية أخرى تقول أنه بعد إختفاء نفرتيتى محيت

أسماؤها المكتوبة على أعمدة المنتجع الجنوبى ووضع بدلا منها اسم ابنتها الكبرى الأميرة مريت آتون بمعنى أن الإبنة قد حلت محل أمها بالنسبة لإخناتون .

وبعد أن ثبت خطأ النظرية الأولى علميا ظهرت بعد دراسات متأنية نظرية أخرى تقول أن بقايا الاسم الذى تم محوه والتى قرئت خطأ على أنها بقايا اسم نفرتيتى ثبت أن الاسم الممحو كان اسما لامرأة أخرى هى – كيا .

وفى عام ١٩٧٤نشر البروفيسور « جون هاريس John Harris » تقريرا علميا مفاده أنه بعد دراسة معظم الحالات التى عثر عليها من محو الأسماء وحفر أو نحت اسم آخر جديد فوق نفس المكان ، تبين له بصفة مؤكدة أن الاسم الممحو لم يكن اسم نفرتيتى ، بل كان اسما لامرأة تدعى كيا .

وبطبيعة الحال لم يكن هناك أى عالم من علماء المصريات فى فترة العشرينيات من القرن العشرين يعتقد فى وجود امرأة فى العمارنة اسمها كيا ، لأن هذا الاسم لم يكشف إلا بعد نحو خمسين عاما ، حيث أثبت البروفيسور هاريس أن هذا الاسم تكرر فى ستة من الأدلة والشواهد الأثرية المأخوذة من آثار العمارنة ، وأن أحد هذه الأدلة موجود بمتحف « بترى » ولم يكن اسم كيا مذكورا فقط ببقايا الجدران والأعمدة بالمنتجع الجنوبى ، بل كان موجودا أيضا فى أثر عثر عليه وتبين فيه أن اسما قد محى وحفر فوقه اسم جديد ، ففى جميع هذه الأدلة والشواهد الأثرية كان الاسم الممحو هو – كيا – ويقول هاريس أيضا إنه لا يوجد أى دليل أو شاهد أثرى واحد يدل على أن الاسم الممحو هو اسم نفرتيتى أو أحد ألقابها ويؤكد عالم المصريات « السير ليونارد وولى » هذا المعنى ويرد على القائلين بأن الاسم الممحو هو اسم نفرتيتى بأن هذا الأمر لا يمكن تصوره بأى حال من الأحوال فى ضوء العلاقة الحميمة التى كانت بين الزوجين المحبين إخناتون ونفرتيتى ، لو كان الاسم قد محى أثناء حياتها فليس من المتصور توجيه مثل هذه الإهانة العلنية للملكة واسمها ، ولو كان الاسم قد محى بعد موت نفرتيتى فليس من المقبول تصور موافقة زوجها المخلص على ذلك ، وبهذا انتهت النظرية التى تقول بأن نفرتيتى قد اختفت وتم محو اسمها وإبداله باسم ابنتها الكبرى .

وتقرر جوليا سامسون : أنها بعد أن شاهدت ودرست كل الآثار المأخوذة من المنتجع الجنوبى والتى تتضمن اسما ممحوا واسما آخر حفر فوقه ؛ أن من الصعب فعلا قراءة بقايا آثار الاسم الذى تم محوه قراءة واضحة ، ولكن جميع الحروف أو العلامات الهيروغليفية التى يمكن قراءة بقاياها هى من مكونات اسم – كيا – وليست من مكونات اسم نفرتيتى أو أحد ألقابها .

وتستطرد جوليا سامسون : إن تلك الشواهد الأثرية التى اكتشفت مؤخرا تدل على أن – كيا – كانت زوجة ثانوية لإخناتون ، مجرد زوجة من الحريم ولكنها لم تكن أبدا زوجة ملكية عظمى ، فلم يكتب اسمها داخل خرطوش ملكى ولم تضع على رأسها تاجا كالملكات ولا زينت جبينها بالحية الحامية المقدسة وهى شعار تقليدى خاص بالملوك والملكات . ومع ذلك فقد كانت فى حقيقة الأمر زوجة ثانوية لإخناتون . وقد عثر على منظر لها منقوش على أحد الأحجار التى نقلت من العمارنة بعد تدميرها إلى مدينة هرموبوليس « الأشمونين حاليا » تظهر فيه كامرأة عادية من النبيلات تزين رأسها بباروكة مميزة ذات طراز خاص .

وأشار البروفيسور – هاريس– إلى أن كيا قد أنجبت من إخناتون ابنتين أخريين وولدا واحدا ولكنه أضاف أنه توت عنخ آمون وبذلك يمكن القول بأن كيا قد اكتسبت مكانة خاصة أهلتها للحصول على الأقل على أجنحة خاصة بها وبذريتها فى القصرين الصغيرين الشمالى والجنوبى .

ولكن ما هى الأسباب التى أدت إلى محو اسمها وكتابة أسماء أخرى بدلا منه ؟

هل كانت هناك منازعات عائلية أدت إلى مطالبتها بالاندراج فى الخط الملكى بالرغم من أن هذا الوضع الذى تطالب به سيؤثر على المراكز والحقوق الشرعية للأميرات الست بنات إخناتون ونفرتيتى باعتبارهن أميرات بالوراثة ؟

أم قامت بمحاولة إدراج ابنتيها وابنها الذكر فى الخط الملكى ؟

ومن الغريب أن بعض أحجار العمارنة التى عثر عليها فى مدينة هرموبوليس « الأشمونين » والتى عليها شواهد تدل على محو اسم كيا وكتابة أسماء أخرى فوقه تدل على أن الاسم الذى كتب بدلا من كيا بعد محوه هو اسم الأميرة مريت آتون واسم الأميرة

الأخرى – عنخ س ن با آتون – وهما ابنتان من بنات إخناتون ونفرتيتى ، وقد تم هذا المحو والإبدال بالرغم مما قد يؤدى إليه من نتائج خطيرة أهمها أن البنتين والولد الذين أنجبتهم كيا قد أنجبهم إخناتون من ابنتيه مريت آتون وعنخس إن با آتون وليس من كيا .

ويحذر البروفيسور هاريس من خطأ التسرع فى الاعتقاد بأن محو اسم كيا كان نوعا من العقاب أو أن تفرتيتى كانت مشمئزة منها ولا تقبلها ، بل يفترض أن كيا قد ماتت .

ومما لا شك فيه أن شخصية نفرتيتى ومركزها السامى الرفيع الذى كانت تشغله لم يهتز أو يتأثر إطلاقا بعملية زواج إخناتون بهذه الزوجة الثانوية التى أنجب منها ابنتين وولدا ، ومن المؤكد أن نفرتيتى كانت مقتنعة بالمبررات التى أدت إلى هذا الوضع ، فقد أنجبت لإخناتون ست أميرات ولم تنجب وليدا ذكرا يكون له الحق فى وراثة العرش . وكان من الواضح أيضا أن نفرتيتى لم تعد قادرة على الإنجاب ، وتدل المناظر على مدى الحب الذى كانت تكنه نفرتيتى لبناتها فى مختلف أطوار أعمارهن وتدل بالتالى على مدى حرص نفرتيتى على حقوق بناتها الأميرات . وفوق كل هذا كانت تدرك بذكائها أن حقوق وقوانين المحافظة على العرش الملكى فوق كل اعتبار ، خصوصا فى تلك الفترة الحرجة من التاريخ المصرى التى عاشتها .

شواهد هرموبوليس – الأشمونين : من المسلم به الآن أن كثيرا جدا من أحجار العمارنة قد نقلت بعد تدمير مدينة آخت آتون وهدم منشآتها إلى مدينة هرموبوليس « الأشمونين » لإعادة استخدامها فى بناء منشآت جديدة . وكان الكثير من تلك الأحجار مازال يحمل ما عليه من نقوش ، وقد عثرت بعثة المتحف البريطانى على العديد من أحجار العمارنة بعضها فى الطبقة العليا من الحفائر والبعض الآخر فى الطبقة السفلى الأمر الذى يفهم معه أن هذه الأحجار قد أعيد استخدامها أكثر من مرة فى عصور متلاحقة .

وإلى جانب ما عثر عليه وما يؤكد عملية المحو التى اشرنا إليها فقد عثر على نقوش لعدة مناظر متماثلة تمثل مجموعة مكونة من ثلاثة أشخاص غير مذكورة أسماؤهم ؛ الأول منهم عبارة عن ملك يضع على رأسه تاج حرب منتفخا مثل التاج الذى كان يلبسه إخناتون فى السنوات الوسطى من فترة حكمه ، أما الشخص الثانى فهو سيدة تضع على

رأسها باروكة شعر مميزة ذات طراز خاص تبدأ من فوق حاجبيها مباشرة ، أما الشخص الثالث فى هذا المنظر المتكرر فهو طفل صغير ذكر ، ومن المؤكد أن منظر هذا الثلاثى هو منظر عائلى بحت ، ومن الممكن تصوره على أنه منظر لإخناتون وكيا وطفلهما الذكر .

وتدل النقوش أيضا على أن البنتين اللتين أنجبتهما كيا قد سميا على اسم اثنتين من أخواتهما غير الشقيقات ، وهما « مريت آتون الصغرى » و« عنخس إن با آتون الصغرى » ، وقد ذكرنا من قبل أنه بعد محو اسم كيا وإبداله فإن المعنى الذى كان مقصودا هو الإيعاز بأن إخناتون قد أنجب هاتين الابنتين من ابنتيه المذكورتين ، وليس من زوجته كيا إمعانا فى تشويه صورة إخناتون . ومع ذلك فإن هذا المحو قد أكد لنا بصفة قاطعة نسبة البنات والولد إلى الزوجة الثانوية كيا . وهذا الولد الذكر كان هو ولى العهد ، كما تشير الأسماء على تلك النقوش إلى أن هذا الولد الذكر لم يكن « توت عنخ آمون » على أى حال ولكننا عرفنا اسمه من لوحه مهشمة فى الكلمة الأخيرة واسمه : نفر نفرو آتون مرى كيا . وترجمة هذا الاسم : نور أنوار الرب والمحبوب من أمه كيا ، أو صالح صالحى الرب والمحبوب من أمه كيا .

بقى لنا أن نعرف معنى اسم السيدة – كيا – وهل هو اسم مصرى أم لا ، ثم نتابع موضوعنا :

كيا وتكتب بالمصرية هكذا :

ومعناها : الغريبة أو الأجنبية[١٩] .

وسنناقش فى فصول تالية دلالة هذا الاسم ويكون كشفا جديدا مبهرا فى التاريخ الدينى على الإطلاق .

أما عمليات المحو والإبدال فى اسم كيا وولدها التى ناقشها الباحثون المحدثون ، فهى عندى ليس فقط جريمة شنعاء ولكن الفاعل أيضا من المحدثين وعلى الأرجح من الذين قاموا بالحفائر أنفسهم وبإيعاز من هيئة أخرى صاحبة المصلحة فى ذلك ، وسيتضح ذلك مع السياق .

زيارة السيدة العجوز

يجمع جمهور الباحثين فى علوم المصريات وعلى رأسهم الأستاذ – سيريل ألدريد[٢٠]– على ترجيح زيارة الملكة الأم – تى – لابنها الملك الداعية إخناتون فى مدينة الرب آخت آتون وذلك فى السنة الثانية عشرة من حكم الداعية ، ولعلها بزيارتها تلك قد حملت معها أنباء عن الحالة الخطيرة التى صارت إليها الأمور فى مصر وبالذات فى العاصمة القديمة طيبة ، فقد زاد استياء الأهالى من القمع الذى تعرضت له آلهتهم والكهنة يعملون فى السر والعلن على تقويض تعاليمه ، والجيش متذمر لسياساته المسالمة فى معالجة الأمور ، وربما أن الملك لم يتنبه فى اللحظة الحاسمة إلا بعد تفاقم الأمور واضطراره لمجابهة الأمر الواقع ، وربما أنه أرسل أحد الرسل أو الأمراء ربما – آى – إلى طيبة ليقوم بتطويق واحتواء الأزمة مع كهنة آمون .

ويستطرد ألدريد بأنه يقال أن الملكة نفرتيتى لم توافق على تغيير السياسة التى كانت متبعة قبل ذلك فآثرت الاعتزال فى أحد القصور فى أقصى شمال آخت آتون ، وعند اعتزالها اصطحبت معها أميرا صغيرا هو – توت عنخ آمون – (سنفرد له إن شاء الله كتابا يصدر تباعا) .

وعندما نناقش الاستنتاجات التى عرضها ألدريد نصل إلى نتائج أخرى قد يكون لها الأهمية الفاصلة فى مجمل الأحداث .

فقد افترض ألدريد أن الملكة نفرتيتى تذمرت من سياسة الملك واعتزلت جانبا ولكن هذا ليس مقنعا ، ونفترض أنه بعد أن تعرفنا على شخصية الزوجة الثانوية السيدة – كيا– وأنها قد أنجبت فعلا الولد الذكر من الملك إخناتون ، فقد انتهى الأمل الآن بالنسبة للأمير توت عنخ آمون الذى كان فى فترة سابقة قد غير اسمه إلى توت عنخ آتون وكان قد أعلن فعلا عنه كملك مشارك فى الحكم لأن إخناتون لم يكن ينجب من نفرتيتى سوى البنات . فلما زال السبب بوصول المولود الجديد – نفر نفرو آتون مرى كيا ، فكان الطبيعى أن ينحسر دور نفرتيتى وتنحى نفسها جانبا ، والدليل على صحة ما نقول هو أنها انسحبت

ومعها توت عنخ آتون والذى كان يعتبر وليا للعهد قبل ظهور المولود الجديد من صلب الملك حتى وإن كان من الزوجة الثانية .

إذن نفرتيتى لم تتذمر من سياسة الملك فى معالجة الأمور بوجه عام بل من سياسته الجديدة فى ولاية العهد وربما تسلل إلى نفسها بعض الإحساس بالغيرة من السيدة كيا وولدها .

أما عن الزيارة المعلن عنها من الملكة – تى – إلى أخت آتون والمثبتة بالفعل تاريخيا فلها أيضا دلائلها وسنناقشها تباعا .

لقد لاحظنا أن الملكة – تى – عند زيارتها هذى كانت ما تزال تحتفظ بألقابها باعتبارها « الزوجة الملكية العظمى للملك » رغم وفاة زوجها الملك العجوز أمنحتب الثالث « نمروذ » والذى من المحتمل أن تكون وفاته قبل الزيارة بوقت قصير . فقد جاءت الملكة – تى – لزيارة آخت آتون وقد اصطحبت معها كامل حاشيتها وبطانتها ، وعلى رأسهم « حويا » الذى كان يشغل منصب المشرف العام على بيتها وخزانتها وحريمها من الوصيفات وعلى قصورها فى طيبة والفيوم ، ونظرا لهذه المكانة الرفيعة التى كان يشغلها حويا فقد تفضل عليه الملك إخناتون وزوجته نفرتيتى بمنحه أوسمة ونياشين « الياقات الذهبية » التى تؤهلة لحمل لقب « من أصحاب الذهب » . وقد بنى حويا لنفسه مقبرة بالمرتفع الصخرى العالى بشرق العمارنة ولكن هذه المقبرة مثلها مثل غيرها من مقابر النبلاء لم تستعمل للدفن أبدا . ولكن ومن حسن الحظ أن حويا قد سجل على جدرانها معظم المناظر لوقائع زيارة الملكة – تى – للمدينة ، فقد سجلت المقبرة بمناظرها كل مظاهر التشريف العظيم الذى قوبلت به الملكة الأم .

واحتراما لذكرى زوجها المتوفى الملك أمنحتب الثالث فقد سجل له منظر وحيد فوق العتبة العليا فى الجانب الداخلى لبوابة المقبرة ، ولم يظهر الملك المتوفى فى أى منظر آخر سواء فى مناظر زيارة المعبد أو منظر حفل الغداء الذى تظهر فيه الملكة « تى » وحدها ومعها الأميرة « باكت آتون » التى تحمل لقب ابنة الملك وربما أنها أخت إخناتون أو أخت توت عنخ آمون ، وهما جالستان فى مواجهة إخناتون ونفرتيتى وبناتهما .

أما المنظر الوحيد الذى يظهر فيه الملك المتوفى فقد نقش بطريقة توحى بالرمزية والتعبيرية فى آن واحد ، حيث نرى الملكة تى جالسة أمامه وفى مواجهته ، فى حين أنها كانت تصور أثناء حياته جالسه بجواره ، ونرى مع الملكة تى الأميرة باكت آتون جالسة إلى جوارها ، وترفع كل من الملكة والأميرة يدها اليمنى بشكل طقسى كما لو كان تعبيرا عن تحية رزينة يرسلانها إلى الملك المتوفى فى العالم الآخر ، بينما يرد هو التحية أو يتقبلها بإيماءه ضعيفة متعبة .

وتدل مناظر منقوشة أيضا على جدران مقبرة حويا على أن إخناتون قد وفر لوالدته الملكة تى كل مراسم الحفاوة والتشريف ، فقد رافقها إخناتون عند زيارتها للمعبد الكبير المسمى « معبد آتون فى أخت آتون » .

ومن هذا يتضح أن الملكة تى بزيارتها لهذه المنشأة وكذلك من زيارتها إلى « معبد ظل رع » كانت قد اعتنقت الديانة الإخناتونية التوحيدية فى أواخر عمرها بينما لم يفعل الملك الوالد قبل وفاته[٢١] .

وزيارة الملكة الأم هذه تثير عشرات الأسئلة وتلقى بظلال كثيفة حول الوضع السياسى الذى كان يسود البلاد وبالذات فى طيبة ، فهل كانت تحمل معها رسالة من المجمع الكهنوتى لآمون فى طيبة أم أنها أتت لتتفاوض مع ابنها فيما سيحدث فى المستقبل وما يدبره الكهنة تجاه الملك وديانته أم جاءت لتحذره من المجهول ؟

كل هذا وارد وبالذات أن الملكة الأم بقيت فى مدينة ابنها ولم تعد أبدا للعاصمة القديمة طيبة .

أخطر نفى فى التاريخ ـ البردية المفترى عليها

نقول إن الملكة تى غادرت العاصمة طيبة بعد وفاة زوجها الملك العجوز أمنحتب الثالث – نمروذ – ربما تحت ضغوط من مجمع كهنة آمون مطالبين إياها بالتوسط لدى ابنها الملك إخناتون كى يتخلى أخيرا عن مذهبه الجديد فى التوحيد والكف عن الإساءة إلى آلهة آبائه وأجداده والرجوع عن تعطيل الديانة القديمة وأعمال الكهنة ، وربما أنهم أنذروها بعاقبة الأمور فى حالة عدم الاستجابة لمطالبهم بل ربما أعطوها مهلة زمنية محددة . والأرجح أنهم قدموا لها خطة بمقتضاها أن الملك يعود إلى ديانة آمون أو يغادر البلد نهائيا .

نقول هذا الكلام ، حيث تبين أن الأمر لم يكن مستتبًا مع الديانة الجديدة ، حتى أنه داخل مدينة التوحيد نفسها تم الكشف عن مؤامرة لاغتيال الملك ، قضى عليها رئيس الشرطة « ماحو » فى أخت آتون ، فالمرجح أن كهنة آمون بالطبع كانوا وراء هذه المحاولة وواضح أنهم لن يهنأ لهم بال إلا وقد قضوا على هذا الدين الجديد[٢٢] .

ومن المؤكد أنهم فكروا فى خطة أخرى للإطاحة بعاهلهم بعد فشل المحاولة الأولى ولكن هذه المرة لا بد وأن يكون الجيش هو العون فى هذه المرة ، ولا سيما أن المرتد –حور محب– وقد كان رئيس الجنود ، ربما كان ممن حامت حولهم الشبهات فى عملية الاغتيال الفاشلة ، ولم نعد نراه بعدها فى مدينة التوحيد .

على العموم ، المهلة انتهت ، وكان لا بد من الهجوم على مدينة التوحيد – أخت آتون ، الدولة داخل الدولة – ولا نريد أن نسهب فى هذا الكلام إلا ويكون الدليل العلمى هو السيد فى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ مصر .

وخير دليل علمى على صحة الوقائع ووصفها الوصف الدقيق هو أن نترك التاريخ المصرى نفسه يتحدث عن نفسه فى بردية مشهورة[٢٣] .

النص : وهو عبارة عن نثر وقصيدة طويلة وكل بيت فيها يبتدئ بكلمتين يمكن ترجمتهما إلى العربية هكذا « حقا لقد .. » والمراد إثبات شئ لا يمكن تفنيده .

« فيقول حراس الأبواب : فلنذهب لننهب ، والغسال يتنحى عن حمل حمله ، وصائدو الطيور قد جهزوا انفسهم للواقعة ، وآخرون من الدلتا يحملون الدروع ، وقد ثار القـــوم حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائعى الحلوى وصانعى الجعة ، وأصبح الرجل ينظر لابنه نظرته إلى عدو ...

والرجل الفاضل يذهب بملابس الحزن بسبب ما حاق بالأرض ... وأصبح الأجانـــب مصريين فى كل مكان . (ربما تكون خطأ فى الترجمة) والأصح :

وأصبح المصريون أجانب فى كل مكان ...

(الشعر الأول)

– حقا لقد شحب الوجه ... والأجداد قد تنبئوا ...

(وبعد تلف طويل فى النص نقرأ ..)

– حقا فإن ... (والبلاد) ملأى بالعصابات ويذهب الرجل ليحرث أرضه ومعه درعه .

– حقا فإن الخجول يقول : ... (مهشم فى النص)

– حقا فإن الوجه قد شحب ، وحامل القوس أصبح مستعدا ، والمجرمون فى كل مكـــان ، ولا يوجد رجل من رجال الأمس .

– حقا إن الناهبين فى كل مكان ...

– حقا إن النيل فى وقت الفيضان ، ومع ذلك لا يحرث أحد من أجله ، وكل إنسان يقول : لا نعرف ما حدث فى أنحاء البلاد .

– حقا لقد صارت النساء عاقرات ، وانقطع الحمل وأصبح الإله خنوم لا يسوى الناس بعد بسبب حالة الأرض المضطربة .

– حقا لقد أصبح المعوزون الآن يملكون أشياء جميلة ، ومن كان يخصف نعليه فيما مضـــى أصبح صاحب ثروة .

– حقا إن أرقاء الرجال أضحت قلوبهم فى حزن وأصبح العظماء لا يشـــاطرون أهلـــيهم أفراحهم .

- حقا إن القلب لثائر والوباء قد أنبت فى كل الأرض والدم صار فى كل مكان ... ولفائف المومياوات تتكلم وإن لم يقترب الإنسان منها .
- حقا لقد دفن رجال عديدون فى النهر ، فأصبح النهر قبرا ، وصار المكان الطاهر مجرى .
- حقا لقد أصبح الحزن يملأ (قلوب) أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلئوا سرورا ، واضحت كل بلدة تقول : فلنقص القوى من بيننا .
- حقا لقد أصبح منظر الناس كمنظر طير « جم » ، والقاذورات منتشرة فى كل البلاد ، ولا يوجد امرؤ بملابس بيضاء فى هذا الوقت .
- حقا لقد أصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخار . صار اللص صاحب ثروة . (بعد ذلك يأتى بيت ممزق من القصيدة) .
- حقا لقد تحول النهر دما ، فهل يشرب الإنسان منه ؟ إنه يعافه بوصفه آدميا (لأن) الإنسان يظمأ للماء .
- حقا إن البوابات والعمد والجدران قد التهمتها النيران (ومع ذلك) فإن حجرة قصر الملك لا تزال باقية ، وواقفة ثابتة .
- حقا لقد أصبحت سفينة الجنوب شاردة ، ودمرت البلاد ، وصار الوجه القبلى صحراء خاوية .
- حقا لقد أصبحت التماسيح فى تخمة بما قد سلبت ، إذ يذهب الناس إليها عن طيب خاطر وحالة البلاد أصبحت سيئة ... ويقول القوم : لا تدوسوا هنا ، ولكنهم يدوسون هناك كأنما هناك سمك ، لأن الرجل الجبان ينقلب غاية فى الغباوة من الرعب .
- حقا لقد أصبح الناس قليلين ، على أن من يدفن أخاه فى الأرض يرى فى كل مكان ، وبعد أن يتكلم المرتل يهرب على الفور .
- حقا لقد أصبح ابن سلالة المجد لا يعرف ، وأصبح ابن زوجته ابن خادمته .
- حقا لقد أصبحت الأرض الحمراء منتشرة فى كل البلاد ، وخربت المنازل ، ونزل قوم أغراب من الخارج إلى مصر .

- حقا إن الذهب واللازورد والفضة والياقوت والكرنيليان والبرونز والمرمر و .... تحلى جيد الحوارى ، والسيدات النبيلات يمشين فى طول البلاد ، وربات الخدور يقلن : ليت عندنا بعض الشئ لنأكل .
- حقا فإن ... أعضاء السيدات فى حالة يرثى لها إذ يرتدين الخرق البالية ، وقلوبهن تنفطر حينما يحيين .
- حقا فإن صناديق الأبنوس تكسر ، وخشب « سسنم » الثمين يقطع قطعا للأسرة .
- حقا لقد أصبح بناءو (الأهرام) عمالا فى الحقول : والذين كانوا فى سفينة الإله أصبحوا تحت نير واحد ، ولا يسيح الناس إلى « جبيل » اليوم ، وإذن ماذا نصنع للحصول على خشب الأرز اللازم للمومياوات . فالكهنة يدفنون بمستخرجاتها ، والأمراء حتى بلاد كفتيو (كريت) يحنطون بزيتها ، فهى لا ترد بعد قط ، والذهب قل وال... الذى كان يستعمل فى كل الحرف قد انتهى .... وكم يظهر للإنسان عظيما عندما يأتى إليه أهل الواحات حاملين محصولاتهم من نبات وطيور .
- حقا فإن « إلفنتين » و « طينة » وهما من ممتلكات الوجه القبلى أصبحتا لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية ، وهناك حاجة إلى الفاكهة والفحم وكل أنواع التجارة ، وكل ما ينتجه الصناع .... فما فائدة وجود بيت مال بدون دخل ؟

ولا شك فى أن قلب الملك يسر عندما يقف على الحقيقة ، فقد دخلت البلاد كل مملكة أجنبية ، وهذا ماؤنا وهذه سعادتنا ... ولكن ما العمل ؟ وكل شئ ينحدر إلى الدمار !

- حقا لقد قضى على الفرح فلم يعد يقام ، بل الحزن الذى يتمشى فى طول البلاد ممزوجا بالأسى .
- حقا فإن الأموات أصبحوا مثل الأحياء ، ومن كانوا مصريين أصبحوا أجانب ، حقا لقد سقط شعر كل إنسان ، وأصبح لا يميز بين ابن الرفيع وبين ابن من لا والد له ... والجلبة لم تكن غير متوفرة فى سنى الجلية ولا نهاية للضوضاء .

- حقا فقد أصبح كل من العظيم والحقير يقول : « ياليتنى كنت ميتا » والأطفال الصغار يقولون : كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة .
- حقا فقد أصبح أولاد الأمراء يضرب الناس بهم عرض الحائط - وأطفال الشهوة يلقون على قارعة الطريق ، وأصبح الإله خنوم يئن تعبا .
- حقا فإن الذين كانوا فى « المكان الطاهر » قد ألقوا على قارعة الطريق ، وأصبح سر المحنطين جهرا .
- حقا فإن ما كان لا يزال يرى حتى الأمس قد دمر وهجرت الأرض لآلامها كما يقتلع الإنسان الكتان (من أصوله) .
- حقا فإن الدلتا بأجمعها أصبحت غير محمية (كما كانت) والاعتماد على أرض الشمال أصبح (الآن) طريقا معبدا ، وماذا يفعل الإنسان ؟ ... وسيقول الناس حقا : لعن المكان الوعر ! ولكن انظر فقد أصبح الآن ملكا على السواء لمن يجهلونه ولمن يعرفونه ، وأصبح الأجانب مهرة فى صناعات الدلتا .
- حقا فإن المواطنين قد ألقى بهم على أحجار الطواحين ، وهؤلاء الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل يضربون ... واللائى لم يشاهدن نور النهار قد خرجن ... واللائى كن على أسرة أزواجهن ، أصبحن ينمن على مضاجع مقضة ... وأصبحت السيدات يتألمن مثل الإماء ، ومغنيات الخدور أصبحت أغانيهن لإلهة الغناء أنشودة حزن ، والقاصون ... يجلسون على أحجار الطواحين .
- حقا فقد أصبحت الخادمات من الإماء يوجهن ألسنتهن حيث شئن ، وعندما تتكلم سيداتهن فإن ذلك يكون مملا لإمائهن .
- حقا ... وسيقول الناس حيثما يسمعونها : لقد أتلف الفطير لمعظم الأطفال ، وليس هناك طعام لأجلى ... فما طعم هذا اليوم ؟
- حقا فقد أصبح الحكام جياعا وفى بؤس ...
- حقا فإن الرجل الأحمق يقول : إذا عرفت أين يوجد الإله فإنى أقدم له قربانا (لقد أصبح الصدق كذبا فى الأرض ، والحصاد قد اغتصب كل متاعه)

– حقا فإن كل قلوب الماشية تبكى والقطعان تندب حالة البلاد .

– حقا لقد أصبح أبناء الأمراء يضرب بهم القوم عرض الحائط ، والأطفال الذين كانوا محبوبين قد ألقى بهم على قارعة الطريق ، والإله خنوم يشكو بسبب إعيائه .

– .....

– حقا لقد ... عمت الوقاحة (فى البلاد) عند كل الناس ، والرجل يقتل أخاه من أمه فما العمل فى ذلك ؟

– حقا لقد أصبحت الطرق ... والشوارع تحرس ، والناس يختبئون فى الأعشاب حتى يأتى المسافر فى ظلام الليل ليسلبوا منه حمله ، وما عليه يسرق ، ويضرب بالعصا حتى ينقطع نفسه ثم يذبح ظلما .

– وفى الحق لقد دمر ما كان مرئيا بالأمس ، وتركت الأرض لمتاعبها ، كما يقتلع الإنسان منها الكتان ، والفقير ... فى شجى ... ليت آخر الناس يكون قد حل ، فلا حمل ولا ولادة ! ليت العالم يتخلص من الغوغاء وتنفض المشاحنات !

– وفى الحق لقد أصبح القوم يعيشون على الحشائش ويشربون الماء ، وقد أصبحت الطيور ولا فاكهة ولا أعشاب تأكل منها ، وقد أصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير دون أن يقال (كما كان يقال فى الزمن السالف) هذا أحسن لك مما هو لى ، لأن القوم ساروا جياعا .

– وفى الحق قد انعدمت الغلال فى كل مكان ، وجرد القوم من الملابس والعطر والزيت وصار الإنسان يقول : لم يبق شئ ، وصار المخزن خلوا ، وحارسه قد أصبح ملقى على الأرض ، وإن ذلك ليس بالأمر السار لقلبى ، وليت فى مقدورى أن أرفع صوتى فى هذه الآونة حتى كان يخلصنى من الألم الذى أنا فيه الآن .

– وفى الحق لقد سلبت كتابات قاعة المحاكمة الفاخرة ، وأصبح المكان السرى مكشوفا ..

– وفى الحق لقد أذيع سر التعاويذ السحرية ، وصارت لا أثر لها لأن القوم قد حفظوها فى أذهانهم .

– وفى الحق لقد فتحت الإدارات العامة ، ونهبت قوائمها ، وصار العبيد أصحاب عبيد .

- وفى الحق لقد ذبح الموظفون وسلبت قوائمهم ، فتعسا لى بسبب البؤس فى مثل هذا الزمن!
- وفى الحق لقد دمرت دفاتر كتاب الحقيبة ، وأصبحت غلال مصر ملكا مشاعا .
- وفى الحق لقد وضعت قوانين قاعة المحاكمة فى البهو ، وصار القوم يطئوها فى الطرقات ويمزقها الفقراء فى الأزقة .
- وفى الحق لقد وصل الفقير إلى مرتبة الآلهة التسعة ، وإجراءات بيت الثلاثين قد أفشيت .
- وفى الحق لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة ، والفقراء يروحون ويجيئون فى البيوت العظيمة .
- وفى الحق لقد أصبح أولاد الحكام يلقون فى الشوارع ، ومن كان صاحب معرفة يقول : نعم ، والجاهل يقول : لا ، فالذى لا علم له يظهر ذلك عنده حسنا .
- وفى الحق أصبح أولئك الذين كانوا فى المكان الطاهر يلقون على قارعة الطريق ، وصار سر المحنطين مكشوفا .

(الشعر الثانى)

وكما أن الشعر الأول يبتدئ كل بيت فيه « حقا لقد » أو « فى الحق » ليصور لنا حقيقة معلومة قد وقعت ، فإن الشعر الثانى يبتدئ بتكرار كلمة « انظر » ليضع أمامنا بجلاء حوادث قد حدثت فى الحال أو لا يزال جاريا وقوعها .

- انظر ! إن النار قد اشتعل لهيبها ، ويندلع شرها ضد أعداء البلاد .
- انظر ! لقد حدثت أمور لم تحدث منذ زمن بعيد مضى ، إذ اختطف الفقراء الملك .
- انظر ! إن الذى دفن كصقر أصبح يرقد على نعش ، وما خبأة الأهرام قد أصبح خلوا .
- انظر ! لقد تجاسر بعض الخوارج فحرموا البلاد الملكية .
- انظر ! لقد آل الأمر أن يظهر الناس العداء للصل (حامى) رع الذى جعل الأرضين فى سلام .

- انظر ! إن سر الأرض الذى لا يعرف أحد حدوده قد أفشى ، وأصبح مقر الملك على عقب فى لحظة .
- انظر ! إن مصر قد أصبحت تصب الماء ، ومن يصب الماء على الأرض ... وقد قبض على الرجل القوى ، وهو فى بؤس .
- انظر ! إن الحية « كرحت » قد أخذت من وكرها ، وبذلك أفشى سر ملوك الوجه القبلى والبحرى .
- انظر ! إن مقر الملك خائف لاحتياجه ، وال ... وسيحدث الاضطراب وليست هناك مقاومة .
- انظر ! إن الأرض ملأى بالعصابات ، والرجل القوى يغتصب التعساء متاعه .
- انظر ! إن الحية « كرحت » ... المتعبين ، ومن لم يكن فى مقدوره أن يصنع لنفسه تابوتا يملك قبرا .
- انظر ! إن أرباب المقابر « المكان الطاهر » قد ألقى بهم على قارعة الطريق ، وذلك الذى لم يكن فى مقدوره أن يصنع لنفسه كفنا ، أصبح الآن صاحب ثروة .
- انظر ! لقد حدث هذا بين الناس ، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة ، أصبح الآن يملك فناء مسورا .
- انظر ! إن قضاة البلد قد طردوا فى طول الأرض ... طردوا من بيوت الملوك .
- انظر ! إن العقيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن ، والأمراء ينامون فى المخزن ، ومن لم يكن ميسورا له أن ينام على الجدران ، أصبح صاحب سرير .
- انظر ! إن الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن ، ومن كان يستجدى منه الخثالة أصبح يملك الجعة القوية .
- انظر ! إن أولئك الذين كانوا يملكون الملابس أصبحوا فى خرق بالية ، ومن كان لا ينسج لنفسه أصبح الآن يملك الكتان الجميل .

- انظر ! إن الذى لم يبن قط لنفسه قاربا أصبح الآن يملك سفنا ، وأصبح صاحبها ينظر إليها ، ولكنها لم تعد ملكه بعد .
- انظر ! إن الذى لم يكن يملك ما يظله من حرارة الشمس أصبح يملك ظلا ، وهؤلاء الذين يملكون ما يأويهم أصبحوا الآن عرضة لزعازع العاصفة .
- انظر ! إن من كان يجهل الضرب على العود أصبح يملك عودا ، ومن كان لا يغنى له أحد أصبح الآن يثنى على إلهة الغناء .
- انظر ! إن الذين كانوا يملكون موائد شراب من النحاس أصبح لا يحلى إناء واحد لفرد منهم .
- انظر ! إن من قد نام أعزبًا بسبب الحاجة الآن يجد السيدات ...
- انظر ! إن من كان لا يملك شيئا أصبح ذا ثروة ، أصبح الرجل العظيم يمدحه .
- انظر ! إن فقراء الأرض أصبحوا أغنياء ، ومن كان يملك متاعا أصبح لا شئ عنده .
- انظر ! إن الذين ... أصبح لهم طائفة من الخدم ، ومن كان رسولا أصبح يرسل غيره .
- انظر ! إن من كان لا يملك الخبز أصبح يملك جرينا ، وما يملأ به مخزنه هو متاع غيره .
- انظر ! إن الأصلع الذى كان لا يستعمل الزيت أصبح يملك أوانى العطور الزكية .
- انظر ! إن من كانت لا تملك صندوقا أصبحت تملك صوانا ، وتلك التى كانت تشاهد وجهها فى الماء أصبحت تملك مرآة .
- .....
- انظر ! إن الرجل الذى يصبح سعيدا حينما يأكل طعامه ، أنفق مالك دون أن تغل يدك ! فإنه خير للرجل أن يأكل طعامه ، فإن الله يمنحه من يمدحه .
- انظر ! إن من كان يجهل إلهه أصبح يقدم له قربانا من بخور آخر ...
- انظر ! إن السيدات النبيلات والسيدات العظيمات اللائى كن يملكن متاعا حسنا أصبحن يقدمن من أولادهن إلى الأسرة .
- انظر ! إن من اتخذ سيدة زوجة أصبح والدها يحميه .

– انظر ! إن أولاد رجال البلاط أصبحوا فى خرق بالية... وماشيتهم صارت متاع الناهبين.

– انظر ! إن القصابين يذبحون الماشية للفقراء .

– انظر ! إن من لم يذبح لنفسه قط أصبح الآن يذبح ثيرانا .

– انظر ! إن القصابين يذبحون الإوز الذى يقدم للإله بدلا من الثيران .

– انظر ! إن الجوارى ... يقدمن الإوز ... السيدات ...

– انظر ! إن السيدات الشريفات يهربن ... وأطفالهن ، ويلقى بأطفالهن خوفا من الموت .

– انظر !إن رؤساء البلاد يهرولون دون أن يكون لهم أى عمل بسبب الحاجة .

– انظر ! إن الذين كانوا يملكون الأسرة أصبحوا يرقدون على الأرض ، وذلك الذى كان ينام فى الأوساخ أصبح يملك سريرا .

– انظر ! إن السيدات الشريفات قد أصبحن جائعات ، ولكن القصابين أصبحوا فى كظة متخمين من الشبع بما يعملونه .

– انظر ! فإن الوظائف ليست فى موضعها الصحيح مثل القطيع المذعور الذى لا راعى له .

– انظر ! إن الماشية تركت تضل سبيلها ولا إنسان يجمعها ويلم شعثها ، فكل إنسان يذهب ويأخذ لنفسه منها ويسمها باسمه « أى يعلمها بعلامته » .

– انظر ! إن الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجى نفسه .

– انظر ! إن من كان يملك زوج ثيران أصبح يملك أزواجا ، ومن لم يكن فى مقدوره أن يحصل على ثيران أصبح يملك قطعانا .

– انظر ! إن الذى لم يكن يملك حبة أصبح الآن يملك أجرانا ، ومن كان يبحث لنفسه عن صدقات من القمح أصبح الآن يخرج من مخازنه ويجعلها توزع .

– انظر ! إن من كان لا يملك أتباعا أصبح رب عبيد ، ومن كان من علية القوم أصبح الآن ينفذ أوامر غيره .

– انظر ! إن عظماء الأرض أصبحوا ولا أحد يخبرهم عن حالة عامة الشعب ، وكل شئ آيل للخراب .

– انظر ! لا صانع يعمل ، والعدو ، يحرم البلاد حرفها .

– انظر ! إن من حصد المحصول لا يعرف عنه شيئا ، ومن لا يحرث لنفسه يملأ مخزنه ... وإن الحصاد يحرث ، ولكن لم يذكر عنه شئ ، والكاتب يجلس فى مكتبه ولكن يديه لا تعملان شيئا ...

(الشعر الثالث والرابع)

بعض أبيات ناقصة وممزقة كل منها يبتدئ بكلمة « مدمّر » وفى الفقرة التى قبل الآخر يمكن أن تفهم ما يأتى :

– الرجل الفقير يستيقظ عندما ينبثق نور النهار عليه دون أن يخافه ، وإنها لخيام قد صنعوها مثل المتوحشين .

– (والبيت الأخير) : لقد أتلف تنفيذ ما أرسل من أجله الخدم بأمر من أسيادهم ، فإنهم أصبحوا غير وجلين .

– انظر ! إنهم كانوا خمسة رجال ، وهم يقولون : اذهبوا أنتم على الطريق الذى تعرفونه ، أما نحن فقد وصلنا ...

(وتتبع ذلك فقرة منفردة)

– إن الدلتا تبكى ومخزن الملك أصبح ملكا مشاعا لكل فرد ، ولا ضرائب تجبى للقصر كله، ومع ذلك فإن له قانونا شعيرا وقمحا ودجاجا وسمكا ، يملك المنسوج الأبيض والتيل الجميل والنحاس والزيت ، ويملك الحصير والبسط ... ومحفة ، وكل المحاصيل الجميلة... فإذا لم يعلن ذلك إلى الآن فى القصر فحينئذ ...

(أما الشعر الرابع الذى لم يبق منه إلا نتف فإن ستة الأبيات التى يحتويها يبتدئ كل منها : دمر أعداء المقر الملكى العظيم ، (ومن ذلك يستنتج أنه يحتوى بلا شك على الأمر بمقاومتهم)

وقد نعت هنا مقر الملك بصفات مثل صاحب الموظفين المتفوقين ، وصاحب القوانين العدة ، وصاحب الوظائف العدة ، وفى البيت الأول يمكن قراءة الكلمات الآتية : المشرف على العاصمة . يخرج بدون شرطة .

(الشعر الخامس)

نجد فيه ثمانية أبيات أو أكثر تبتدئ بكلمة « تذكر » وهى خاصة بعبادة الآلهة وكيف كانت تعبد فى ما مضى وما سيئول إليه أمرها فى المستقبل . وكل ما يمكن أن يقال عن البيت الأول أنه يذكر فردا فى ألم ، ويذكر كذلك إلهه .

– تذكر ! ... كيف يضمخ البخور ، والماء يقدم من إبريق فى فلق الصبح .

– تذكر ! كيف تجلب الأوز سمينة ، ويقرب الأوز والبط والقرابين .

– تذكر ! كيف كان يمضغ النطرون ، ويجهز الخبز الأبيض فى اليوم الذى يبلل فيه الرأس .

– تذكر ! كيف كانت تنصب الأعلام ، وتنقش ألواح القربان ، وكيف كان الكهنة يطهرون المعابد ، ويبيض بيت الله كاللبن ، وكيف كان يعطر الأفق ، ويخلد القربان من الخبز .

– تذكر ! كيف كانت ترعى الأنظمة وتوزع أيام الشهر ، ويعزل الكهنة الأشرار .

– تذكر ! كيف كانت الثيران تذبح ...

والأبيات الختامية الممزقة نقرأ من بين ما جاء فيها :

– وضعت الإوز على النار ...

يتلو ذلك فقرة طويلة فيها يخاطب الحكيم نفسه أولا ثم أشخاصا كثيرين ، ولم يفهم مما حفظ إلا :

– انظر ! أين يبحث هو ليسوى البشر؟ دون أن يميز الرجل الخجول من الرجل الأحمق هو يجلب البرودة إلى اللهيب ، ويقال عنه إنه راعى الإنسانية لا يحمل فى قلبه شرا ، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فإنه يصرف يومه فى جمع بعضها على بعض وقلوبها محمومة « من

الحزن» ، وليته عرف أخلاقها فى الجيل الأول فعندئذ كان فى مقدوره أن يضرب الشر ، وكان فى قدرته أن يمد ذراعه ، وكان فى مقدوره أن يقضى على بذرهم هناك وعلى وراثتهم ، فأين هو اليوم ؟ هل هو بطريق الصدفة ينام ؟

– انظر ! إن بأسه لا يرى

إذ عندما نلقى فى الحزن فإنى لم أجدك ، ولم أناد ...

(وبعدها عدة فجوات طويلة ثم يصير المتن ثانيا مفهوما)

– إن القيادة والفطنة والصدق معك ، غير أن ما تبثه فى طول البلاد هو الفوضى وغوغاء الذين يتخاصمون .

– انظر ! إن الفرد يرى الآخر ... وإذا سافر ثلاثة رجال على طريق واحد فلا يوجد منهم إلا اثنان ، إذ أن العدد الأكبر يذبح العدد الأصغر ، أيوجد راع يحب الموت ؟ ولكنك ستأمر أن تجاب ... فالأكاذيب تتلى عليك ، والبلاد قش ملتهب ، والناس لا يعتمدون على الشجار ، وكل هذه الأعوام ارتباك ، فالرجل يقتل على سطح بيته حينما يكون مراقبا فى حدود منزله ، ولكن إذا كان قويا فإنه ينجى نفسه ويبقى حيا ، والناس يرسلون خادما لرجل فقير فيمشى على الطريق حتى يرى الفيضان (ثم يسرق هناك) فيقف مبتئسا ، ويسرق ما عليه ثم يضرب بالعصا إلى أن ينقطع منه النفس ويذبح ظلما ، ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك وعندئذ يمكنك أن تقول ...

(الشعر السادس)

« وهو وصف للوقت السعيد الذى يحفظه المستقبل »

– على أنه من الخير عندما تسير المراكب جنوبا ...

– .....

– على أنه من الخير أن تنصب الشباك وتمسك الطيور ...

– .....

– على أنه من الخير أن تشيد أيدى الناس الأهرام ، وتحفر البرك ، وتنشئ للألهة مزارع فيها أشجار .

– على أنه من الخير أن يكون الناس سكارى ، وأن يشربوا ... فرحى القلب .

– على أنه من الخير أن يكون السرور فى أفواه القوم ، وحكام المراكز يقفون وينظرون إلى الأفراح فى بيوتهم وهم مرتدون جميل الملابس ...

– على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة ، ووسادات العظماء محمية بالتعاويذ ، ورغبة كل إنسان تحقق بسرير مظلل خلف باب مغلق ، فلا يحتاج إلى النوم فى الأعشاب .

– على أنه من الخير عندما ينشر الكتان الجميل فى يوم لرأس السنة .

(وبعد عدة فجوات فى ورقة البردى يأتى فقرة لا بد أنها كانت تحتوى على جواب الملك الذى يجيب عليه الحكيم بعد ذلك ، وفيما حفظ من هذه الفقرة يظهر أن ذكر « المقترعين » قد جاء ، وأن الشباب قد ثار ، وهاجم مصر كالأجانب ، ثم أراد أهل الجنوب أن يأخذوا بناصر مصر التى هى بمثابة الأخ والأخت) .

– ... ولا يوجد أحد يقف لحمايتها ... وإذا كان أى إنسان يحارب من أجل أخته فإنه يحمى نفسه .

– ... والسود يقولون : سنكون حامين لكم ، دع القتال يعظم ليقهر شعب القوس ، وإذا كان فيهم « تمحو » فعندئذ نعيد الكرة .

– وقوم المتاو المصادقون لمصر يقولون : كيف يمكن أن يكون هناك رجل يريد أن يقتل أخاه؟

– والجنود الذين نجندهم لنا أصبحوا من شعب القوس الذين أرادوا أن يدمروا المكان الذى نبعوا منه ، وهم يظهرون للبدو حالة البلاد ، غير أن كل البلاد الأجنبية خائفة منهم ...

(وبعد فجوة طويلة)

- ... يقول المقترعون .....

(باقى البردية مهشم)

وهذا ما قاله « إبور » عندما أجاب جلالة رب العالمين ... على أن تكون جاهلا بـه ، فإن ذلك أمر يسر القلب ، ولقد عملت ما هو صالح فى قلوبهم ، وقد جعلت الشعب يحيا بينهم ، غير أنهم لا يزالون يسترون وجوههم خوفا من الغد .

- واتفق أن وقف مرة رجل مسن أمام الموت ، وكان ابنه لا يزال طفلا لا إدراك له ... ولم يفتح بعد فاه ليتكلم إليك ، وقد اختطفته بموت محتوم ...

(وهناك كلمات منفردة لا تزال موجودة تدل على أن الموضوع الذى تحت البحث كان مستمرا فى سرد حال البلاد : البكاء ، واقتحام مقاصير القبور ، وإحراق التماثيل)

- هذا هو نص البردية المشهورة التى تسمى « بردية إبور » وهى تحمل رقم ٣٤٤ فى متحف « لايدن » بهولندا ، وقد اقتبسنا النص من « الأدب المصرى القديم - أدب الفراعنة - سليم حسن » .

ولكن لبحث هذا الموضوع بحثا علميا لن نقتصر على هذا سنقوم أيضا بمقارنة هذه الترجمة بترجمة أخرى[٢٤] من : « نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة - عن الترجمة الفرنسية بقلم - كلير لالويت » .

بادئ ذى بدء نود أن نشير هنا إلى نقطة هامة جدا وهو أن هذه البردية - بردية إيبو ور - تنتمى إلى الأسرة التاسعة عشر ، بمعنى أن مدونها - إيبو ور - قد عاش إبان هذه الأسرة ، ورغم ذلك يحلو لكثير من الباحثين رد موضوعها إلى أحداث حصلت فى الدولة الوسطى ، ويزعمون كل هذا بلا دليل علمى مقنع ، مما يشير بلا شك إلى نوايا غير علمية ، بل إنهم لم يقفوا عند هذا الحد فنرى البعض منهم يرد مضمون تلك البردية وبرديات أخرى إلى عهد سابق على ذلك بكثير وهو نهاية الدولة القديمة ، بل يفترضون قيام ثورة بعد هذا العهد الأخير وهو ما تلى عصر بناة الأهرام ، ويحاولون أن يقحموا مضمون البردية عليه ،

ومرة ثانية بلا أدنى علمية ، مما يصمهم فى هذا الصدد بأبخس الصفات وأقذع النعوت ، ووصل الأمر إلى حد من الوقاحة لا يحتمل حينما ادعى اليهودى« فلايكوفسكى » أن هذه البردية تصف رحلة خروج اليهود من مصر مع النبى موسى ، رغم عدم تشابه أى لفظة من تلك الوثيقة مع أحداث الخروج . ولكننا توخيا للحقيقة العلمية لن يصدنا عن مرادنا أى من تلك المزاعم غير العلمية ، بل إننا ببحثنا لهذه البردية بتقديم كل ما هو علمى وموضوعى سنكشف عن سوء نيتهم .

- وهذه الوثيقة تحمل رقم ٣٤٤ ضمن كنوز متحف « لايدن » فى هولندا وتعرف باسم « ورقة لايدن » ، وقد ضاع أولها وهشم أخرها ، وبها فجوات كثيرة فى وسطها كما لاحظنا فى النص ، ومواضع هذا التهشيم تشير بكل وضوح إلى اليد الخفية التى لعبت دورها الخبيث فى محاولة القضاء على الحقيقة ، ولما كان موضوع البردية ليس من الخطورة بمكان بالنسبة للأزمنة الفرعونية التى تلت هذا العهد ، فلا يبقى إلا أن يكون هذا التهشيم قد حدث فى عصور لاحقة للعصور الفرعونية ، بل قد يشير ذلك إلى يد حديثة ممن تعاملوا مع الوثيقة . ورغم هذا التهشيم فإن موضوع البردية واضح وضوح الشمس على عكس ما يدعى من قبل العلماء المحدثين من أنها بوضعها الحالى يصعب الاهتداء إلى موضوعها ، بل وصموها بأنها ورقة تعليمية ، وبقى الحال كذلك إلى أن طالعنا الاستاذ « لنجة » الأثرى الدنماركى فى عام ١٩٠٣ بمقال يريد به أن يكشف عن موضوعها الحقيقى – من وجهة نظرة الشخصية طبعا – إذ قال بأنها تنبؤات حكيم مصرى ، بالله عليك عزيزى القارئ ! ألم تلاحظ مقدار بعد هذه الوثيقة ، حتى بحالتها الراهنة عن أن تكون مجرد تنبؤات ؟! ولا حتى مرثية كما وصفها وصنفها آخرون .

- ومضمون البردية يشير بكل وضوح إلى حال من الفوضى ناجمة عن نزاع بين فريقين ، أحدهما الملك وأتباعه ، والآخر هو نوع من المعارضة الشديدة القوية التى لا بد وأن يكون الجيش نفسه مشاركا فيه (شعب القوس) ، وإلا لتم قمعها بسهولة لو أن الجيش فى صف الملك ، وقد أسفرت تلك الأحداث عن حدث جلل ، ألا وهو خطف أو اختفاء الملك نفسه ، وتدمير المقر الملكى والمؤسسات الملكية والدينية التى كانت فى مدينة معينة ، وبالطبع تم تهشيم اسم الملك فى البردية الأصلية والموضع الذى كان يشير إلى اسم المدينة.

- والملاحظ على كاتب البردية أنه يميل إلى مؤازرة الملك وصحبه ، رغم تفوق الجانب الآخر ، ويتعاطف معه لما يتوافر لهذا الفريق من أخلاقيات ومبادئ ، بل إنه يتمنى لو عاش فى تلك الأونة .

« .. وليت فى مقدورى أن أرفع صوتى فى هذه الآونة حتى كان يخلصنى من الألم الذى أنا فيه الأن » ، كما توثقه عبارات الكاتب نفسه .

- ولننظر إلى قوله « فإن » إلفنتين وطينة « « وهما من ممتلكات الوجه القبلى » أصبحتا لا تؤديان الضرائب بسبب الحروب الداخلية » ، ألا يشير هذا القول بكل الوضوح إلى أن ذلك الحدث إنما حصل فى حكم الملك إخناتون ، حينما اعتزل بدولته ودعوته فى أخت آتون مما دعى الكهنة إلى إثاره الشعب ضده ، والطبيعى أن يحث الكهنة الشعب على العصيان الجماعى بل ويقنعوهم بعدم التعاون أو دفع الضرائب .

وأما القول : « ولا شك فى أن قلب الملك يسر عندما يقف على الحقيقة « الماعت » ، التى دخلت كل مملكة أجنبية ، وهذا ماؤنا وهذه سعادتنا » أليست الحقيقة هذه هى صلب دعوة الملك التى أسماها « المعت » وهو العائش فى « المعت » . ألا يدل هذا القول على أن دعوته كانت قد انتشرت فى خارج مصر انتشارا كبيرا .

- والقول « حقا فإن الأموات أصبحوا مثل الأحياء ، ومن كانوا مصريين أصبحوا أجانب » أليست هذه إشارة أن الملك وأتباعه أجبروا على أن يغادروا البلاد فى أعقاب هذه الأزمة ؟ لأنهم لم يعد معترف بهم كمواطنين مصريين بعد خسارتهم فى هذه المواجهة .

- وفى المقطع التى يبدأ بـ« تذكّر » لا نجد فيه ، فى حقيقة الأمر ، سوى وصف للعبادة الإخناتونية ، ونوع الأضاحى التى كانت تقدم للإله آتون من إوز وبط وخبز وزهور .. إلخ ، وانظر إلى هذه الفقرة فى وصف الملك « ..ويقال عنه إنه راعى الإنسانية ولا يحمل فى قلبه شرا » وصفات مثل : صاحب الموظفين المتفوقين وصاحب القوانين العدة ، وصاحب الوظائف العدة ، إشارة واضحة المعالم إلى الملك والداعية إخناتون .

ولمزيد من التوضيح لمحتويات الوثيقة نعرض لها فى النقاط التالية :

- الحزب الذى وقع الهجوم عليه هو الملكية وعلى رأسها الملك والبيت الملكى والأمراء والسيدات والحريم وكهنة الديانة وجميع دواوين الحكومة وموظفيها . أما السود فيقولون « سنكون حامين لكم ، دع القتال يعظم ليقهر شعب القوس » ، وأما الـ« متاو » أصدقاء مصر فيقولون « كيف يمكن أن يكون هناك رجل يريد أن يقتل أخاه » .

- الحزب المهاجم : صائدوا الطيور وهم حاملوا الأقواس والنبال وما تواجد من سلاح ، وآخرون من الدلتا يحملون الدروع ، والعصابات التى تعمل فى النور وفى الظل ، والمجرمون والناهبون والخوارج وكلهم كان يحارب وكأنه يحارب أجانب . لقد أتلف تنفيذ ما أرسل من أجله الخدم بأمر من أسيادهم ، فإنهم أصبحوا غير خائفين والمقترعين جاءوا والشباب ثار ، حتى أصحاب أهدأ الحرف كبائعى الحلوى والجعة .

- أما عن المعركة نفسها : فقد بدأت بإشعال النار فى المدينة كلها ؛ « إن النار قد اشتعل لهيبها عاليا » ، والبوابات والعمد والجدران قد التهمتها النيران ، وهجم المهاجمون فصار الدم فى كل مكان ، ومن كان يهرب من النار لا يجد له مهربا سوى أن يرمى بنفسه فى النهر ، والنهر ليس بعيدا بل على بعد خطوات فى شرقى المدينة « أخت آتون » وخربت المنازل والتدمير اقتلع الأسرة الملكية من الجذور كما يقتلع نبات الكتان فلا يبقى منه أى أثر فى التربة ، والأطفال الذين كانوا محبوبين قد ألقى بهم على قارعة الطريق ، وقد عمت الوقاحة عند كل الناس ، فلم يعودوا يوقرون الملك وعائلته ، وذبح الموظفون وسلبت قوائمهم ، واستبيحت حرمة المعابد وتجاسر الجهلاء على الإله ، « إذا عرفت أين يوجد الإله فإنى أقدم له قربانا » ، وهذا دليل قطعى الدلالة على أن الديانة المعنية هنا هى ديانة إخناتون التوحيدية والإله المعنى هنا هو الإله آتون الذى ليس له صور أو تماثيل ، وارتفع البكاء والعويل واقتحمت المقاصير وأحرقت التماثيل .

- وكل هذا قد حدث بسبب ظهور عبادة جديدة توحيدية ، وعزل الكهنة القدامى الأشرار، وساوى الملك بين كل الناس ، وزرع فى قلوبهم الحب ونزع منهم الحقد ، لأنه

راعى الإنسانية ولا يحمل فى قلبه شرا ، والقيادة الحكيمة والفطنة والصدق « معت » مع هذا الملك ، الذى يلام من كاتب البردية : « وكان فى مقدوره – أى الملك – أن يقضى على بذرهم هنا وعلى ورثتهم » فى فترة سابقة ولكنه لم يفعل لأنه المؤمن بالسلام والداعى له ، ونابذ الحرب والقتل ، أول داعية إلى السلام العالمى والسلام الدائم والسلام الحق فى تاريخ البشرية على الإطلاق – ذلك هو الملك إخناتون .

القراءة الصحيحة للتاريخ

وضح من نص البردية المفترى عليها « بردية إيبو ور » أنه فى موسم الربيع من العام السابع عشر على الأكثر من حكم الملك والداعية إخناتون ، وبعد زيارة الملكة الأم « تى » لمدينة التوحيد أخت آتون ، والتى قلنا إنها غادرت العاصمة القديمة « طيبة » فى العام الثانى عشر على الأرجح وبعد وفاة زوجها الملك العجوز أمنحتب الثالث النمروذ ، قد حدثت حوادث جسام بعدها بأربع سنوات :

فقد غادرت الملكة وحاشيتها « طيبة » فيما يبدو بناء على طلب الكهنة ويعاونهم الجيش وقائده المرتد – حور م حاب « حور محب » ، وهى تحمل الرسالة شديدة اللهجة إلى الفرعون إخناتون الذى صبأ بعبادتهم ودعا إلى دين جديد ، مؤدى تلك الرسالة كما يفهم من سير الأحداث المنطقى أن يراجع الملك نفسه فيما دعا إليه من الخروج على عبادة آلهة الآباء والأجداد ، وأن يراجع نفسه مرة ثانية سياسيا حيث أنه أقام دولة دينية تدعو إلى السلام داخل دولة سياسية فى مصر كانت تعيش على الغزو ، وشطر الشعب شطرين فى داخل البلد الواحد ، مما أدى فى نظرهم طبعا إلى إضعاف الدولة داخليا وخارجيا .

وربما هؤلاء الكهنة وقائد الجيش قد أرسلوا إلى أخت آتون أول إنذار تهديدى ، لاسيما أن الملكة « تى » لم تستطع أن تقنع ابنها بالعدول عن خطه الجديد ، بل على العكس من ذلك اعتنقت هى الأخرى ديانته كما رأينا فى وصف مراسم الاحتفال الدينية التى تمت فى معابد مدينة التوحيد عقب دخولها المدينة ، فلم يتلقوا ردًا على إنذارهم هذا ، مما جعلهم يضعون الخطط الجادة للتخلص من هذه الدويلة الفتية ، والغريبة بالنسبة لهم فى مكانها وزمانها وتعاليمها .

بعد دراسة الخطة وتعبئة وتجنيد الجنود والمتطوعين حانت ساعة الصفر:

زحفت القوات من طيبة برا وبحرا إلى أن وصلت حدود المدينة المقدسة التى لا يسمح لقدم كافر أن تطأها وحاصرت المدينة ... امتد هذا الحصار لمدة ليست بالقصيرة دارت فيها

مداولات ومحاولات لفك هذا الحصار ، ومحاولة التوصل إلى نتيجة مرضية لكلا الطرفين ، ونستطيع أن نتخيل حياة هذه المدينة المقدسة فى تلك الآونة فالكل يتجه إلى الله الواحد الأحد بالدعاء أن يفرج هذه الغمة ويهزم الأحزاب الذين وقفوا بباب المدينة وكلهم غل وحقد وكراهية لمن بداخلها ، بينما معابد المدينة تزار ليل نهار تعلو منها الابتهالات والترنيمات التى يكتبها الملك ونبى الديانة بنفسه تتصاعد إلى عنان السماء راجين من الله أن يشد أزرهم ويفك الحصار ويدحر قوات البغى والكفر ، وكلما علت الموسيقى والابتهالات ، كلما استشاط المعتدون الوثنيون .

فلما لم يستجب دعاة الله الواحد لنداء القوات المحاصرة صدرت الأوامر فى موسم الفيضان فى السنة السابعة عشر من حكم الملك على الأرجح :

دمّـــــرْ !

فأضرموا النار فى المدينة ، فاشتعلت النيران فى القصر الملكى والمنشآت الملكية وكل منشآت المدينة بسرعة لاسيما أن هذه المنشآت كلها كانت من الطوب اللبن ، وكميات الخشب المستخدمة فى عرشها وعتباتها وأبوابها ساعدت على سرعة انتشار النيران هنا وهناك ، وزاد النار اشتعالا وانتشارا حرارة الشمس الصيفية فى هذا الموسم من السنة .

فتعالى الصراخ من كل مكان وفر الناس من البيوت هربا من النار ، واصطف صيادوا العصافير فأعملوا فى الهاربين من النار ضربا بالنبال والسهام فسالت الدماء فى كل مكان ، فلاذ الفارون صوب النهر فصيدوا بالسهام على الفور فصار النهر دما ، انظروا ! إن مدينة الرب تسلب والبلاد باتت مقفرة ، وأخذت يد السلب والنهب تعمل فى المدينة ، فسلبت ونهبت قصور الملك وقصور الحاشية ورجال الدولة ودار المحفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها ، ومكان الأسرار « مقر الملك » جرد من محتوياته ، واختفت السجلات ودفاتر الموظفين وخزين المدينة من الحبوب ، وعطل القانون ، والموت لا ينحسر .

وتم حصار القصر الملكى لمدة تسع ساعات كاملة ، لإرغام الملك على الاستسلام ، ولكن وفى جنح الظلام تسلل الملك إلى النهر ودارت معركة غير متكافئة مع قائد الجيش

« حور محب » لتكون النتيجة أن ألقى الملك بنفسه فى دوامات المياه فى نهر النيل واختفى ، ربما كان ذلك مدعاة للبعض أن ظنوا أن الملك قد اختطف .

لقد انحدر الناس من أسفل سافلين حتى أن عددا غير محدود من الناس الفقراء الـذين فقدوا رشدهم اختطفوا الملك وحرموا الناس الملكية ، لقد استبعد السـادة المقدسـون فى المكان الظاهر آخت آتون إلى بعيد والآخرون استولوا على الخزانة ، وأصـبح كـل شـئ خرابا .

وسواء أكان اختفاء الملك بفعل فاعل مختطف أو أن أتباع الملك وحراسه قد اختفوا به من المكان ، فإن النتيجة المخزنة هى خراب مدينة الرب ودولته .

ترنيمات ودموع

نقول فى غضون الأزمة والمدينة الدولة محاصرة حصارا تاما لم يكن هناك مخرج منها سوى التوجه إلى الله ليدحر الغزاة والمشعلين للفتنة والثائرين على مليكهم ، ولا سيما أن تعاليم الملك والداعية برنامجها الرئيسى هو السلام وإفشاء السلام ونبذ العنف .

ومما لا شك فيه أن هذا الموقف العصيب قد ألهم الملك لإنشاد ترنيمات جديدة حماسية تمس شغاف القلوب من المؤمنين به من حوله ، فإذا كان نشيد الملك الكبير والصغير فى تنزيه الله ووحدانيته ، فإن الموقف الآن يحتاج إلى أكثر من ذلك ، ألا وهو طلب النجدة من الواحد الأحد بأن ينقذهم .

وإذا كان الباحثون فى الديانة الإخناتونية قد أثبتوا بالفعل تشابها يصل إلى حد التطابق بين نشيد إخناتون الكبير وبين المزمور المائة وأربع من مزامير النبى داود والمسجل فى كتاب العهد القديم من التوراة ، فإننا هنا وفى هذا المقام وهذه اللحظة الحاسمة من تاريخ دولة العمارنة لا نجد لها ترجمة تعبر عن هذا الموقف خير مما عبر به فى مزامير أخرى كثيرة من مزامير داود نفسها . لدرجة نقول معها إن معظم المزامير هى من تأليف إخناتون نفسه ، ولكى نؤسس لهذا الفرض دعونا نبحث مثالا حيا من المزامير الكثيرة التى تصور لنا هذا الموقف فى مدينة آخت آتون أثناء الحصار :

المزمور الثالث والعشرون : « الرب راعَىّ فلا يعوزنى شئ . فى مراع خضر يربضنى . إلى مياه الراحة يوردنى . يرد نفسى . يهدينى إلى سبل البر من أجل اسمه . أيضا إذا سرت فى وادى ظل الموت لا أخاف شرا لأنك أنت معى . عصاك وعكازك هما يعزيانى. ترتب قدامى مائدة تجاه مضايقّى . مسحت بالدهن رأسى . كأسى ريا . إنما خير ورحمة يتبعانى كل أيام حياتى وأسكن فى بيت الرب إلى مدى الأيام »[٢٥] .

فإذا كان هذا المزمور ليس فيه اللهجة الصريحة التى تتفق مع الموقف الذى نحن بصدده، فلا شك أن موضوع هذا المزمور قد سبق هذا الموقف ، ولكنا نشير هنا إلى الجملة الأخيرة منه والتى تذكر أمنية مؤلفة بسكن مدينة الرب « ربما المقصود بها هنا آخت آتون » إلى مدى

الأيام ، وقد يقول قائل ، هذه الصورة والحديث عن مدينة الرب قد يرد عند شعراء دينيين كثيرين فهل نرجع كل هذه المؤلفات إلى إخناتون ؟ بالطبع لا ، هذه الإشارة إلى مدينة الرب فى فترة ، سيتلوها كلام جديد فى مزامير أخرى عن مدينة محصنة ، ولم يعد مصطلح مدينة الرب ليتفق مع الواقع ، وهذا سنشير إليه فى حينه فى حياة إخناتون بعد ذلك ، بعدما استقر وتعلم من الموقف وحصن مدينته فى مكان آخر خارج مصر ، من هنا كانت أهمية المزمور الذى بين أيدينا . وقبل أن نعرض لمزمور آخر نستلهم فيه روح اللحظة العصيبة فى حياة إخناتون أثناء الحصار ، أود أن أعرض لمزمور عجيب هو المزمور الثمانون والذى وردت فيه هذه الفقرة ، فلنقرأها مرات ومرات :

« ٨ كرمة من مصر نقلْتَ * ٩ طردت أمما وغرستها * ١٠ هيأت قدامها فأصلت أصولها فملأت الأرض * ١١ غطى الجبال ظلها وأغصانها أرز الله * ١٢ مدت قضبانها إلى البحر وإلى النهر فروعها * ١٣ فلماذا هدمت جدرانها فيقطفها كل عابرى طريق * ١٤ يفسدها الخنزير من الوعر * ١٥ ويرعاها وحش البرية » ، لاحظ أن أصل الكرمة التى يتكلم عنها المزمور من مصر !![٢٦] .

والمزمور التالى يصف الأزمة الحقيقية والموقف العصيب :

« ١ أنقذنى يا رب من أهل الشر ، من رجل الظلم احفظنى ٢ الذين يتفكرون بشرور فى قلوبهم ، اليوم كله يجتمعون للقتال ، ٣ سنوا ألسنتهم كحية حمة الأفعوان تحت شفاههم. سلاه . ٤ احفظنى يا رب من يدى الشرير ، من رجل الظلم انقذنى ، الذين تفكروا فى تعثير خطواتى ، ٥ أخفى لى المستكبرون فخا وحبالا ، مدوا شبكة بجانب الطريق ، وضعوا لى أشراكا . ٦ قلت للرب أنت ألهى ، اصغ يا رب إلى صوت تضرعاتى ٧ يا رب السيد قوة خلاصى ، ظللت رأسى فى يوم القتال ، ٨ لا تعط يا رب شهوات الشرير ، لا تنجح مقاصده ، يترفعون . سلاه . ٩ أما رؤوس المحيطين بى فشقاء شفاههم يغطيهم . ١٠ ليسقط عليهم جمر ليسقطوا فى النار وفى غمرات فلا يقوموا . ١١ رجل لسان لا يثبت فى الأرض ، رجل الظلم يصيده الشر إلى هلاكه . ١٢ قد علمت أن الرب يجرى حكما للمساكين وحقا للبائسين . ١٣ إنما الصديقون يحمدون اسمك . المستقيمون يجلسون فى حضرتك »[٢٧] .

ومزامير أخرى كثيرة ، وقد يحتج محتج على ذلك بأن هذه النصوص قد صنعها داود وليس إخناتون ، ونحن نقول : إن الصورة التى صور بها داود فى التاريخ الدينى وهو ذلك الرجل الخرافى الذى يقتل الجبارين وعلى رأسهم العملاق الفلسطينى جوليات لا تنطبق ولا واحد فى المائة مع الصورة التى تصورها المزامير ، بل إن المزامير التى تصوره مختبئًا فى مغارة ليس لها أى سياق منطقى مع حياة داود الحقيقية .

نحن لا ننكر أن داود غنى هذه الأناشيد بصفته مغنيا ومبتهلا ولكن تأليفها يتطلب أن يكون مؤلفها منفعلا حقيقيا بما يكتب وفى موقف يستدعى هذا الانفعال وتلك العاطفة ، وحياة داود لا تعطينا ضوءا يشير إلى هذا ، حتى المواقف التى حشر فيها بعض المزامير للدلالة على نسبتها له فى سفر صموئيل لا تعطينا بالضرورة دليلا على صحة ما يقولون .

بقى أن نقول إن تشابه النشيد الكبير مع المزمور ١٠٤ والأناشيد التى دللنا على ضعف نسبة تأليفها إلى داود وغيرها كثيرة ، إنما تلقى لنا أولا : بضوء على حياة إخناتون وتطور حياته مع الوحدانية والنبوة وثانيا وبنفس القدر توضح لنا الصلة الوثيقة بين داود وإخناتون ليس فقط كأنبياء وإنما أيضا كواحد من النسل .وهذا ليس عيبا فرسالات الأنبياء متشابهة كثيرا فى المضمون لدرجة التطابق فى أغلب الأحيان ، وهذا يدل على المصدر الواحد وهو والله . فما بالنا لو استدعى واحد منهم ما غنى وأنشد الآخر ، فهذا ليس عارا ولا فضيحة .

وقد عبرت المزامير عن المواقف الحرجة فى حياة الداعية إخناتون أكثر مما عبرت عن حياة داود ، ولهذا استدعيناها هنا لمزيد من الإيضاح . هذا رغم أن بعضها أو فقرات أو صور أو أسماء منها عدلت لتتوافق مع المعطيات الجديدة عند داود . فالمزامير إخناتونية .

إخناتون لم يمت فى تل العمارنة

يجمع الباحثون فى تاريخ العمارنة على أنه لا توجد أى علامات تدل على وفاة أو دفن إخناتون فى أى مكان فى مصر ؛ فيقول سير ألان جاردنر :« كانت السحب العاصفة تتجمع منذ وقت لا بأس به حول شخص المصلح السئ الحظ ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق كيف انتهت مغامرته[٢٨] ... واستطاع بندلبرى أن يستخرج من الأرض أجزاء من صندوق الأحشاء المرمرى لإخناتون ، وهو يقرر فى صراحة أنه لم يستخدم لأنه لم تكن تلطخه بقايا المادة الراتنجية السوداء التى نراها فى المقابر الملكية الأخرى .

كما يقرر إريك هورنونج : بأن النهاية غير واضحة المعالم ولم يعلم عن تاريخ موته أو مكان دفنه الفعلى أى شئ ، اللهم أنه مات فى وقت ما فى مكان ما لأن سنة الحياة تقول الكل يموت[٢٩] وكذلك يقرر الدريد[٣٠] .

وباستثناء ذلك فلم يعثر على دليل واحد يدل على موته أو دفنه فى مصر لا هو ولا أحد من رجاله المعروفين لنا فى التاريخ ولم يعثر أيضا على مومياء أمه ولا زوجتيه ولا أحد من أسرته ، اللهم إلا ابنته الطفلة التى ماتت ودفنت فى مقابر العمارنة الأميرة ماكت آتون[٣١] .

ومن هنا فإننا نجزم بأن الملك مازال حيا فى مكان ما ... فلنتابع !

كانت نتيجة الحصار الذى ضربه الكهنة وحور محب على مدينة التوحيد آخت آتون ، وإشعال النار فيها أن مات من مات وأعطى الآخرون سيقانهم للريح ، واختفى الملك فى ظروف غامضة هو وأسرته ، ربما على عجلته التى يجرها زوج من الخيول ، وربما أن أتباعه كانوا قد رتبوا ذلك بعملية اختطاف وهمية للملك من قبل الفقراء .

فسواء كان الهروب بالعجلة الملكية أو بسفينته النيلية فقد شق طريقه هاربا فى اتجاه الشمال ، أى فى الاتجاه العكسى لأعدائه القادمين من الجنوب من طيبة .

بعد أيام طالت أو قصرت ، تجمعت فلول الهاربين فى العاصمة الشمالية أونـــوريس – أون – عين شمس الحالية .

تجمع الموحدون فى مدينة أون التى هى الملجأ والملاذ الذى آووا إليه لدراسة الوضـــع المستقبلى للملك ولأتباعه ورسم خطة ربما يكون فيها الانقاذ .

أما عن القوات الغاشمة التى كانت تتعقبهم ، فمازالت لهم بالمرصاد .

قربان إلى الله بأمر من الله

وسط هذه المعمعة والتى وضعت فيها الديانة الجديدة وإله الديانة الجديدة على كفة الميزان ، حيث ارتد بالقطع كثير من الأتباع لما رأوا تقاعس إله الديانة عن نصرتهم مما شككهم فى صحة الدعوة ، حدث اختبار صعب .

فنحن نعرف أن إخناتون قد ولد له ولى العهد من الزوجة الثانوية « كيا » وأسماه – نفر نفرو آتون مرى كيا أو مرى وع ن رع ، فيما بين السنة التاسعة أو العاشرة من حكمه ، والذى يكون سنه قد ناهز فى هذه اللحظة الثامنة على وجه التقريب .

وتدلنا بعض كتب التاريخ بدلالات غير واضحة إلى مكان يسمى – قلعة الكبش – فى موقع جامع أحمد بن طولون بالقاهرة الآن[٣٢] – ومازال هذا المكان يحمل هذا الاسم . تشير هذه الكتب فى إشارة عابرة إلى أن هذا الموقع قد حدث فيه حادث التضحية المعروف فى التوراة ، وحيث أن حوادث التوراة فى الحقيقة غير موثقة ، من ناحية تحديد الأمكنة والأزمنة ، بل غير مقنعة فى تحديد من هو الذبيح ، أهو إسماعيل بكر إبراهيم من هاجر أو إسحق بكره من ساره فإننا نجد أنفسنا الآن فى لحظة تبيح لنا تسجيل الحدث الحقيقى وتوثيقه بمكانه وزمانه وشخوصه .

كان على الهاربين من آخت آتون أن يغادروا مصر راضخين لشروط القوة الغاشمة ، وحيث أننا نعرف أن تعداد سكان آخت آتون كان يتراوح ما بين الخمسين ألفا والمائة ألف ، وليس لدينا الآن عدد تقريبى للمقتولين والمرتدين والشيوخ غير القادرين ، لكى نحصى فى النهاية عدد الذين فرض عليهم الرحيل بدينهم إلى خارج مصر ، فقد سار الركب الإخناتونى فى طريقه للخارج – الملك وأهل بيته وما بقى من حاشيته وأتباعه .

فى هذا الموقع الذى عيناه فى مكان جامع أحمد بن طولون الحالى ، يحدث شئ غريب وعجيب فى توقيت عصيب ، بعد تجربة مرة مع زعماء الوثنية من كهنة آمون وكتائب الجيش بقيادة القائد حور محب . فقد طلب إله إخناتون « آتون » أو رع ، من الملك أن

يضحى بابنه ووحيده ووارث عرشه ، المسلوب طبعا ، نفر نفرو آتون مرى كيا أو مرى وع ن رع . ما هذا ؟!

مغلوبون مهزومون من الوثنية ولم ينصرهم الإله ، ومع ذلك مطلوب تقديم الإبن الوحيد ووارث العرش لمائدة القرابين لهذا الإله ، اختبار صعب !!

ومع ذلك ولإيمان الملك والداعية بإلهه بلا حدود فقد وفى بالوعد ، وحصل الفداء بالكبش المشهور فى القصص الدينى فى كل الديانات .

والنتيجة : يتغير اسم الفتى وارث العرش من – نفر نفرو آتون مرى كيا أو مرى وع ن رع – إلى اسم عجيب هو إسماعيل .

ولا غرابة !!

فكلمة إسماعيل كلمة مصرية مركبة من مكونين :

اسماع أو سماع وتكتب هكذا بالمصرية :

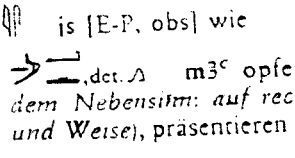

is [E-P, obs] wie

det. A m3ᶜ opfern (*mit dem Nebensinn: auf rechte Art und Weise*), präsentieren (*Opfer, Gaben, Geschenke*); dargebracht werden, geopfert werden.

وتعنى كما يقول المعجم : القربان أو الأضحية[٣٣]

أما المكون إيل فتعنى إله بالعبرية ، ولكن اصلها أقدم من ذلك :

فكلمة إيل العبرية تعود إلى الكلمة المصرية المعروفة جدا: « رع » والتى تعنى الإله .

وحيث أننا لا نعرف كيف كان ينطقها الفراعنة على وجه التحقيق فإننا معتمدون الآن على ما هو متعارف عليه فى علوم اللغة المصرية . فالمعروف أن الكتابات المصرية لا تفرق بين حرفى اللام والراء فى الكتابة ، فهم يستخدمون هذا الحرف أو لام والراء ، متى تكون لاما ومتى تكون راء ، هذا يعتمد على معرفتنا بما تبقى وانتهت إليه تلك

الكلمات فى مجموعة اللغات السامية من عبرية وعربية وسريانية وآرامية وأكادية وإثيوبية . ولنضرب لذلك مثالا سريعا : فكلمة سلام التى تعنى ، ضد الحرب ، وتستخدم ككلمة لتحية الآخرين ، تكتب هكذا بالهيروغليفية :

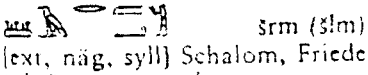

وتعنى أيضا : سلام(٣٤) ، ولولا أن هذه الكلمة

بقيت لنا فى السريانية والعبرية / شالوم والعربية سلام ، ما كنا استطعنا أن نجزم بأن هذا الحرف ⊂ هو حرف لام .

عموما بعد هذه المعلومة اقتربت جدا كلمة رع المصرية من كلمة إيل فى العبرية ، بل ومن كلمة الله باللغة العربية ، وحرف العين يختفى فى العبرية ولكنه فى العربية يخفف إلى هاء ، بعد أن أدخلت أداة التعريف – ال – على الكلمة .

وتبقى تسمية المكان بقلعة الكبش فى القاهرة الحالية للآن شاهدا على هذا الحدث ، فالمكان مازال يسمى قلعة الكبش ، ولا أحد يعرف عن هذا الكبش شيئا ولماذا هذه التسمية . ولعل المهندس القبطى الذى أشار على أحمد بن طولون بهذا المكان لبناء مسجده كان يعلم تاريخه واختار المكان بناء عليه .

بعد هذا الحدث العظيم أضحى إيمان إخناتون بإلهه لا يتزحزح وهو على استعداد لأن يضحى بكل شئ ، حتى بعرشه ، من أجل إلهه الذى تجلى له . فخرج بموكبه سالكا الطريق المشهور طريق حورس فى شمال سيناء . ولكن إلى أين ؟

هوامش الفصل الثالث

(1) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

إخناتون – سيريل ألدريد – مترجم – الهيئة العامة للكتاب .

(٢) الآثار المصرية فى وادى النيل – جيمس بيكى – مترجم .

(3)Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(4) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(5) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(٦) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة العامة لكتاب .

(٧) النص مأخوذ من – الأدب المصري القديم – سليم حسن .

(٨) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة العامة لكتاب .

(9) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(١٠) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة العامة لكتاب .

(11) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(١٢) - Die Amarna Tafeln - Knudtzon مقدمة الجزء الأول ، ويحمل رقم E ٨٦ فى مكتب المتحف المصرى (جزءان) .

(١٣) إخناتون – سيريل ألدريد – مترجم – الهيئة العامة للكتاب .

(١٤) - Die Amarna Tafeln - Knudtzon مقدمة الجزء الأول ، ويحمل رقم E ٨٦ فى مكتب المتحف المصرى (جزءان) .

(١٥) موسوعة مصر القديمة – سليم حسن – ج٥ .

(١٦) المرجع السابق .

(١٧) حمورابى البابلى وعصره – هورست كلينكل – مترجم – دار المنارة – سورية.

(١٨) نفرتيتى – جوليا سامسون – مترجم – الدار المصرية اللبنانية .

(19) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning.

(٢٠) إخناتون – سيريل ألدريد – مترجم – الهيئة العامة للكتاب .

(٢١) نفرتيتى – جوليا سامسون – مترجم – الدار المصرية اللبنانية .

(٢٢) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة العامة لكتاب .

(٢٣) نص البردية مأخوذ عن – أدب المصرى القديم – سليم حسن .

(٢٤) نصوص مقدسة – المجلد الثانى – كلير لالويت – مترجم – دار الفكر .

(٢٥) التوراة – العهد القديم – المزامير .

(٢٦) التوراة – العهد القديم – المزامير .

(٢٧) التوراة – العهد القديم – المزامير .

(٢٨) مصر الفراعنة – سير ألان جاردنر – مترجم – الطبعة الثانية – أكسفورد – ١٩٦١ .

(29) Echnaton - Erik Hornung - 1995.

(٣٠) إخناتون – سيريل ألدريد – مترجم – الهيئة العامة للكتاب .

(٣١) ديانة مصر القديمة – أدولف إرمان – مترجم – الهيئة العامة لكتاب .

(٣٢) Aegypten - Brunner - Traut- الطبعة الخامسة – ١٩٨٢.

(33) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning.

(34) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning.

الفصل الرابع

موكب الداعية فى بلاد النور

وبعد تجمع الأتباع ، وقد أصبحوا جميعا غير مرغوب فيهم فى البلاد ، كان لا بد للداعية أن يشحذ فيهم الهمة والإيمان بعد حدث القربان العظيم ، وقد رأى فيه برهان ربه واضحا جليا وأيقن أن لا مفر إلا مغادرة البلاد فبشرهم ببلاد كلها نور بعد أن رفضتهم ولفظتهم بلاد الظلام .

وهنا نترك شواهد التاريخ بنفسها تعبر عن ذلك :

فقد اكتشف فى العريش شاهد من الحجر الجرانيتى الأسود حفرت عليه نصوص هيروغليفية تسجل هذا الحدث الجلل ، وهذا الشاهد قابع الآن فى متحف الإسماعيلية ، تحت مسمى حجر العريش . وهذا الشاهد على درجة عالية من الأهمية وبالرغم من ذلك لا يكاد أحد يذكره ، وإذا ذكروه فإنما يستشهدون به فى غير موضعه ، جريا وراء تزوير جديد لأحداث تخص موضوعا بعينه حتى تنصرف الأنظار عنه .

وقد نقلنا هذا النص عن كتاب « عصور فى فوضى » لليهودى فليكوفسكى[1] الذى حاول أن يلوى رقبه النصوص لتصف أحداث الخروج الإسرائيلى من مصر فى عهد النبى موسى عليه السلام ، وهى محاولة مكشوفة – كما قلنا – لإبعاد النص عن سياقه ، ولنر ونتأكد :

النص :« لقد مرت بالبلاد بلوى عظيمة ، سقط الشر على أرضها ، وثارت الأرض ثورة عنيفة شملت عاصمة البلاد ، ولم يغادر أحد القصر الملكى لمدة تسعة أيام كاملة . وأثناء هذه الأيام التسعة من جيشان الأرض ، كانت هناك عاصفة بلغت قوتها درجة لا يستطيع معها إنسان ولا إله أن يرى وجوه الآخرين .

وفى خضم المحنة وتقلبات الطبيعة الوحشية ، جمع الملك جيشه وأمرهم باتباعه إلى مناطق وعدهم أنهم سيرون فيها النور من جديد : سنرى أبانا رع حور آختى فى منطقة « باخيت المضيئة » . وفى هدأة الليل وتحت ستار الظلام اقتربت جحافل الغرباء من حدود البلد ثم اجتازتها ، وذهب صاحب الجلالة لمحاربة « أبوبى » وزمرته . وحين قاتل جلالة الملك « رع حر ماخيس » ، حين قاتل إله الشر بالقرب من البحيرة فى مكان الدوامة ، فإن إله الشر لم يتغلب على جلالته ، ولكن جلالته هو الذى اندفع إلى الدوامة .

ووصل جلالته إلى مكان يسمى « باخيت » .

وبعد انقضاء فترة من الزمن خرج ابن الفرعون صاحب السمو – جب – باحثا عن أبيه ، وقد أخبره شهود العيان بكل ما حدث لرع فى « يات نيبيس » والصراع الذى خاضه الملك توم ، وكل من رافقوا الأمير فى رحلته للبحث عن أبيه قد ماتوا حرقا ، أما الأمير نفسه صاحب السمو جب ، فقد أصيب بحروق شديدة قبل أن يعود من رحلة البحث ، وهو يائس من العثور على أبيه الذى لقى حتفه ... ومن غبرة الصحراء فى طريق يات نيبيس وصل الغزاة واحتلو البلاد ... أتى أبناء أبوبى المتمردون الذين كانوا يعيشون فى أشيرو ... وساروا على طريق يات نيبيس ، وحلوا على البلاد مع حلول الظلام ، لقد غزوا البلاد ليحطموها ويدمروها . وبمرور الوقت برد الجو فى البلاد وجفت الأرض ، ولم يعرف ماذا حدث بعد ذلك للأمير التعس . لقد دمرت البلاد بالإعصار فأكلتها النيران ، أما العاصمة فقد احتلها الآمو » .

ذلك نص من حجر العريش الغير مشهور ، والذى يستشهد به فى مواضع أخرى ليس لها علاقة بالمضمون الأساسى له ، وعلينا الآن أن نزيد ما فيه إيضاحا ، دون إقحام بما ليس فيه ، لنثبت للعالم كله ما لم يستطيعوا إثباته بل ولا يريدون .

– فالنص يصف الحصار والهجوم الذى شنه أعداء الديانة الإخناتونية على عاصمة الوحدانية الذى دعى إليها الملك إخناتون الذى صرح النص باسمه فى عدة أشكال ، رع حر

ماخيس و أتوم ، الذى يعبد الرب – رع حور آختى – وقد وضحنا فيما سلف فى تفاصيل المذهب أكثر من ذلك . أما قوى الشر التى تتمثل فى أبوبى أو أبوفيس فهو الرمز المعروف للعدو والشر ، ومع ذلك فإن كلمة أبوبى نفسها تشير بوضوح إلى حور محب ، والذى أطلق عليه التاريخ نفسه اسم أبوبى .

– اما اسم الملك أتوم أو رع حر ماخيس فقد وضع فى علامة الخرطوش ، دلالة على أن القصة هى قصة ملك وليست أسطورة من أساطير الآلهة .

– أما تفاصيل الحدث كما هو واضح من النص فقد حوصرت المدينة الدولة لمدة طويلة وحوصر قصر الملك تسع ساعات ، وخرج الملك للقاء حور محب ولكنه لم يتغلب عليه ، بل رمى نفسه فى الدوامة ، التى ربما تكون دوامة الماء فى البحيرة التى فى القصر الملكى وكان قرب النيل أو فى الماء فى النيل أو دوامة الأحداث الشرسة نفسها واختفى ، والبحث جار عنه .

– ما يدل على صحة ما ذهبنا إليه أن الاتجاه الذى أتت منه قوى الشر حدد فى النص بكلمتين : أشيرو – ثم كلمة بات ن إيبس

– والأولى :

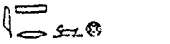

j3rw (halbmond-förmiger) See, Teich (*bes. des Muttempels von Karnak*)

وتعنى : بحيرة معبد « موت » فى معبد الكرنك

بطيبة وكانت على شكل الهلال .

– والثانية وتكتب

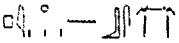

pj-nbs

Christusdornbeere

وتعنى : الطريق الخارج من طيبة ناحية الشمال[1] المحفوف من كل جانب بالنباتات الشوكية أو لعله السياج المحيط بمدينة آخت آتون أو ربما أنه رمز لمدى صعوبة الموقف أو أن القوات أتت متخفية فى تلك النباتات العشبية كى تفاجئ أهل المدينة على حين غرة .

j3t *f* c. Baum

– أما ما يدل على أنها حرب داخلية وليست حرب آلهة أو غزاة من الخارج فقد حددته كلمة العامو :
('Strockfechten; 'Boxen)

التى معناها : المقاتلين بالعصى أو الملاكمين بالأيدى ، والمقصود أنهم من الشعب والعامة[٣] .

– إذن النص صريح وهو النص الذى يسجل حدث اقتحام مدينة آخت آتون ، ونلاحظ أنه قد سجل إما من طرف محايد أو على الأغلب والأصح من طرف متعاطف مع الديانة الإخناتونية كما وضح .

– أما الذروة القصوى التى يصل النص بنا إليها فقد تمثلت لنا فى تحديد اتجاه الركب الإخناتونى فى اسم المكان الذى اتجهوا إليه وهو « باخيت » ومن خلال التعبير إلى بلاد النور فى مقابل بلاد الظلام (فى هذه الحالة مصر) .

– أما كلمة « باخيت » أو « باكيت » أو « بكة » المضيئة التى فى بلاد النور التى هى الحجاز ، وكلمة « حجاز » كلمة مصرية أيضا والتى تكتب هكذا : hdd Licht

فالمعنى المعجمى لها : النور – أو بلاد النور[٤] .

*** ولأول مرة فى تاريخ الدراسات الإسلامية نتعرف على أصل اسم المدينة المكرمة فى القرآن « مكة » ، ويزول العجب الآن ، عندما أطلق عليها القرآن اسم « بكة » التى هى « باخيت » أو « باكيت » التى هى « بكة » الذى حار فيه كل الباحثين من قبل .

– إذن الركب الإخناتونى الذى أرغم على الخروج إلى المنفى سلك طريق حورس الشمالى إلى العريش ، فلم تسعه الأرض كلها على رحابتها ، واستقبلته مكة وجبال النور ، التى هى بكة أو « باخيت » ، ومكة أيضا كلمة مصرية تكتب هكذا :

m3ᶜw [pl] Erzeugnisse (*Fremdländer*), Geschenke, Tribute;

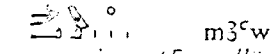
k3 Ka Persönlichkeit, Lebenskraft, Le

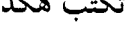
mkt *f* richtige Stelle, Platz (*für Körperteil, dort wo die Götter stehen*); sein Platz im Leben

فهى هبة الله أو منحة الله وأعطيته للإنسان على الارض . ومن يقول إن اسمها القديم كان « مكربا » فهذا أيضا هو المعنى نفسه هبة الرب أو هبة الله[٥] .

– أما لماذا هذا المكان القفر فى قلب الصحراء فنقول إن الاتفاقية التى تمت بين قوات مصر الوثنية فى ذاك الوقت متمثلة فى كهنة آمون وقائد الجيش « حور محب » وبين نبى دعوة التوحيد إبرام الفارس وخليل الله إخناتون كانت لا بد أن تنص على أن يغادروا إلى خارج حدود المملكة المصرية بأسرها ، والتى كانت تضم مصر وجنوبها ثم فلسطين وسورية وبلاد نهرينا حتى الفرات .

وغالبا كانت تلك هى الرسالة التى حملتها أم الملك الملكة « تى » عند دخولها إلى مدينة الرب « آخت آتون » ، والجزيرة العربية كانت خارج المملكة المصرية ، وسيظل الحال هكذا لهذه القبيلة على طول التاريخ الفرعونى . فهم ممنوعون من الدخول بالطريق الرسمى طبعا إلى داخل المملكة كلها إلا أن يحصلوا على صك أمان من فرعون مصر كما فعل يوسف الصديق ، أو بطريق غير شرعى بالتخفى أو بطريق آخر هو القوة ، وما كان ذلك ضمن برنامج السلام الإخناتونى .

جزيرة العرب تتكلم

محاولة إعادة بناء الماضى فى الجزيرة العربية بالصورة التى حدثت بها بالفعل ليست شيئا هينا على الإطلاق لاسيما أن المراجع فى هذا الشأن نادرة إن لم تكن معدومة ، فقد سكت التاريخ هنا سكوتا أبديا يثير الشك والريبة ، وما بين أيدينا من المراجع لا يسمح أن يساعدنا على إعادة تجميع لبنات ذلك التاريخ المعتم لتلك الحقبة .

ومع ذلك فإن المحاولة تستحق ما سنبذله فيها من عناء ، مراعين فى ذلك أن يكون منظارنا المقرب لهذا الزمن لا بد وأن يتفق مع طبيعة الحياة والموقف آنذاك ، حتى تكون نتيجة هذه الدراسة قريبة للصواب ، وعزاؤنا فى هذه اللحظة هو أن لدينا معطيات – صحيح أنها قليلة – ولكنها ثرية وغنية وموحية إلينا بالأساس الذى نحتاجه ، فإن بقيت فى النهاية بعض التفاصيل غير واضحة فالزمن كفيل بإظهارها ، شريطة أن يقوم علم البحث عن الآثار بدوره الجاد فى هذا المضمار ، وشريطة أن تكون الدول المعنية – وبالذات دول الجزيرة العربية الآن – على استعداد لإعطاء الأهمية اللازمة للتنقيب عن تلك الآثار والإعلان عنها فور كشفها ، والأهم أن يكونوا على استعداد لتقبل نتائج هذه البحوث الآثرية أيا كان مذاقها ، وأن يولوا أبحاث التاريخ القديم نفس الأهمية التى يولونها البحث عن النفط ، لأنه ليس بالنفط وحده يحيا الإنسان .

والأهم من كل هذا وذاك ، ليس أن نعثر على تلك الآثار وكفى ، بل نتعلم أخيرا كيف نكتب تاريخا صحيحا بناء على الكشوف ، ولا نترك الآخرين وهم مغرضون فى كل حال – يكتبون لنا تاريخنا .

– تاريخ الجزيرة العربية قديم وحافل ، وبالذات فى الفترة التى نحن بصددها فى دراستنا هذى والتى لم يبق التاريخ لنا منها إلا الفتات والألغاز ؛ من هذه الألغاز تلك القبور الهرمية والهضبية الهائلة فى عمان وفى واحة « يبرين » وفى ساحل الحسا وفى جزيرة البحرين ، وبلغ عددها فى جزيرة البحرين وحدها حوالى ١٧٢,٠٩٣ قبرا حسب تقدير الأثرى « لارسن » .

فلمن أعد هذا الكم الهائل من القبور ؟ ذلك يشير إلى ظاهرة غريبة دعت « دلامبرج كارلوفسكى » إلى بحثها ومحاولة تفسيرها ، ولا سيما أن هذا النشاط والاهتمام بالحياة الآخرة لا يتوفر لشعب فى التاريخ القديم إلا للشعب المصرى الذى يؤمن بالحياة بعد الموت والخلود ، وقد وجدت فى ذات المكان أعداد من الجعارين المصرية وتماثيل لأبى الهول المصرى مدون عليها بالهيروغليفية المصرية ، كما وجدت مقابر تحمل التقليد المصرى فى الدفن أيضا فى السعودية وعثر فيها على مياوات[٦] .

– ومن الأعاجيب التاريخية شعب بأكمله فى داخل الجزيرة العربية أطلق عليه « اليهود » أى يهود الجزيرة العربية ، ولا نعرف للآن ما حكايتهم مع هذا المكان والزمان وما علاقتهم فى واقع الأمر باليهود بوجه عام !! وكيف استوطنوا هذا المكان ؟!

– البعض يرجع هؤلاء اليهود إلى النبى هارون أخى موسى ، وآخرون يرجعونهم إلى الإسماعيلية الذين أتوا من الشام مع النبى إسماعيل واستوطنوا معه هذه المناطق ، والبعض الآخر يعزى ذلك إلى قدومهم من الشام وفلسطين هربا من الغزو البابلى[٧] ، وكل هذه الافتراضات لا تقوم لها قائمة لأنه لا يتوفر لها الدليل والبرهان والسند العلمى التاريخى ، ولمجرد أنهم « يهود » حبست التفاسير والتبريرات نفسها داخل دائرة محدودة ، وهى أنهم فى رحلة للبحث عن الأمان أمام موجة الاضطهاد اليهودى على مختلف حقب التاريخ . ويستشهد الباحث الهندى « بركات أحمد » فى كتابه « محمد واليهود » بأقوال العالم « جراتس » الذى يوضح نشوء المستوطنات اليهودية فى الجزيرة العربية بأنه تاريخ يغشاه ضباب الأساطير ، ولا يوجد شواهد تاريخية يمكن الاعتماد عليها لتحديد تاريخ تقريبى لوصول هؤلاء اليهود لهذا المكان ، وكانت مدينة « تيماء » فى شمال غرب الجزيرة العربية معروفة للأنبياء اليهود ، وأنها كانت أول مدينة هناك وجد فيها شئ يشبه المجتمع اليهودى فى الأزمان الغابرة التى ورد ذكرها فى كتاب اليهود المقدس . ويعزى « جراتس » وجود يهود فى هذا المكان لقصة مفادها أن نفرا من بحارة بنى إسرائيل ومن اليهود الفارين من تنكيل « نبوخذنصر » ثم تنكيل الرومان قد أقاموا لأنفسهم مستوطنات فى شبه الجزيرة ،

وواضح من استخدام كلمة « بحارة » أن « جراتس » سجين لثقافته ، فيبدو أن تاريخ اليهود على مر العصور حتى اليوم قد أوحى لجراتس بفكرة « البحر » تلك ، مع أن ذلك درب من التعسف فى التفسير ، حيث أن الفار من جنوب الشام إلى شمال الجزيرة – تيماء وفدك وخيبر ويثرب ومكة – ليس محتاجا على الإطلاق إلى البحر ليصل إلى هناك .

والأساطير العربية « كما هو فى المرجع نفسه » ترجع تاريخ إقامة أول مجموعة من اليهود فى الحجاز إلى زمن موسى عليه السلام الذى أمر بعض تابعيه بمقاتله العماليق ، وكما يشدو أبو الفرج الأصبهانى فى « أغانيه » !! أن هؤلاء اليهود أرسلوا للقضاء على العماليق ، ولكنهم لم ينفذوا الأمر الصادر بقتلهم جميعا ، وقد أخذتهم الشفقة بابن مليكهم ، وكان غلاما جميلا ، فعادوا به حيا إلى فلسطين بدلا من أن يقتلوه كما أمر موسى ، فعوقب هؤلاء اليهود على فعلتهم هذى بالنفى فأقاموا فى يثرب .

وهذه الأسطورة على الرغم من إمكانية وقوعها إلا أن الرد عليها سهل لأنها لا ترقى أن تكون دليلا دامغا ، حيث يوجد من الآثار ما ينفيها ؛ شاهد قبر شخص من اليهود « الشبيت » اسمه يهوديا ، وهو أقدم من التاريخ الذى ذهبت إليه الأسطورة ، كما أن المتأمل فى تفاصيل القصة يكتشف فسادها منطقيا حيث أننا لو سلمنا بصحة الجزء الأول منها يكون أسرهم لابن ملك جميل أمرا يستحقون عليه المكافأة لا توقيع العقوبة بالنفى ، كما أنه كان مازال فى إمكانهم قتله فى اللحظة .

أما عن مظهر اليهودية فى حياة هؤلاء فننقل هنا عن « بارون » : إن الصورة الفكرية لليهود العرب « يهود الجزيرة » لم تتجاوز بضع صفحات من القانون الموسوى وبعض كتب الصلاة العبرية وبعض مستلزمات العبادة والدراسة الأخرى ، ومن المشكوك فيه جدا أن تكون ترجمات الكتاب المقدس العربية التى كانت موجودة فى ذلك الوقت أكثر من ترجمة جزئية .

ومعرفة الكتاب المقدس التى كان يملكها اليهود « العرب » حسب رأى جرتس لم تكن معرفة كبيرة ، ولم تتأت لهم تلك المعرفة إلا من خلال التفسير « الأجادى » وهو تفسير قديم

للتوراة ، استعان فيه واضعوه بالنوادر والأساطير لتقريب أحكام الشريعة الموسوية إلى أفهام عامة الشعب ، وأصبح هذا التفسير الأجادى معروفا ليهود الجزيرة فى الأسفار التى كانوا يقومون بها أو الذى جاءهم به بعض من هاجروا إليهم . وكان التاريخ الماضى المجيد بالنسبة لهم مختلطا بالإضافات الأجادية بدرجة جعلتهم عاجزين عن تمييز الذهب من الغثاء .

وبناء على هذا الكلام يكون ورودهم إلى الجزيرة بتكليف من موسى وهارون لمحاربة العماليق أمرا مشكوكا فيه لأن معرفتهم بالدين الموسوى محدودة جدا ، وهذا ينفى بالتبعية أنهم أو أجدادهم كانت لهم أدنى علاقة بموسى وهارون ، اللهم إلا عن طريق احتاك البعض منهم فيما بعد بالدين الموسوى عن طريق الأسفار والتجارة أو عن طريق من وفدوا إليهم فيما بعد ونقلوا عنهم بعض ما عرف عن الدين الموسوى من تعاليم وكتابات . وعلى الرغم من أن افتراض اشتغالهم وارتحالهم لأسباب تجارية قد يكون ممكنا ، إلا أنهم فى أسفارهم تلك كانت صلاتهم الفكرية بمركز حياة اليهود فى الشام وبابل قليلة .

وواقع الأمر أن يهود الجزيرة كما يضيف المرجع نفسه لم يسهموا بشئ أو أسهموا بالنذر اليسير فى نهضة اليهود الدينية والثقافية بعد فترة الكتاب المقدس . ويقول « مارجوليوث » إنه لم يظهر فيهم فيما يبدوا رجل يستحق أن يحفظ اسمه ، ولكنه يسوق لنا فى كلامه شيئا مهما جدا حين يقول : لقد أقام فى المدينة « يثرب » أكثر من عشرين قبيلة من اليهود ، وكانت أعلى هذه القبائل قوما : قبائل بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع وبنى ثعلبة وبنى هدل ، وكانت قبيلتا بنى النضير وقريظة تزعمان أنهما من أسلاف كهنة اليهود . ومارجوليوث لا يعتبرهم يهودا ، ونتفق معه فى ذلك ، وهو يميل إلى اعتبار أن وصف اليهود الذى توصف به هذه القبائل المدنية يشير إلى شكل من أشكال التوحيد .

بل إن « رايزنر » لا يعتبرهم يهودا ، حيث يقول : كان التلمود قد اكتمل فى بابل قبل مولد محمد ﷺ بأقل من مائة عام ، وكان هناك فى ذلك الوقت فى داخل المجتمع اليهودى وخارجه اتفاق تام على تحديد من هو اليهودى وعلى ما يعتبر جوهر الديانة اليهودية ، فاليهودى هو من اتبع القانون الموسوى كما يعتبره مدرسو القانون وفقا للمبادئ التى أرساها

التلمود ، ومن لم يلتزم بهذا كان يسقط من الحساب ، وإذا كان إسرائيليا بالميلاد فلا يمكن حرمانه من حق المولد ، أى من حقه فى أن يدعى ابنا لإسرائيل « كما فى الجزيرة العربية » .

و« فرد لاندر » لا يذهب مذهب جراتس و رايزنر ، وقد أثبت استنادا إلى وثائق جاعونية اتصال اليهود العرب بأكاديمية بابل الجاعونية ، وهو يلاحظ أن من سمات الوضع المركزى الذى كانت تتمتع به الأكاديمية الجاعونية فى حياة اليهود أنها كانت حتى فى شخص آخر ممثليها قادرة على ممارسة نفوذها على اليهود شبه الخرافيين الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية الحرة وعلى تشكيل حياتهم المهنية والمدنية ، ولكن هذا الكلام يتهاوى أمام الحقيقة التى تبدت عندما حاربهم رسول الإسلام فلم يهب للدفاع عنهم أحد ، ولا حتى تلك الأكاديمية الجاعونية المدعاة .

وقد لاحظ كل من تعامل مع موضوع يهود شمال الجزيرة أنهم قبائل متمدنة وليسوا بدوا رحلا ، فهم مستقرون فى مدن أو أشباه مدن ، كيثرب وخيبر ، ومدن صغيرة كتيماء وفدك ووادى القوى ، وبمقارنة استقرار تلك القبائل مع قبائل أخرى مستقرة فى أماكن أخرى فى العالم فى ذلك الوقت ، نلاحظ بوضوح أنه ليس استقرارا عاديا ، بل هو استقرار من نوع أكثر تطورا ، حيث نجد الأطم عبارة عن حصن حربى مزود أولا بكل وسائل الحماية من آلات حربية دفاعية وهجومية يقومون هم أنفسهم بتصنيعها ، ويشتمل الأطم أيضا على منشآت مدنية أخرى كالمدارس وأماكن العبادة والمخازن وقاعات المعيشة والاجتماعات ، أى أن الأطم عبارة عن مدينة صغيرة تشتمل على كل المؤسسات والخدمات ، بما يجعلها أيضا فى حالة مهاجمتها أن تصمد لفترة طويلة . بالإضافة إلى ذلك فإن النشاط الزراعى كان ممثلا بشكل أساسى ، فكانت الحدائق والبساتين جزءا أساسيا لهذه المنشأة ، وكان يكفل إنتاج المحاصيل الرئيسية والضرورية للحياة ، مما يجعل فيها نوعا من الاكتفاء الذاتى ، بل والقدرة على الاستغناء عن بعض الفائض والاتجار به مع الآخرين سواء بالتبادل أو بالنقد ، ألا يذكرنا هذا بمدينة الرب آخت آتون ؟!

والسؤال هنا : كيف لهؤلاء البدو اليهود أن يصلوا إلى تلك التقنية وذلك التقدم ؟ وضد من كانوا يتحصنون ؟ ألا يشير ذلك إلى أسلاف قد قدموا من مكان ما التطور

سمتهم ، وأن هؤلاء الأسلاف كانوا من الخبراء والمتخصصين اضطروا فى حقبة سالفة إلى أن يرحلوا من أماكنهم الأصلية ويستقروا فى هذه البقعة الوعرة . وهـذا نجـده فى الإشـارة الواضحة لتلك الكفاءة العالية فى صنع آلات الحرب وتلك القدرة الفائقـة فى الصـناعات المدنية ، كصناعة الذهب والصياغة الدقيقة ، وتلك الخبرة العظيمة فى الزراعة التى لا يمكن لها أن تكون إلا فى وديان الأنهار فى العالم القديم .

أما عن القبائل اليهودية نفسها ، فكان منهم بنو قريظة وبنو النضـير الـذين كـانوا يسمون أنفسهم بالكهنة ، وكان بنو قينقاع يحترفون صناعات كصياغة الذهب ، وصـناعة الأسلحة ، ويديرن سوقا تجارية ، ولم يكن بنو قينقاع يملكون أراضى زراعية ، ولكن كانت لهم مستوطنة كثيفة فى ضواحى يثرب ، وكان بنو قريظة والنضير يملكون أراضى تعتبر مـن أجود أنواع الأراضى الزراعية إلى الجنوب من المدينة ، وكانت تقع على هضبة مرتفعـة . وكانت القبائل اليهودية الأخرى متناثرة وتمتلك فى مجملها ما يقرب من ستين أطما ، وهذه الآطام – كانت من معالم يثرب البارزة وكانت منيعة منعة تسمح لهـا بصـد الهجمـات العسكرية ، كما كانت كبيرة بدرجة تسمح لها بمقاومة الحصار الطويل ، وكان فيها مدارس ومعابد وقاعات للمجالس .

وكانت خيبر من حيث الأهمية ثانى مستوطنات اليهود فى الجزيرة العربية ، وهى تبعد مسافة ٩٠ ميلا تقريبا عن يثرب من الشمال ، وتقع على هضبة جبلية شديدة الارتفـاع ، وكانت الوديان التى تتخللها فى غاية الخصوبة ، وكان اليهود يزرعون الكـروم والخضـر والغلال ويربون الأغنام والماشية والإبل والخيل والحمير ، وكان بها أيضا حـدائق نخيـل ، وكانوا يتاجرون ، وكانوا أيضا يصنعون المعدات المعدنية كالآلات التى تستخدم فى دك المدن المحاصرة والمنجنيق ، وكانوا يملكون مجموعات من الحصون فى مواقع منيعة ، وحسب كلام « اليعقوبى » كان يعيش داخل هذه الحصون حوالى عشرين ألف مقاتل ، وكـذا الحـال فى فدك وتبوك وأم القرى وتيماء[٨] .

ولكن لماذا الاستقرار فى هذه المناطق البعيدة عن مراكز الحضارة القديمة ؟؟

ولما كانت الإجابة مستعصية حتى الآن على هذا التساؤل طبقا للمناهج التقليدية فى البحث ، وفى ذات الوقت لا يجب أن نقف مكتوفى الأيدى إزاء مثل هذه الإشكاليات فقد توصلنا – بفضل ما وصلت إليه الجهود الحديث فى فك رموز اللغة المصرية القديمة على يد شامبليون ومن جاء بعده من العلماء والباحثين وما توافر لنا من معاجم وكتب متخصصة فى هذا المضمار – إلى نتيجة مرضية هى فى حد ذاتها عمل رائد ، وعلى المهتمين أن يتابعوه فى المستقبل .

سنقوم فى الصفحات التالية بتحليل لغوى فيلولوجى وعلمى لمسميات هؤلاء اليهود ومسميات أماكن استقرارهم وحتى لغتهم ، بل سنوسع النطاق أكثر لبحث بعض مسميات الجزيرة العربية ، أشخاصها وقبائلها ومدنها وجبالها ونباتها[٩] – لنصل إلى نتيجة مذهلة ، تفض لنا غموض التاريخ فى الحقب السحيقة من تاريخ هذا المكان .

وقد حاولنا بحث كل هذه المسميات وإرجاعها إلى اللغة العربية فلم نصل إلى نتيجة مرضية ، وكذا حاولنا مع اللغة العبرية حيث يحاول البعض الربط بين هؤلاء ويهود فلسطين– فلم تجد المحاولة ولم نخرج منها بشئ ألبتة .

الجبال تتكلم

أسماء الجبال فى شبه جزيرة العرب أسماء غريبة عن اللغة العربية وعن المسميات العربية كما أنها فى ذات الوقت بعيدة كل البعد عن مشتقات اللغة العبرية فى تلك الأماكن التى سكنها ما يسموا باليهود :

جبل برثم : وتكتب بالمصرية هكذا :

pr ① [allg] Haus,

وتعنى : بيت أو مكان النار – أو بيت التفكر

tm denken, ersinnen

جبل بس : وتكتب هكذا :

bs Einströmen, Immigration (*der Ausländer ins Land*)

وتعنى : سر أو المهجر

bs (bz) [rel] Geheimnis

جبل تعار : وتكتب هكذا :

t3 ① Erde

ʿr Ziege(nbock); Tier mit Gehörn

voller Stein ʿr cf. jʿr e. wert-

وتعنى : أرض الماعز – أو ارض الحجر النفيس

جبل حراء : وتكتب هكذا :

hrw [pl] die Oberen (*Wesen im Himmel, bes. Sterne*)

.33 . (j33) Ruine, Wüstung [cf. j33]

وتعنى : أطلال أو خرائب ناتجة بسبب الكواكب والنجوم

جبل خطمة : وتكتب هكذا :

*htmt (*sḏ3wt) *f* Schatz

وتعنى : الكنـــز

جبل عن : وتكتب هكذا :

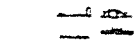

ʿn (ʿjn) ① schön sein (*Mensch, Tier, selten Sachen*),

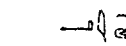

ʿn (ʿjn) mit Kalkstein verkleiden, (*mit Stein*)

وتعنى : المغطى بالحجر الجيرى أو تعنى الجميل

جبل عرفات : وتكتب هكذا :

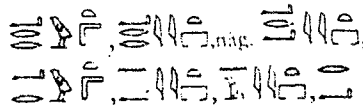

(ʿrrwt, ʿryt, ʿrryt, ʿrwt) *f* ① Arret, Tor(weg) (*von Haus, Palast, Magazin, Tempel, a. im Himmelreich; Sitz der Verwaltung; Sitz*

وتعنى : بوابة السماء

وعندما تكتب هكذا :

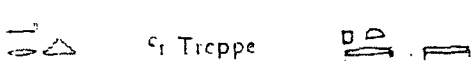

تعنى : سلم السماء ، أو مكان الصعود والهبوط من السماء

والنباتات تتكلم

نفس الشئ مع عالم النبات ، فالكلمات الدالة على النباتات لا تمت لا للغـــة العربيـــة ولا للغة العبرية بصلة .

أسماء النبات : العرتن والعشرق والهمقع

نبات العرتن : وتكتب هكذا :

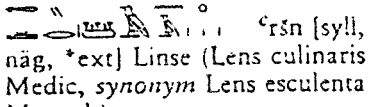

ʿrš n [syll, näg, *ext] Linse (Lens culinaris Medic, *synonym* Lens esculenta Moench)

وتعنى : نوع من البقوليات ، ربما العدس

نبات العشرق : وتكتب هكذا :

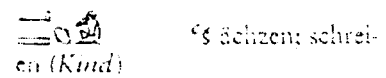

ʿš ächzen; schreien (*Kind*)

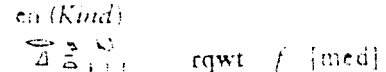

rqwt *f* [med] Resistenz-Erscheinung (*e. Krankheit*)

وتعنى : مضاد (او دواء) لحالة ما يسمى بالشرقة أو الغصة

نبات الهمقع : وتكتب هكذا :

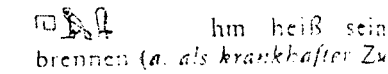

hm heiß sein, brennen (*a. als krankhafter Zustand*)

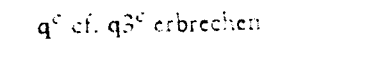

q^{c} cf. q3^{c} erbrechen

وتعنى : مادة أو دواء للسخونة والقئ

والملاحظ أنها نباتات لها استعمالات طبية ، كما تدلنا على ذلك معـــنى الكلمـــات فى المعجم .

أسماء المدن والأماكن تفشى أسرارا

أما عن مسميات الجزيرة فمنها مثلا : كلمة الحجاز ، وقد أوضحنا معناها فيما سبق وقلنا أنها تعنى بلاد النور .

أما كلمة تهامة فهو مسمى جغرافى للمنطقة التى تمتد طولا ما بين عدن وتخوم الشام مسايرة شاطئ البحر الأحمر فى شبه الجزيرة العربية ، وكلمة تهامة لا تستطيع معاجم اللغة العربية ولا العبرية أن تشرحها :

أما اللغة المصرية القديمة فتكتبها هكذا :

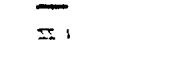

t3 ① Erde

hm heiß sein,

وتعنى : الأرض الساخنة أو شديدة الحرارة

وما يؤكد صحة هذا المعنى فقد ورد فى « كتاب أسماء تهامة » لعرام السلمى فى المقدمة : أن اشتقاق كلمة تهامة من « التهْم » وهو تغير الريح وركودها وشدة الحر .

وكلمة « تيماء » التى تشير إلى اسم المدينة المعروفة فى شمال الحجاز

تكتب بالهيروغليفية هكذا :

t3 ① Erde m3(w) neu

وتعنى : الأرض الجديدة أو أرض الحقيقة أو المصريون القادمون من ناحية البحر .

ورغم أن هذه المعانى لها دلالاتها فى موضوعنا إلا أن كلمة تيماء معنى آخر قد يكون مفاجأة للجميع :

② männliches Kind

فلو كتبت هكذا :

I3y

وتعنى : طفل ذكر

ماء :

Erscheinung (e. Vision 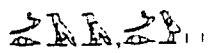 m33

وتعنى : رؤية ، رؤيا ، تبدى أو تمثل (ملاك أو إله)

*** ومن هذا المعنى الأخير للكلمة « تيماء » الذى هو : رؤيا فيها بشرى بطفل ذكر ، نكون قد حققنا كشفا جديدا ، فقد حددنا مدينة تيماء التى ظهر فيها ملاك الرب لإبـــرام (إخناتون) وبشر بولادة طفل ذكر هو إسحق .

وكلمة خيبر ، وتكتب هكذا :

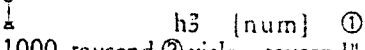 h3 [num] ①
1000, tausend ② viele, tausend"

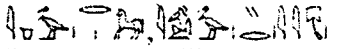
jbr [ext, näg, syll] Hengst

وتعنى : الألف جواد ، أى فيلق الألف جواد أو الخيالة

حصن نطاه فى خيبر : وتكتب هكذا :

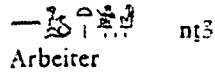 nṯ3t *f* [*coll] Art
Arbeiter

وتعنى : نو ع من العمالة

حصن ناعم فى خيبر ، وتكتب هكذا :

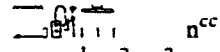 n^{cc} das / der Beste
rw.tw hr ṯ3y p3y=sn ≈ man nimmt das Beste von ihnen (*d.h. die Besten*)

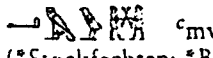 ^{c}mw e. Kampfart
(*Stockfechten; *Boxen)

وتعنى الصفوة من المبارزين أو فن القتال بالعصاة

حصن القموص أيضا فى خيبر ، وتكتب هكذا :

qm3w
Worfler jrj-ꜥt n = Magazinver-; walter der Worfler

dt / ① Leib, ③ Person;

وتعنى طبقة « المذرين » أى الذين يعملون فى تذرية الحبوب بالمذراة

حصن الوطيح : وتكتب هكذا :

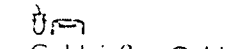
wdḥ(-nbw)
Goldgießer, Goldschmelzer

وتعنى : الذين يعملون فى صهر الذهب ، أعمال صياغة الذهب

يثرب ، وتتكون من كلمتين ، الاولى : يثر : وتكتب هكذا :

jtr [ext, syll, näg] Gefangener

فتعنى : مطارد أو حبيس أو هارب

أما مقطع إب : ويكتب هكذا :

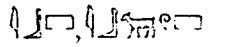
jbw Zufluchtstätte, Asyl, Zuflucht (*a. fig*), Schutzhütte

وتعنى : ملجأ أو ملاذ أو مهرب

والكلمة كلها تشير إلى : مكان لهجرة إنسان مطارد من قومه ، حتى لنقول إن الكلمة معناها : مهاجر نبى

مكة : وتكتب هكذا :

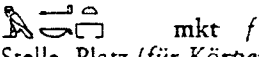
mkt *f.* richtige Stelle, Platz (*für Körperteil, dort wo die Götter stehen*); sein Platz im Leben

وتعنى : المكان الصحيح حيث الآلهة

أو تعنى عطية أو هدية أو منحة ، كما قلنا قبلا ، إن معناها هدية أو أعطية الـــرب ، وهى نفس الاسم لأم القرى التى هى بكة « باخيت » وقد أوضحنا معناها ، كما هى علـــى حجر العريش .

أما مسمى عكاظ ، وكان يطلق على سوق ، ومكان للمباراة الشعرية ،

وتكتب هكذا : من كلمتين :

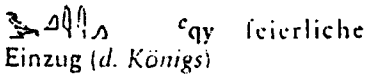

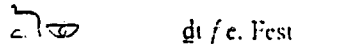

وتعنى : احتفال أو عيد دخول الموكب الملكى

الطائف : وتكتب هكذا :

وتعنى : الشرقية أو الأرض الشرقية ، وهى تقع فعلا فى شرق مكة

فدك : وهى تشير إلى اسم مكان فى شمال الجزيرة ، ليس لها معنى فى اللغة العربيـــة ولا العبرية ، ولكنها فى المصرية تكتب هكذا :

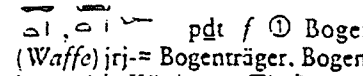

وتعنى : كتيبة من فرق الجيش حاملى القسى

تبوك : وهى أيضا اسم لمدينة فى الشمال ، وتكتب هكذا :

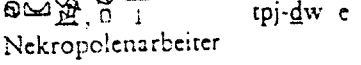

وتعنى : عمال الجبانة

ثقيف : وتكتب هكذا :

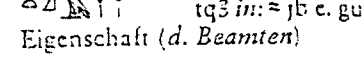

وتعنى : مكان أو مقر الكتيبة من الجيش أو الحراس (الأشلاق)

وقد تعنى أخلاق وتقاليد طبقة الموظفين ، وربما هى أصل كلمة ثقافة ومثقف .

هوازن : وتتكون من كلمتين : وتكتب هكذا :

h3w {pl} Pflichtdienster

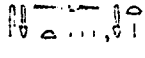

snt / Flaggenmast

وتعنى : رافعوا الأعلام

مسميات اليهود تنكر يهوديتهم

وأخيرا أسماء القبائل اليهودية القاطنة آنذاك فى الجزيرة :

ولما كان الكثير يدعون أن يهود الجزيرة العربية هم أمثال يهود فلسطين ، فقد كان من المنطقى أن تكون أسماؤهم على الأقل عبرية ، ولكن هى وللمفاجأة ليست كذلك كما أنها ليست أسماء عربية بل إنها أسماء مصرية قديمة :

النضير : وتكتب هكذا بعد حذف الألف واللام أداة التعريف العربية :

nṯr ① [allg] Gott ② Gottheit, Gott (*a. König, der vergöttlichte Tote*); Dämon ③ = wʿ Einziger Gott (*a. König*) ≈

وتعنى : الإله أو الملك

وبنو النضير وتعنى : أبناء الآلهة أو الملوك . أى عائلة الملك .

قريظة : وتكتب هكذا :

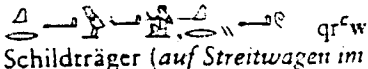

qrʿw Schildträger (*auf Streitwagen im ägyptischen und hethitischen Heer*)

ḏt *f* ① Leib,

وتعنى : حاملو الدروع (على العجلات الحربية)

خزاعة : وتكتب هكذا :

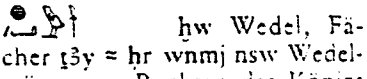

ḥw Wedel, Fächer ṯ3y = ḥr wnmj nsw Wedelträger zur Rechten des Königs (*e. Ehrenamt*)

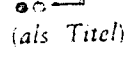

ḥw-ʿ *Schützer (*als Titel*)

وتعنى : حماة الإبن العظيم (الملك او ابنه)

أو تعنى حامل مروحة الإبن العظيم أو ابن الملك

قينقاع : وتكتب هكذا :

q3j cf. ᶜh Dienstmann

*qᶜ *e. Metall

وتعنى : صناع المعادن أو ربما الحدادين

ونون هى رابط الإضافة

وإذا كتبت هكذا :

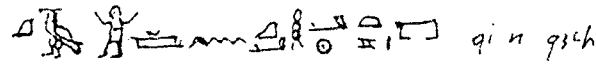

qi n qsch

فإن معناها يكون فى هذه الحالة أعلى وأعظم البيوت ، عليه القوم

الأوس : وتكتب هكذا :

wḏtj der befehlen sollte

ومعناها : الإدارة

ḏsr Heiliger, Erhabener (*epit vom Sonnengott*)

جسر : وتكتب هكذا :

ومعناها : المقدس ، عظيم الشرف

الخزرج : وتكتب هكذا :

ḥ3 [num] ① 1000, tausend ② viele, "tausend"

srḏ mit Dächsel / Meißel bearbeiten (m an *Gerät*), meißeln; hämmern

ومعناها : طبقة متخصصة من الفنيين فى أعمال النحت

ومن حصون يثرب : حصن لحسان بن ثابت اسمه : فارع ، وواضح على هذه التسمية انها مصرية بحتة ، فارع أو بارع ، حتى أن مقطع « رع » ما يزال فى الكلمة .

أما المستعمرات اليهودية فقد أطلق عليه : أطم أو آطام ومفردها أطمة

وتكتب هكذا :

ṯ3mt / e. Wirtschaftsanlage [cf. ṯ3t]

ومعناها : مزرعة ، أو منشأة زراعية ، أيضا بمعنى عزبة أو أبعادية . وهذا المعنى أصح من أن نقول أن معناها الحصن ، لأن الحصن يحمل السمة الحربية ولا يضم بالضرورة أرضا زراعية تابعة له .

أما اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء اليهود وإل جانبها اللغة العربية طبعا فهى المفاجأة الثانية ، ألا وهى اللغة المصرية الوسيطة على سبيل التحديد ، ورغم قلة الأمثلة المسجلة ، إلا أننا نسوق بعضها فى مناسبته الآن :

فى الموقف الذى روته كتب السيرة الإسلامية من أن خمسة من الأنصار أرادوا أن يقتلوا « سلام أبى الحقيق » وكان يقيم فى حصن خيبر ، وبعد أن قتلوه فى ظلام الليل فى بيته ، لم يكونوا متأكدين أنه مات بالفعل ، فلما أرادوا أن يتحققوا من ذلك فانطلق أحدهم متسللا داخل الحصن فسمع امرأته وقد قربت المصباح إلى وجه المقتول وصاحت : – فاظ وعاد رجل الخزرج إلى رفاقه وقال لهم : والله ما سمعت من كلمة ألذ إلى نفسى من كلمة « مات » ، فإذا تأملنا كلمة « فاظ » فإننا نعجب ، فالكلمة ليست عربية ، وإلا لقيل : فاضت روحه أو فاظت روحه أو نفسه ، ولكن هذه الكلمة وأصلها فى المصرية القديمة هكذا :

pḏw "das ausgebreitete / vorgelegte Opfer

وتعنى : الضحية الملقاه والمسجاه على الأرض وهذا فعلا وصف دقيق لما كان عليه أبو الحقيق فى تلك اللحظة ، فقد بينت الكلمة « فاظ » وحدها الموقف فى غاية الدقة وليس مجرد أنه مات .

مثال آخر : « خرج أهل خير صباحا يحملون فؤسهم لعمل فى الزراعة ، فرأوا جيش المسلمين يستعد للتحرك تجاههم ، فجروا يتصايحون عائدون إلى الحصون يقولون : محمـــد ، والله محمد والخميس » وكلمة الخميس : ليست عربية ولا عبريـــة بـــل مصـــرية قديمـــة ، وتكتب :

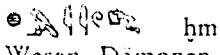

وتعنى : المخربون ، أو المدمرون

وأيضا كلمة : المسك ، وتكتب هكذا :

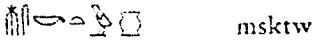

ومعناها : يراد بها الكنز المدفون المخبأ تعنى بالمصرية كيس أو جوال[١٠]

كشف الكشوف

ومن هذا نخلص إلى الكشف النهائى :

والذى يتمثل أولا فى مجموع الكلمات كلها وهو أن اللغة المصرية القديمة صبغت هذه المنطقة بصبغة مصرية بحتة لها الدلالة الوحيدة أن أقواما من المصريين قد هاجروا فى هجرة جماعية منظمة إلى هذا المكان .

وثانيا أنهم كانوا روادا فى هذا المكان حيث أنهم أعطوا للمكان مسمياته ، وثالثا من مجموع الكلمات :

نخلص إلى أن دولة كاملة قد نزحت إلى هذا المكان بمختلف طوائفها شعبها من عمال متخصصين فى البناء والزراعة والصناعة وأقامت مستعمرات وآطام متقدمة التقنية ، وبعض فرق جيشها التى انتشرت فى الأماكن المذكورة وليس هذا فقط ، بل إن هذه الأقوام كانت بصحبة ملكها .

وواضح من كل هذا وبعد هذا أننا أمام كشف جديد خطير لا يقل فى أهميته عن أى كشف من كشوف علم الطبيعة أو الكيمياء ، والكشوف فى مجال علم اللغة باب كبير الأهمية عظيم الفائدة ، فليس ببعيد عن زماننا ما قام به العالم الفرنسى شامبليون فى مجال المصريات وقد استطاع أن يفك رموز الكتابة المصرية القديمة ، وما نتج عنه من إزاحة التراب عن حلقات التاريخ المصرى القديم .

ومحاولة إعادة بناء الماضى بالصورة التى حدثت بها بالفعل بواسطة الشئ القليل الذى بين أيدينا وتواصل حلقاته ليس شيئا هينا على الإطلاق ، ولكننا سنبذل المحاولة لتجميع لبنات التاريخ المعتم لتلك الحقبة .

أما عن التفريق بين ما هو عربى وما هو يهودى ، وما هو « يهودى » وما هو « يهودى » ، وعن حركة ما أسموه باليهود بصفة عامة إلى هذه المنطقة وما جاورها فى اليمن ، فسنوضحه فيما بعد عندما تكتمل الصورة فى الفصول التالية .

مواكب التوحيد فى المنفى

نقول إنه بعد حصار مدينة الرب آخت آتون فى مصر أياما وليالى عصيبة لعظيم من عظماء التاريخ ، اضطر للهرب بأتباعه ومملكته بعد توقيع وثيقة ذل بأن يغادر المملكة المصرية كلها ، ولا يدخلها فخرج من مصر إلى العريش ثم إلى الجنوب إلى حيث بيت الله الذى كان هناك فى البداءة فى مكة التى هى باخيت .

وفى الموضع الذى حمل اسم « تيماء » تيمننا وتسجيلا لحدث جميل كما شرحنا سالفا فى معنى الكلمة ، جاءت البشرى لإخناتون من ربه بالولد الذكر من زوجته الملكية الأولى « نفرتيتى » بعد طول صبر ورضى بما وهبه إلهه من بنات وصل عددهن ستا من الزوجة « نفرتيتى » . وقد أسمى ابنه : إسحق ، وكلمة إسحق أيضا كلمة مصرية قديمة وليست على الإطلاق عبرية .

وتعنى البرى أو الوحشى .

ولنا عود حميد مع هذا الموضوع فى الفصول التالية .

هوامش الفصل الرابع

(١) عصور فى فوضى – عوالم فى تصادم – إيمانويل فليكوفسكى – مترجم – القاهرة – ١٩٩٩ .

(2) Grosses Handwoerterbuch - Aegyptisch - Deutsch .

(3) Grosses Handwoerterbuch - Aegyptisch - Deutsch .

(4) Grosses Handwoerterbuch - Aegyptisch - Deutsch .

(5) Grosses Handwoerterbuch - Aegyptisch - Deutsch .

(٦) النبى إبراهيم والتاريخ المجهول – سيد القمنى – مدبولى الصغير ١٩٩٦ .

(٧) اليهود أعداء محمد – أحمس حسن صبحى – القاهرة ١٩٩٨ .

تاريخ اليهود – د. إسرائيل وفنسون – دار قطر الندى – ١٩٩٥ .

(٨) محمد واليهود – د. بركات أحمد (هندى) الهيئة العامة للكتاب – ١٩٩٦ .

(٩) أخذت مسميات الجزيرة من – كتاب أسماء جبال تهامة – عرام بن الإصبع السلمى – دار الكتب العلمية – بيروت – ١٩٩٠ .

(١٠) أخذت كل هذه الترجمات من Grosses Handwoerterbuch - Aegyptisch - Deutsch – وقمنا بتصويرها من اصل المعجم .

الفصل الخامس

جلجامش وخمبابا

ملحمة جلجامش مثال على خلود العمل الفنى الذى يتجاوز حدود الزمان والمكان ، فبعد آلاف من السنين من تدوينها يقرؤها البشر من شتى الثقافات فى أركان المعمورة اليوم وكل يوم وكأنها كتبت بالأمس القريب ، فجلجامش لم يعد ذلك البطل والفارس الذى عاش فى الألف « الثانية » قبل الميلاد ، بل إنه الآن وفى كل عصر واحد منا يحدثنا ونحدثه بكلام لم ولن يفقد حداثته ومعاصرته .

وأوروك التى رفع أسوارها وعاش فيها وحكمها وخرج منها وعاد إليها لم تكن على وجه التحديد مكانه ولا مكان ولادته كما يقول النص ويؤيده الباحثون ، ولكنه عاش لها وبها .

والملحمة اختلف اللغويون فى ترجمتها وفهم الكثير من أبياتها وسطورها كما اختلفوا فى تأويلها وتحليلها ، فهل يكمن السبب فى ذلك فى اختلاف آلية تفكيرها اليوم عنها فى الزمن الذى كتبت فيه ، أم أن كاتب النص أخفى عمدا فكرته الأساسية وراء عدد من الأفكار الظاهرة ؟

لنقترب رويدا من النص لنرى ما الأمر ..

تاريخ الملحمة ومصادرها :

عثر على النص فى نينوى ضمن أنقاض مكتبة « آشور بانيبال » (توفى سنة ٦٢٦ ق.م) فى العراق ، وهو النص الذى يعزى إلى كاهن بابلى عاش حوالى عام ١١٠٠ ق.م ، والنص الأصلى يعود لزمن أبعد من ذلك ، إبان حكم حمورابى[1] . كما عثر فيما بعد على ترجمة

لنفس النص مختصرا ويعود زمن تحريره لحوالى سنة ١٣٥٠ ق.م . كما عثر على كسرات تحمل نفس النص فى «أور» وتعود إلى عام ١٢٠٠ ق.م ، كما عثر على نص مكتوب باللغة الأكادية فى فلسطين .

وفى الدراسة التى ألحقها «فراس السواح» فى ترجمته لنص الملحمة والذى ترجم الملحمة عن عديد من الباحثين أمثال : طه باقر ، ألكساندر دير هايدل ، سامى سعيد أحمد ، سبايسر ، جاكوبسون ، جون جاردنر ، دياكونوف ، يقول : إذا كان النتاج الفكرى والأدبى مرآة لحركة المجتمع ، فإن جلجامش هو أول فرد فى التاريخ عد من الشخصيات البارزة التى تفعل فى الجماعة وتؤثر فى منحى تطورها بدل أن تكون انعكاسا لحركة الجماعة . فقبل ملحمة جلجامش لا نعثر فى أدبيات الشرق الأدنى القديم على ملامح واضحة للفرد ، فالنصوص جلها تتعامل مع الشخصيات الإلهية الطاغية التى صنعت الكون وخلقت الإنسان وبنت له مدنه وعلمته وأسست له تقاليده الحضارية ، فإذا عثرنا على الفرد لم نستطع رسم ملامحه الواضحة أو نحدد سماته المستقلة ، سواء عن حركة الجماعة أو عن إرادة الآلهة التى تمسك بخيوط مقاديره ومصائره .

وفجأة ينتصب جلجامش ، كأول شخصية تعلن عن حضورها فى استقلال عن الجماعة وعن آلهتها ، معلنا ابتداء عصر الإنسان الذى يرث الأرض ويشق عباب الزمن الآتى كابن بار لله ، يطمح إلى الجلوس عن يمينه ، لا كعبد مسلوب الإرادة واقع فى دائرة الميلاد والموت المفرغة شأن بقية الأحياء .

وجلجامش الفرد لم يؤسس لفردية فوضوية خارجة عن الكل ساعية وراء أهدافها وغاياتها المستقلة والمتضاربة مع غايات الجماعة والبحث الإنسانى المشترك ، بل جعل من نفسه النموذج الفرد الذى يمكن لأى شخصية فى الجماعة أن تتشكل وفقه وتنسج على منواله ، ليغدو المجتمع فريقا من الأحرار لا حيوانا بآلاف العيون . وهو بتطوره الشخصى من الفردية الفوضوية إلى الفردية الجماعية المنظمة ، ومن الاهتمام بالمصير الخاص إلى العناية بالمصير الإنسانى ، إنما يحدد المسار الذى يحرر الأفراد ويربطهم فى آن معا فى مسيرة الإنسانية الكبرى نحو معرفة الذات ومعرفة الكون وخلافة الله[٢] .

ولسوف نتابع فى هذه الدراسة المعطيات الممكنة فى هذه الملحمة ، ونرفع الأستار تدريجيا عن المعنى الحقيقى لهذا العمل ، وأقول المعنى الحقيقى ، لأن التفسيرات التى طرحت لم تصل إلى كنه هذا النص ودلالاته التاريخية الحقيقية .

فجلجامش « هو الذى رأى كل شئ إلى تخوم الدنيا »

« هو الذى عرف كل شئ وتضلع بكل شئ »

« سيد الحكمة الذى بكل شئ تعمق (أحاط) »

« رأى أسرار خافية وكشف أمورا خبيئة »

« ..... جلجامش الصافى الروع »

« فاتح ممرات الجبال »

« ناقب الآبار فى سفوح الجبال »

« عبر المحيط ، البحر المترامى ، إلى حيث تشرق الشمس »

« وارتاد أصقاع الأرض بحثا عن الحياة »

« هل مثله من ملك فى أى مكان »

« هل يحق لغيره أن يقول : أنا الملك الحق ؟ »

« مضى فى سفر طويل وحل به الضنى والإعياء »

« وحفرت فى لوح من حجر كل الأسفار »

« الرقيم واللوح من اللازورد مدون عليه كل شئ »

« رفع سورا لأوروك المنيعة : اعل سور أوروك ،

امش عليه ، المس قاعدته ، تفحص صنعة آجره ،

أليست لبناته من آجر مشوى ، أليست أساساته من سبع طبقات »

« شار واحد (وحدة المسافة) للمدينة ، شار للبساتين ،

وآخر للمروج ، والبقية بلا زرع »

« ثلاث شارات والأرض غير المزروعة هى مدينة أوروك »

« هل من مثله فى أى مكان »

« هل يحق لغيره أن يقول : أنا الملك الحق؟ »

وفى النص الحثى يقول :

« وهبه شمش السماوى ملاحة ، وإلى مدينة

أوروك قد أتى ، ثلثاه إله وثلثه بشر »

(أى أنه ليس من هذا المكان وأنه قد استولى على عرش أوروك)

« وعلى صوت الطبل يوقظ رعيته »

وهذا المعنى دعانا إلى البحث عن معنى كلمة « أوروك » الذى هو اسم مدينة جلجامش :

فكلمة أوروك كلمة مصرية قديمة وتتكون من كلمتين :

الأولى « أو » وتكتب هكذا :

3w [Musik]
"Trommeleinheit

وتعنى : آلة الطبلة

والثانية « روك » وتكتب هكذا :

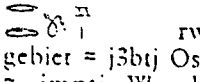

rwḏ Gebiet, Ufergebiet ≈ j3btj Ostdelta, Ostufer ≈ jmntj Westdelta, Westufer

وتعنى : مكان ، مكان على ضفة نهر

ويصبح المعنى الكلى : المكان أو المدينة التى تقرع فيها الطبول[٣] .

وهذا يجعلنا ليس فقط أن نربط بين جلجامش وشخصيتنا ، بل لقد دعانا هذا إلى ما هو أبعد من ذلك ، ألا وهو أن نتفحص مسمى « أور » فى العراق ، فهذه الكلمة يبدو أنها اختصار مغلوط لكلمة أوروك ، ولو أردنا اختصارها لكان المنطقى إما أن نقول « أو » وإما « روك » فهذا الاختصار المنطقى من الكلمة .

« سجد جلجامش أمام شمش »

« لتهدأ إذن روحى المضطربة »

« ولتعد بى سالما إلى مرفأ أوروك »

« ولتبسط علىَ حمايتك »

« جرت الدموع على وجه جلجامش »

« ..... طريق من قبل لم أسلك (ألا وهو طريق الحرب واستخدام القوة) »

« ثم حفر بئرا قربانا لشمش »

(وحفر البئر وتقديمها قربانا للإله هو تقليد أيضا توراتى يتكرر فى قصة إبراهيم فى سفر التكوين)

هذه الأمثلة من ملحمة جلجامش تعطينا فكرة عن شخصيته وحياته ، وهى شخصية فذة غريبة عن المكان قد أتت إلى هذا المكان مضطرة ، بعد أن جاب كل تخوم الدنيا بحثا عن المكان الذى يؤمنه وكان أول شئ فعله هو بناء سور للمدينة (وقد تعلم بطل الأحداث أنه لا أمان لمدينة إلا بسورها)

والتى كان فى كل صباح يقرع الطبول ، وتقسيم المدينة إلى شارات بهذه الصورة قريب جدا من تنظيم مدينة الرب « آخت آتون » فى مصر ، وسنشير فيما بعد على تفصيل أكثر لتقسيم المدن فى الرافدين .

أما عن هذا العمل الأدبى الرائع فلا نجد فيه ما أسموه بالملحمة فحسب ، بل إنها من الدرجة الأولى وثيقة تاريخية ، خلدت لنا ما فعلها بطلها الذى كان إلهه شمش ، والذى فى بداية وصوله للمدينة كان يحتاج إلى من يقف إلى جانبه ويعضده ، لكى يبنى دولته أولا ثم يرنو إلى استعادة عرشه من « خمبابا » أو « حواوا » عدوه اللدود الكائن فى غابات الأرز ، وكما قلنا سلفا إن استخدام كلمات مثل شمش أو آتون أو رع إنما هو من قبيل الإشكال اللغوى الذى لم يمكن حله فى حينه ، كما أن كلمة الإله أو الله إنما هى تحريف عن كلمة رع

التى كانت تعنى فى يوم ما – الشمس – ثم تجردت الكلمة بمرور الزمن من ملابساتها ومعانيها القديمة .

وهذه الوثيقة تعرض لنا بما لا يدع مجالا للشك كيف أن بطلها قد أتى إلى هذا المكان لأنه كان يبحث عن المكان الذى هو بالفعل خارج عن نطاق المملكة المصرية فوجده ، وكان هذا المكان منطقة مستنقعات محدودة لأن الوضع الجغرافى للمنطقة كان يختلف عنه اليوم . فالخليج العربى كان ممتدا داخل اليابسة التى تكونت فيها المستنقعات العالية الملوحة إلى تلك المدن .

كما أن الوثيقة نوع من الدعاية لتثبيت ملك الملك الجديد فإنما هى أيضا دعوة للوحدانية لأول مرة فى بابل ، فقد قوضت الملحمة عرش الإلهة عشتار وإله القمر « الثور السماوى » الذين كانا لهما صولاتهما فى عبادات تلك المنطقة ، فكما تذكر لنا الملحمة :

« وجلجامش كمصارع ثيران مدرب »

« جبار و ..... »

« بين مؤخرة الرأس والقدمين غيب نصله »

« بعد قتلهما ثور السماء انتزعا قلبه »

« ووضعاه أمام شمش (قربانا) »

« ثم تراجعا وسجدا »

« (بعد ذلك) استراح الأخوان »

« ولكن عشتار أرتقت أسوار أوروك المنيعة »

« صعدت إلى الذروة وصبت لعناتها »

« ويل لجلجامش ، قد مرغنى بالتراب من قتل ثور السماء »

« عندما سمع إنكيدو من عشتار ما قالت »

« انتزع فخذ الثور الأيمن ورماه فى وجهها »

« لو استطعت بك إمساكا »

« لنالك منى مثل ما ناله »

« ولربطت أحشاءه إلى وسطك »

« فجمعت عشتار البنات المنذورات »

« نساء المعبد وبغاياه »

« وعلى فخذ الثور السماوى أقامت مناحة »

فهذه الأبيات بهذا الوصف الأدبى الساخر لما حدث للإلهة عشتار وللثور السماوى (القمر) يقضى جلجامش على معبودات بابل الرئيسية ليمهد الطريق للإله الأوحد شمش .

وقد يقول البعض ما علاقة شخصيات الوثيقة بإخناتون :

نقول أن أبطال الوثيقة هم جلجامش وإنكيدو ؛ إنكيدو هو نطق الأسيويين لكلمتى : عنخ توت « إنكى دو » الذى هو توت عنخ آمون ، وسنفرد له كتابا آخر ،

أما جلجامش ، فهى كلمتان جل وجامش

والناظر من أول وهلة يرى ماحورَ فى الكلمتين وهو ليس بالتحوير الكبير ، فكلمة « جل » ليست فى الحقيقة إلا كلمة « خل » بمعنى خليل بالعربية ، أما كلمة « جامش » ، فهى كلمة شمش الأكادية التى تدل على الإله أو الإله شمش كما يقولون ، فلو تذكرنا ما قلناه فى تحليل إسم إخناتون « آخ » و« آتون » لوضح كل الوضوح :

أن اسم « خل شمش » هو ترجمة حرفية لاسم « آخ ن آتون » ، وتعنى كل منهما : خليل الله .

ولكن لماذا كل هذا ؟ نقول إن الملك إخناتون الذى ترك عرشه وملكه وأنزل عنه عنوة وأرغم على مغادرة البلاد لم يكن أمامه إلا أن يهيم فى الصحراء العربية لفترة ، ثم يبحث له عن مكان يدعو إلى ربه فيه ، فلم يجد سوى هذا المكان فى جنوب الرافدين ليقيم عليه دولته ، وهو جزء من المملكة المصرية التى كانت تمتد شمالا إلى سوريا ثم الفرات . أما جنوب الرافدين فكان خارج هذا النطاق .

واقتراح أن تقام دولة لجلجامش « إخناتون » فى هذا المكان لا بد وأن يكون قد ورد من أتباع ديانته الآسيويين والذين نعرفهم من خلال المناظر فى مقابر العمارنة ، بل إننا لو قلنا فى هذا المقام إن مقابر « بنى حسن » فى مصر الوسطى بذلك المنظر الفريد لشخصية « أبشى » أو « أبيشوا« أو « أبشو » الذى أتى إلى مصر فى عهد إخناتون لمبايعته واتباع ديانته ، والذى فسر فى وقت ما على أنه زيارة سيدنا إبراهيم لمصر ، لا تنتمى للدولة الوسطى على الإطلاق ، لما تجنينا على التاريخ ، بالعكس ، ولن نثير قضية « مقابر بنى حسن » فى هذا المقام ، وسنرجئها لمناسبة أخرى .

على العموم أتى هذا الاقتراح من « أبيشى » نفسه لأنه يعرف ما كانت عليه بلده وظروفها ، وأبيشى هذا نفسه سيحكم بابل فى فترة لاحقه بعد حمورابى بل كان خليفته . وكان لا بد أن يمهد لحكم الملك الجديد الغريب عن المكان بأمثال تلك الملاحم ، التى تربطه بالمكان أولا ثم بالبطولات وببناء المدن والانتصارات ، حتى ولو لم تحدث هذه البطولات فى الحقيقة .

أما عن الوثيقة التى بين أيدينا الآن المسماة « ملحمة جلجامش » فهى فى الحقيقة ليست ملحمة قصد منها إذاعة البطولات والتغنى بها فحسب ، بل فى واقع الأمر ، وهذه تعتبر مفاجأة كبرى ، إنها مرثية فى وفاة« توت عنخ آمون » . الذى هو « إنكيدو – عنخ توت » ، ومرثيه فى وفاة أخت إخناتون أو أخت توت عنخ آمون ، الأميرة « باكت آتون » وابنته « ماكت آتون » التى ماتت من قبل فى آخت آتون ، والذى رمز لهما فى الملحمة بالرمزين الباكو والماكو كآلتين موسيقيتين .

« ليتنى تركت الباكو فى حانوت النجار »

« ليتنى تركته مع زوجة النجار التى هى كأمى »

« ليتنى تركته مع ابنه النجار التى كأختى الصغرى »

« والآن من سيعيد إلى الباكو من العالم الأسفل ؟ »

« ومن سيعيد إلى الماكو من العالم الاسفل ؟ »

« فقال له خادمه إنكيدو (بعد وفاته ووصوله إلى العالم السفلى)، قال لجلجامش :

« سيدى ، ما الذى يبكيك ، ما الذى يوجع قلبك

« اليوم آتيك بالباكو من العالم الأسفل »

« وآتيك بالماكو من العالم الأسفل »

وصراع جلجامش وإنكيدو ضد العدو اللدود « خمبابا أو حواوا » إنما يشير إلى صراع لاستعادة عرش مصر من « حور م حاب أو حور محب » ومسمى خمبابا أو حواوا ، إنما هو تحريف لاسم حور م حاب . وغابات الأرز رمز يشير إلى مصر ومملكتها . وأدعو كل من له علاقة بهذا العمل أن يقرأ الملحمة ثانية وثالثة من هذا المنظور الجديد ، ويحكم .

إذن : بعد أن انتشرت الأمة المصرية التى كانت تكون مدينة الرب آخت آتون بجميع طوائفها تحت لواء إخناتون ، ثم استشارة المستشارين من الآسيويين مثل أبيشى وابر إيل وغيرهما ، فقد اقترحوا أن يقيموا لملكهم ونبى الدعوة دولة فى جنوب الرافدين ، فانطلق الركب بمن أبدى الاستعداد للرحيل وبقى الآخرون فى أماكنهم فى الحجاز ، ومنهم ابنه « إسماعيل » قربان الله أو نفر نفرو آتون مرى كيا . ولكى يمهدوا لحاكمهم كان لا بد من صياغة ملاحم بطولات تمجد الحاكم الجديد فى المكان على غرار ملحمة جلجامش . والتى بها يهدم جميع المعبودات ليمهد لإلهه الواحد شمش الذى هو آتون ، وبرثى بها فى ذات الوقت أيضا « توت عنخ آمون » والحقيقة أن ما جاء فى الملحمة من أحداث ومواجهات مع خمبابا لم يكن فى الواقع سوى أمانى ، ولم يحدث أى نصر بهذا الشكل . ولكن هذا هو الجانب الملحمى والأسطورى فى العمل .

نظرة فاحصة فى تاريخ الرافدين

إن المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن حضارة الرافدين تكاد تكون مقصورة على النقوش والآثار الخاصة بها ، ويرجع الفضل إلى « بوتا » قنصل فرنسا بالموصل فى البدء بعمل حفائر منظمة بغية الكشف عن آثار امبراطورية آشور القديمة ، (طبعا تخلى عن وظيفته الدبلوماسية ، لا أدرى كيف ، لينقب عن الآثار) فهو الذى كشف فى عام ١٨٤٢ ميلادية فى جهة « خور سا باد » عن مدينة دور شارو كين التى شادها « سرجون » فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى استأنف الإنجليزى « لايارد » طائفة من الأعمال التى كان بوتا قد تركها ، فكشف عن أطلال نينوى القديمة وفيها المكتبة الهامة للملك « آشور بانيبال » (القرن السابع ق.م) ولم ينس « ل. ديلابورت » فى كتابه « بلاد ما بين النهرين »[٤] فيما يتعلق ببابل ذلك العمل الذى قام به « إرنست دى سارزك » فقد عين هذا الرجل وكيلا للقنصلية الفرنسية بالبصرة وتسلم أعمال وظيفته فى يناير من عام ١٨٧٧ م ، ولم يكد يمضى شهران على تعيينه حتى بدأ ينقب فى أكوام الرمال التى يطلق عليها « تلو » (نفس الشئ .. يترك مهامه الدبلوماسية ليبحث عن الآثار ، ربما كان معنى الدبلوماسية فى القرن التاسع عشر هو التنقيب عن الآثار!!)

وما إن بدأ هذا الرجل عملية الحفر حتى خرجت له عشرات الآلاف من النصوص فى شكل رقم طينية . طبعا كانت منتظرة له قرب سطح الأرض .. زكائب زكائب !!!

حل رموز المسماريات : وقبل أن نستطرد فى بحثنا نود أن نعرض موجزا لتاريخ وتطور حل رموز الكتابات البابلية والآشورية :

ويطلق على هذه الرموز أيضا المسمارية أو الإسفينية ، لأن كل علامة منها تشبه المسمار أو الإسفين ، وحل هذه الرموز يرجع إلى عهد أبعد من كشوف بوتا والآخرين السالفة الذكر ، فلقد كانت المحاولات الأولى تجرى على مجموعة من إحدى وأربعين علامة من الكتابة البابلية ، كانت تكون العلامات المقطعية فى النقوش الفارسية الأكمينية . وبعد

« بيترو دى لافالى » الذى نقل فى عام ١٦٢١ م خمس علامات من أطلال برسيبوليس وتبين معنى الكتابة ، أتى شاردان (١٦٧٣م) وكيمفر (١٧١٢م) وكورنى دى برين (١٧١٨م) ببيانات أكثر أهمية . وحوالى ١٧٦٥ م تمكن نيبور من إيجاد نطق بعض كتابات كاملة ولاحظ أنها تتكون من مجموعات فيها ثلاثة أشكال مختلفة من الكتابة إذا نقشت فى سطر واحد ، فإن أبسطها يكون دائما جهة اليمين وأصعبها يكون جهة اليسار، وفى عام ١٧٩٨م توصل تايشن إلى معرفة أن كلمات نصوص النوع الأول يفصل بعضها عن بعض علامة على شكل المسمار المائل .

وفى عام ١٨٠٢ م قدر مونتر أن لغة هذه الكتابة الأولى لا بد أنها تقارب لغة الزند التى تفصل كذلك بين الكلمات ، وقد حاول أن يحل رموز هذه اللغة ولكنه لم يوفق إلا فى ثلاث علامات للحركة وثلاث علامات صامتة . وفى نفس العام اعتمد جروتفند على بعض الاعتبارات الأثرية فى محاولته حل معميات هذه الكتابة الأولى ، وقد وجد أن الكلمة « والتى اعتقد تايشن ومونتر أنها تتضمن اللقب الملكى » توجد كثيرا مكررة مرتين عند مستهل النص ، وفى المرة الثانية تنتهى بنهاية رأى فيها علامة الجمع مما يعطى مجموعها معنى « ملك الملوك » . ولا شك فى أن الكلمة السابقة تتضمن الاسم نفسه للملك بحيث تكون الصيغة فلان ملك الملوك ، والمجموعة التى تعنى ملكا ، ترد أحيانا ككلمة ثالثة بعد هذه المجموعة وفى هذه الحالة لا بد أن يكون لدينا اسم الأب يسبقه لفظ معناه « الابن » ، أى تكون الصيغة « فلان » ملك الملوك ابن « فلان الملك » . وفى مكان آخر يوجد بالمقارنة « فلان ملك الملوك ابن فلان ، دون أن يكون هذا الأخير ملكا » . ولما كان الأمر يتعلق بنقوش « بريسبوليس » فإن هذه الصيغة الثانية لا بد وأنها تذكر اسم مؤسس الأسرة الأكمينية ، فإذا كان الأمر يتعلق بكورش الذى كان كل من أبيه وابنه يحمل نفس الاسم فإن فلان وفلان يكونان شخصا واحدا ويكون فلان هو دارا ، وحينئذ فإن الترجمة يجب أن تكون :

اكسر كسس ملك الملوك ابن دارا الملك ...

دارا ملك الملوك ابن هستاسب ...

ولكى يحل جروتيفند رموز ثلاثة الأسماء الأعلام هذه استعان بالنطق القديم وأمكنه أن يحقق بصفة نهائية حركتين ويعين الحرف الصامت فى عشر علامات مقطعية . ولقد أكمل عمله بعده أحد عشر عالما من بينهم « لاسن » و« برنوف » و« هنكس » و« راولنسون » ، ولم يعرف « أوبير » المقطع -لا- إلا فى عام ١٨٥١م ، أما العلامة الرمزية التى يختفى وراءها اسم « أورمزد » الإله الوطنى فقد ظلت مستعصية على الحل حتى عام ١٨٧٤ م .

أما ثانية كتابات برسيبوليس فقد كانت مثار صعوبات كثيرة ، ولكن الرأى اتجه بحق إلى أن ثلاث الأقاصيص لا بد وأنها تروى نفس الشئ بثلاث لغات مختلفة ، ولقد لوحظ أولا وجود علامة خاصة تسبق أسماء الأعلام ، ثم بذلت محاولات لترتيب العلامات تبعا لعدد واتجاه عناصرها . وكانت أول محاولة جدية للترجمة هى التى قام بها عام ١٨٤٤م الدانمركى « وسترجارد » . وقد كشف هنكس عن مقاطع بعض العناصر (١٨٤٦م) ودرس « سولسى » (١٨٥٠م) الصيغ النحوية ، وفى عام ١٨٥٣ م نشر « نوريس » نقوش (بهسيتون) التى جمعها رولنسون وقد روجع فيها الحل الذى اقترحه وسترجارد ، لقد كان من نتائج الحفائر التى قامت بها البعثة فى بلاد العجم أن أكثر عدد النصوص المكتوبة بهذه اللغة الإنزية التى كان يتحدث بها سكان « عيلام » غير الساميين .

أما الكتابة الثالثة فالفضل فى معرفة الكلمات الأولى منها يعود أيضا إلى « جروتيفند » فقد تمكن أن يفصل مجموعات العلامات التى تقابل أسماء كورش وهستاسب ودارا واكسر كسس . ولما كان قد لاحظ مشابهة هذه الكتابة لكتبات الآجر الذى عثر عليه فى أطلال بابل ، فقد وفق إلى تعيين المجموعة التى تتضمن اسم « نبوخذنصر » . وهكذا كانت الأحوال على وجه التقريب فيما يتعلق بمحاولة حل رموز هذه اللغة عندما أعلن بوتا عن كشوفه . أما عن النوع الثالث من كتابات برسيبوليس فقد أمكن فقط الوصول إلى معرفة عشرين من أسماء الأعلام المعروفة من النوعين الآخرين .

ولقد حاول « لوفن شترن » Loewenstern أن يصل إلى حلها فوجد لبعض العلامات أشكالا أخرى تكتب بها ووضع أساس لما أطلق عليه « توافق الأصوات » أى وجود علامات

مختلفة تؤدى صوتا واحدا . وقد تمكن « لونج برييه » من حل رموز بروتوكول سرجون على الآثار التى كشف عنها بوتا ورتبها إلى ٦٤٢ علامة مختلفة ، فوجد كما وجد لوفن شترن علامات ذات صوت واحد ، وميز كتابة « خورزاباد » عن كتابتى برسيبوليس وبابل وأكد أخيراً أن اللغة سامية . وفصل سولسى جملا صغيرة فى نصوص برسيبوليس تطابق جملا فى النص الفارسى وعين ١٢٠ حرفا ووجد نطقها . وكشف هنكس فى دبلن عن أساس الحروف المقطعية بمعنى أن بعض العلامات تساوى مقاطع وليس حروفا فقط . ثم اهتم سولسى أخيرا بنصوص خورزاباد واقتنع بأن النص نفسه قد كرر عده مرات وعمل مقارنات ، وبفضل استخدامه لقراءاته السابقه للعلامات أمكنه الوصول إلى ترجمة ٩٦ سطرا . واقترح رولانسون الذى كان قد نشر إذ ذاك ترجمة لمسلة نمرود دون تعليق – ترجمة فيها اختلاف بسيط .

وفى عام ١٨٥١ م قرأ رولانسون وترجم نص بهيستون الذى ينتسب إلى النوع الثالث من الكتابة فبين قيمة ٢٤٦ حرفا وكشف عن مبدأ « تعدد الأصوات » أو وجود علامات لكل منها عدة قيم وعدة أصوات . وفى السنة التالية تحقق هنكس من أن بعض العلامات تكون مقاطع مركبة ، وكلما تعمق البحث فى حل رموزها ازداد أمرها تعقيدا . عند ذلك رأت الجمعية الآسيوية بلندن أن تقترح على عدة علماء أن يحل كل منهم على طريقته الخاصة ومبادئه رموز نص تزيد سطوره على الثمانمائة ، وأرسل رولانسون وهنكس وفوكس وأوبير مخطوطاتهم ففتحت فى ٢٥ مايو سنة ١٨٥٧م ، وكانت النتيجة مرضية تماما. وقد طبعت التراجم الأربع لهذا النص الخاص بملك آشور « تجلات فلاسر الأول » على أربعة أعمدة لكى يتأكد الجميع من أنه قد عثر على مفتاح الكتابة الثالثة للنصوص الأكمينية وهى كتابة الآشوريين والبابليين[٥] .

ويستفاد من هذا العرض لاكتشاف المسماريات وفك رموزها أنه فى سنة ١٨٥٧م قد انتهى العلماء فعلا من معرفة أسرار تلك اللغة ومعرفة قواعدها أيضا ، وأنه أصبح ممكنا منذ هذا التاريخ ترجمة أى نص من وإلى هذه اللغة .

بداية التاريخ البابلى ما تزال فى ضباب

اختلف علماء تاريخ الشرق الأدنى القديم فيما بينهم فى تحديد بداية التاريخ فى منطقة الرافدين وتضاربت أقوالهم ، فقد كان الأب « كوجلر Kugler » قد حدد عام ٢٢٢٥ ق.م لبدء الأسر الأولى البابلية وذلك نتيجة لسلسلة من الأرصاد الخاصة بخسوف كوكب الزهرة فى عصر الملك « أميزادوجا » وخاصة ذلك الخسوف الذى حدث فى السنة السادسة من حكمه والذى يعد من بين التواريخ التى يعتبرها معروفة ، وهو من أجل ذلك يرجع هذا الخسوف إلى عام ١٩٧٢ - ١٩٧١ ق.م إلا أنه هو نفسه عاد فغير رأيه فى كتاب « من موسى إلى بولس » صفحة ٤٩٧ - إذ أدخل فى حسابه بعض الاعتبارات المتعلقة بأوقات جنى المحصولات !! طبقا لما ورد فى ألواح ترجع إلى نفس العصر وعلى هذا الأساس حدد عام ١٧٩٦ - ١٧٩٥ ق.م بدلا من عام ١٩٧٢ - ١٩٧١ ق.م ، ولقد ترتب على ذلك أن حذف من عصر الأسرة الأولى ومن كل ما سبقتها من أحداث مقدار ١٧٦ سنة ، ومعنى هذا أن تبدأ الأسرة الأولى عام ٢٠٤٩ ق.م ، وهو تاريخ شديد القرب من عام ٢٠٥٧ ق.م الذى يحدده « فيدنر » لبدء نفس الأسرة طبقا لاعتبارات أخرى ، ما هى تلك الاعتبارات يا ترى عند كل منهما ؟!!!

أما الفلكى « فوذرينجام » الذى أورد ذكره « لانجدون » فى كتابه فإنه لا يقبل الرأى الأول للأب كوجلر عن التاريخ الذى أورده (١٩٧٢ / ٧١) ويعلن استحالته من الوجهة الفلكية ، كما يرفض أيضا قبول التصحيح المقترح - اللهم اجعله خير !!!!!

لأن فى اعتقاده أن السنة الوحيدة التى يمكن أن تتطابق مع الوقائع الواردة فى الوثيقة المسمارية للعام السادس من حكم الملك « أميزادوجا » هى ١٥/١٩١٦ - ومن ثم فإن بدء الأسرة يقع فى عام ٢١٩٦ ق.م ، وإذا كان الأمر كذلك فيجب حذف ٥٦ سنة من تاريخ هذه الأسرة وما سبقها من أحداث ...[٦]

ولكن ألا يجدر بنا ، قبل التعجل بتعديل التاريخ المعمول به فى فرنسا ، الانتظار حتى يتم الاتفاق بين الفلكيين فى هذا الشأن ، الا إنا ندعو الله أن يتفقوا ، ربما هذه المرة مع كوكب آخر ، مع المريخ مثلا !!!!

هذا الخلاف طبعا واضح أنه مصطنع ، وواضح أنه ليس خلاف علماء حقيقيين يبحثون عن النتائج العلمية ، بل لا بد أن يكون فى الأمر شئ ، فما هو يا ترى هذا الشئ ؟؟!! أعتقد أنه ليس صعبا حدس هذا ....

فمرة يؤخرون التاريخ مائتى سنة ومرة يقدمون مائتين وأمثلة كثيرة أخرى ، وهم فى ذلك يهدفون إلى « اللعب » بتاريخ ملك معين بالذات حتى لا يتوافق به ؟؟!!

زد على ذلك : التصنيف التالى الذى هو مفروض أنه من واقع وثائق فعلية ...

لنر التاريخ الأسطورى ، ونعجب !!

مدة الأسرات السابقة على الطوفان ٤٥٦٠٠٠ سنة (أربعمائة وست وخمسون ألف) طبقا للوثيقة WB ٦٢ و٢٤١٢٠٠ سنة (مائتان وواحد وأربعون ألف ومائتان) طبقا للوثيقة WB ٤٤٤ والتى تذكر أيضا الأرقام التالية :

الأسرة الأولى فى كيش : ٢٤٥١٠ سنة وثلاثة شهور وثلاثة أيام ونصف !!!!

الأسرة الأولى فى أوروك : ٢٣١ سنة

الأسرة الثانية فى كيش : ٣١٩٥ سنة

الأسرة الثانية فى أوروك : (فجأة) ٤٢٠ سنة

الأسرة فى مارى : ١٣٦ سنة

الأسرة الثالثة فى كيش : (فجأة) ١٠٠ سنة

الأسرة الرابعة فى كيش : ٤٩١ سنة

الأسرة الخامسة فى أوروك : ٧ سنوات

*** هذه التواريخ السابقة والمدد الزمنية لحكم أسرات فى الرافدين موجودة فى المراجع كلها ، وقد نقلتها عن « ديلابورت » من كتابه « ميزوبوتاميا » ، ويشار إليها بأنها « تاريخ أسطورى » !!!

والواضح رغم التعليق عليها بكلمة أسطورى أنها لا بد أن تدرج فى كتب التاريخ ، فهل هذا لهدف العلمية فى البحث أم لهدف آخر ؟ أو ربما يكون للتهوين على الدارس عندما « يلعب » بمائتين أو ثلاثمائة أو أربعمائة من السنين فلا يكون الأمر ملفتا للنظر عند العبث بتاريخ الملك المعين إياه . أم ماذا وراءهم غير ذلك من تبريرات ؟؟!!

أما نظام الأسرات الذى اتبع فى الرافدين فلا تستطيع أن تتبعه بأى شكل من الأشكال ، والزمن الذى يحدده العلماء لكل أسرة يسوده غموض ، ثم تظهر بعد ذلك فترات من الزمن تنقطع فيها خيوط الزمن ليذكر لك المرجع كذا أو المرجع كذا أنه فى خلال قرن ونصف من الزمان لا نعلم شيئا عن تاريخ بابل ، إلا أن ثمانية من الملوك خلف الواحد منهم الآخر على العرش . وأخرون يقولون بأن التاريخ الحقيقى ليس له سند علمى إلا ابتداء من آشور فى القرن السابع والثامن قبل الميلاد .

ثم أى الملوك حكم فى لجش أو فى إريدو أو فى كيش أو فى سومير أو فى أور أو فى مارى أو فى أوروك أو فى إسين أو فى لارسا أو فى بورسيبا أو فى أوما أو فى سيبار أو فى بابل .. إلخ ؟ ويصور كل ذلك على أنه ممالك وإمبراطوريات حكمت الرافدين وبابل ، والعجيب فى الأمر أن كل هذه الأماكن تقع فى مساحة متلاصقة لا تزيد على ١٥٠ كم X ١٥٠ كم ، ومن الجائز بل من المؤكد أن هذه المدن عاصرت بعضها البعض .

ونلاحظ من كم الرقم الطينية المدون عليها بالمسمارية ، أن هذه البلاد لم يكن لها شاغل سوى أن تصنع هذه الرقم وتدون عليها الرسائل وترسلها إلى المدينة التالية لها ، ولا يوجد دليل مقنع حتى الآن على أى مظهر حضارى يشير إليه مضمون تلك الرسائل . بل ووصل الأمر إلى أن هذه المدن كانت تتراسل مع ملوك مصر فى الأسرة الثامنة عشرة ، مع أن الدارس للحضارة لتلك الأصقاع لا يقتنع حتى بمراسلاتهم مع بعضهم ، فما حكاية هذه

الرقم الطينية ، ولماذا هذا الكم الهائل منها مع أن الواقع فى ذلك الوقت يمجها أو يمج معظمها كما أن محتوياتها متضاربة ؟

لقد علمنا فيما سبق أن الموظفين الدبلوماسيين فى السفارات الأجنبية فى العراق كانوا يهملون مهماتهم الدبلوماسية ، ويذهبون للتنقيب عن الآثار وبالذات فى الفترة فى نهاية القرن التاسع عشر ، فماذا كان دافعهم وماذا كانت إمكانيات مثل هؤلاء الدبلوماسيين حتى يخرجوا لنا فى فترة وجيزة عشرات الآلاف من هذه الرقم التى أطلقوا عليها فيما بعد وثائق. وفى أى طبقة من طبقات الأرض وجدوها ، الواضح أنهم وجدوها على السطح القريب جدا وهذا بدوره يشير إلى أن هذه الوثائق لو أنها حقيقية لما رجع تاريخها إلى أبعد من عصر تدوين ألف ليلة وليلة وعصر هارون الرشيد . والسؤال الأهم من ذلك هل كان موقع مدينة البصرة الحالية فى العراق والتى نقب فيها السيد الدبلوماسى فى عام ١٨٧٧ م ، نقول هل كان لهذا المكان وجود من أصله حتى ينقب فيه ويجد فيه وثائق ، لأن كل الدلائل العلمية تشير بالقطع إلى أن موقع هذه المدينة فى الألفية الثانية قبل الميلاد كان ما يزال داخل مياه الخليج العربى ومستنقعاته ، فمن أين أتى لنا بكل هذه العشرات من الآلاف من الرقم والوثائق ، فى الغالب أتى بها معه فى زكائب من الشانزليزيه فى باريس !!

ألم يكن مثل هذا تماما ما حدث فى سنة ١٨٨٧ م فى تل العمارنة عندما عثرت الفلاحة المسكينة على أمثال تلك الرقم وأدخلوها التاريخ من أوسع أبوابه وأغباها ؟!!!

وما يعزز فرضياتنا هنا وكما أسلفنا من قبل أن اللغة البابلية قد تم كشفها وفك رموزها ووضع قواعدها قبل ذلك بما يناهز الثلاثين عاما ، يعنى تأليف النصوص على مثل تلك الرقم أصبح شيئا سهلا جدا ، فلمصلحة من يرتكبون هذا الجرم ، وما الموضوع المراد تزويره فى الحقيقة ، أليس هو الذى نحن بصدد بحثه الآن ؟!!!

أمنيات « نفـر روهو »

ولا شك ونحن فى منتصف الطريق أن تاق البعض ليسمع شـيئا عمـا تـردت إليـه الأوضاع فى مصر بعد مرور كل هذه الأحداث ، ولكنا لن نعرض للوضع السياسى القائم آنذاك ، فسنفصله إن شاء الله فى كتابنا القادم ، ولكنا نريد أن نتعرف على الجو العام عند أهل مصر بعد رحيل ملك البلاد منفيا بسبب ديانته التوحيدية ، فمن غير المعقول أن تحدث كل هذه الأحداث وتنتهى القصة بلا تداعيات .

النص :

« والآن اتفق فى عهد جلالة الملك سنفرو وهو الملك المحسن فى كل هـذه الأرض أن موظفى الحاضرة دخلوا يوما القصر ليقدموا للملك تحياتهم ، ثم جاءوا ثانية ليقدموا تحيـاتهم كرة أخرى كما كانت عادتهم اليومية . وعندئذ قال الملك لمستشاره الذى كـان بجانبـه : اذهب واحضر لى موظفى مقر الملك الذين خرجوا من هنا اليوم ليقدموا تحياتهم ، فـدخلوا عليه وسجدوا ثم انبطحوا على بطونهم أمام جلالته كرة أخرى ، وقال لهم جلالتـه : يـا إخوانى ! لقد أمرت بطلبكم لتبحثوا لى عن ابن من أبنائكم يجيد الفهم أو أخ من أخـوانكم بارع ، أو صديق من أصدقائكم قد أنجز بعض عمل شريف ، أى فرد يتحدث إلى بكلمات جميلة وألفاظ مختارة عندما تسمعها جلالتى تجد فيها تسلية . وعندئذ سجدوا منبطحين على بطونهم فى حضرة جلالته مرة أخرى ، وقالوا فى حضرة جلالته : يوجد مرتل عظيم للإلهـة « باست » يا أيها الملك يا مولانا ، واسمه « نفر روهو » وهو شعبى قوى السـاعد وكاتـب حاذق الأنامل ، وهو شخص مسود أغنى أقرانه ، ليته يشاهد جلالتك . فقـال جلالتـه : اذهبوا وأتونى به ! وأدخل عليه فى الحال وسجد على بطنه فى حضـرة جلالتـه ، وقـال جلالته : تعال الآن يا نفر روهو ! يا صاحبى وحدثنى ببعض كلمات جميلة ، كلمات مختارة ، حينما أسمعها ربما أجد فيها تسلية . فقال المرتل نفر روهو : هل ستكون الكلمـات مـن الأمور التى حدثت ، أو مما سيحدث ، يا أيها الملك يا مولاى ؟ فقـال جلالتـه : لا ممـا

سيحدث ، إذ الحاضر قد دخل فى الوجود ويمر به الإنسان ، فمد يده إلى صندوق مواد الكتابة وأخذ قرطاسا وقلما ومدادا ودون كتابة ما تحدث به الكاهن المرتل نفر روهو ، حكيم الشرق التابع للإلهة باست .. ابن مقاطعة عين شمس ، حينما كان يفكر فيما سيحدث فى الأرض ، ويفكر فى حالة الشرق حينما يأتى الآسيويون بقوتهم ، وحينما يعذبون قلوب الحاصدين ويغتصبون ماشيتهم وقت الحرث . »

وقد عثر على هذه البردية الأستاذ « جولنيشف » وهى الآن بمتحف لينجراد ، بردية بيتر سبورج رقم ١١١٦ ب ، الذى يدعى أنها ألقيت فى حضرة الملك سنفرو الذى ينتسب إلى الأسرة الرابعة أى قبل العصر الذى نحن بصدده بألف وخمسمائة عام ، والواقع أن ذلك هو مجرد وضع تمثيلى ليسبغ على كلماته قوة التأثير ، أو أن ذلك نوع من الرمزية للتخلص من الرقابة التى لم تكن تسمح آنذاك بتداول مثل تلك الأفكار ، كما يؤكد كل الباحثين .

أما الإشارة للملك سنفرو بصفات الملك المحسن فهذا يشير إلى مفتاح جديد لشخصية سنفرو الذى ربما يكون له دور فى الديانة القديمة التوحيدية ، يريد شخص كنفر روهو إلى التنويه إليه ، وربما يتكشف ذلك فى المستقبل لو بحث هذا الموضوع باحث مهتم .

وتستطرد البردية :

« لقد أصبحت تلك البلاد خرابا فلا من يهتم بها ، ولا من يتكلم عنها ، ولا من يذرف الدمع عليها ، فأية حالة تلك التى عليها البلاد ؟ لقد حجبت الشمس فلا تضئ حتى يبصر الناس .

وقد كان من نتيجة تعطيل أعمال الرى العظيمة العامة أن أصبح نيل مصر جافا ، فيمكن للإنسان أن يخوضه بالقدم ، وصار الإنسان عندما يريد أن يبحث عن ماء « يعنى النهر » لتجرى عليه السفن وجد مجراه قد صار شاطئا ، والشاطئ صار ماء ، وكل طيب قد اختفى وصارت البلاد طريحة الشقاء بسبب طعام البدو والذين يغزون البلاد ، وظهر الأعداء فى مصر فانحدر الآسيويون إليها ... وسأريك البلاد وهى مغزوة تتألم . وقد حدث فى البلاد مالم يحدث قط من قبل .. فالرجل يجلس فى عقر داره موليا ظهره عندما يكون

الآخر يذبح بجواره ... وساريك الابن صار مثل العدو ، والأخ صار خصما ، والرجل يذبح والده ، وكل فم ملؤه أحبنى ، وكل الأشياء الطيبة قد ذهبت ، والبلاد تحتضر ... وأملاك الرجل تغتصب منه وتعطى الأجنبى ... وسأريك أن المالك صار فى حاجة ، والأجنبى فى غنى ... وأن الأرض قد نقصت ، وقد تضاعف حكامها ، وصارت الحياة شحيحة ، مع أن المكيال صار كبيرا ، وتكال الحبوب حتى يطفح الكيل « حين تجبى الضرائب » .سأريك البلاد وقد صارت مغزوة تتألم ، وأن منطقة عين شمس لن تصير بعد مكان ولادة كل إله .

وبعد ذلك يتحول « نفر روهو » من غير تردد أو شك عن تلك الصورة التى يصف فيها القحط الذى وقعت فيه البلاد مناديا بالكلمات التالية ، داعيا لظهور الملك الذى سيخلص مصر مما حاق بها فيقول :

« سيأتى ملك من الجنوب اسمه « أمينى » وهو ابن امراة نوبية الأصل « الملكة تى » وقد ولد فى الوجه القبلى ، وسيستلم التاج الأبيض وسيلبس التاج الأحمر ، فيوحد البلاد بذلك التاج المزدوج ، وسينشر السلام فى الأرضيين فيحبه أهلها ... وسيفرح أهل زمانه ، وسيجعل « ابن الإنسان » يبقى أبد الآبدين . أما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة فقد أخرسوا أفواههم خوفا منه ، والآسيويون سيقتلون بسيفه ، واللوبيون سيحرقون بلهيبه ، والثوار سيستسلمون لنصائحه ، والعصاة إلى بطشه ، وسيخضع المتمردون للصل على جبينه ... وسيقيمون « سور الحاكم » حتى لا يتمكن الآسيويون من أن يغزوا مصر ، وسيستجدون الماء حسب طريقتهم التقليدية لأجل أن تردها أنعامهم ، والعدالة ستعود إلى مكانها ، والظلم ينفى من الأرض ، فليبتهج من سيراه ، ومن سيكون من نصيبه خدمة ذلك الملك »[٧] .

لقد ظل المؤمنون بالوحدانية على عهدهم رغم عدم استطاعتهم أن يرحلوا مع مليكهم المنفى ، وظلوا يتمنون اللحظة التى يعود فيها إلى بلده ثانية يتألق على جبينه تاجا الوجهين البحرى والقبلى يسترد عرشه المسلوب ، وينشر العدل ويمحو الظلم ، ويعم الخير لابن الإنسان ، الإنسان العادى المطحون ، وتعود المبادئ والقيم السامية التى يدعو إليها إله الوحدانية آتون . ولكن هل يتحقق هذا الحلم ؟؟؟

العبرانيون والعبريون

لاحظنا أن الملك جلجامش « خل شمش » الذى هو إخناتون ، لأن هذا الاسم الجديد هو ترجمة حرفية لاسمه ، لاحظنا أنه بدأ يستقر فى المكان ، وببعض الدعاية كملحمة جلجامش أسس لنفسه اسما وشخصية وأعلى بناء أسوار مدينة أوروك التى كان يوقظ أهلها كل صباح على قرع الطبول ، فلما بدأ يكون رئيسا مسموع الكلمة فى أوروك ، واتبع البابليون مذهبه التوحيدى الذى ترجم أيضا إلى البابلية وترجم اسم الإله « آتون » إلى شمش ، لم يكن هذا ليكفى أن تكون ديانته عالمية ، لأنه على عكس ما يدعى ، كانت المسمارية ولغتها سواء سومرية أو أكادية لغة محلية لا تستطيع الوفاء باحتياجات الديانة ولا بمتطلبات الدولة الفتية ، ولأن الملك كان يرنو إلى أبعد من حدود بابل ، فكان عليه أن يجد مخرجا لذلك إلى العالمية ، فكان الاقتراح باستعمال اللغة العبرية – لغة كنعان فى الشام – كلغة رسمية للمحادثة للدولة ، ولكى لا تعرف شخصية الملك على الأقل بالنسبة لحكام المصريين فكان عليه أن يتبع بعض الإجراءات الأمنية منها كما ذكرنا تسوير مدنه بأسوار تستطيع بها الدفاع عن نفسها ، ثم استعمال قناع على الوجه يخفى ملامح الملك المعروفة لدى الآخرين ، وهذا بالفعل ما يميز كلا من جلجامش وحمورابى ، ثم أخيرا وليس آخرا نقل كل شئ من المصرية إلى البابلية أولا ثم فى النهاية إلى العبرية ، وربما أن المسمارية كانت للتدوين فقط والعبرية لغة الحديث والكلام ، لأنه ربما لم تكن العبرية قد اتخذت بعد حروفها المألوفة بعد فى الكتابة ، وكانت المسمارية أقرب فى كتابتها إلى المصرية من حيث المبدأ ، فكانت حركة كبرى لعبرنة كل شئ ، أى تحويل كل التراث والثقافة المنطوقة إلى العبرية ، ومن هنا جاءت التسمية بالعبرانيين .

وتسمية « العبريون » للدلالة على أتباع الفارس إخناتون « خل شمش » ليست صحيحة من هذا المنظور لأن هذه التسمية تدل على كل من يتكلم العبرية حتى ولو لم يكن تابعا لديانة إخناتون ، أما تسميتهم « عبرانيين » فهى التسمية الصحيحة من עִבְרִית عبرنة ، جعل « الشئ » عبريا .

الذى يعنى – عبرن – أى نقل كل شئ إلى اللغة العبرية[٨] ، وكان من مظاهر ذلك أن بدأت حركة عبرنة لكل التراث ابتداء من الأسماء ، فنجد أن الملك قد ترجم اسمه لثالث مرة إلى العبرية وسنشرح تفاصيل ذلك فى حينه .

وبناء على ذلك يكون التعبير «عبرى» شيئا مختلفا عن عبرانى ، فالعبرى هو الـذى يتكلم اللغة العبرية من أصل كنعانى ، أما العبرانى فهو ذلك الذى كان يتبع مذهب إخناتون خليل الله وكان يتكلم لغة أخرى ثم اتخذ اللغة العبرية بناء على أمر الملك لغة له ، فالعبريون ليسوا عبرانيين ، والعبرانيون ليسوا عبريين ، ولكنهم تعبرنوا . وأتضح بعد هذا أن تعبيرات كالعابيرو والخابيرو لا علاقة لها بالموضوع إطلاقا ، وقد قلنا إن ذلك كان نوعا من الإجراء الوقائى ضد الخطر القادم من مصر والذى يمكن أن يظهر ثانية ويهددهم فى مكانهم الجديـد لو عرف أنهم المصريون إخناتون وأتباعه .

وهذا دليل جديد على أن اللغة البابلية لم تكن معروفة لدى المصريين كمـا يـدعى ، لأنهم لو كانوا يعرفونها أو أنها لغة الدبلوماسية لعرفوا ولأكتشف أمرهم من أول وهلة .

حمورابى بداية ونهاية الحضارة فى بابل

حمورابى هو أكثر ملوك بابل تألقا والمؤسس الحقيقى لوحدة الإمبراطورية ... وقد قدر له أن يسن القوانين وأن يعيد تنظيم إدارة العدل ويركز السلطة . ولقد سار إلى أبعد ممن حكم هذا الإقليم ، إذ استطاع عن طريق ثورة دينية أن يقلل من عدد الآلهة عن طريق إرغام المعبودات المتنافسة على التكتل بل وأن يخلع « إنليل » نيبور الذى استطاع أن يتمتع بالسيادة منذ أزمان لا يستطاع تحديدها لصالح إلهه « شمش » ، وقد استطاع بعد خمس سنوات من ولايته للعرش الاستيلاء على أوروك وإيسين ولكنه لم يقض على أسرة لارسا إلا فيما بعد حين أشهر الحرب ضد جيوش دولة عيلام فى أرض الفرس .

وقد اهتم حمورابى بمجرد وصوله للحكم بـ« إقرار العدالة » وعمل طول عهده على جمع « قرارات الإنصاف » وأمر بنقشها على الحجر . والقانون الموحد الذى عثر عليه فى سوسة ليس سوى واحد من هذه المجموعات التى نشرت بعد السنة الأربعين من حكمه على الأرجح . وقد سرد فى مستهل « القانون الموحد » عددا معينا من المدن الخاضعة لبابل التى امتد نفوذها من لاجش واريدو بالقرب من الخليج الفارسى حتى آشور ونينوى وهما مدينتان من مدن آشور . وكان الجنس السومرى قد كاد يزول ويتلاشى لولا أن حمورابى عرف كيف يستغل هذا الانحطاط فى سومير لدعم نفوذه ، فنبتت فى ذهنه فكرة تعديل هذا التراث القديم فى وضع جديد يتفق والظروف السياسية الجديدة ، وكذا حلت بابل العاصمة السياسية محل بقية المدن بغير منافس وأصبحت العاصمة الدينية التى يلتمسها الآشوريون .

وقد وجد حمورابى فى تنمية التجارة مع الغرب أى مع إقليم البحر الأبيض المتوسط التى كانت تقصد منذ البداية ليجلب منها الحجر والمعادن وأنواع الخشب العطرية التى لا وجود لها إطلاقا فى السهول المنخفضة لدجلة والفرات . وكذلك شق القنوات داخل مملكته بقصد تيسير التبادل وزيادة الأراضى الزراعية . وتدل الرسائل التى تبادلها مع حكام المدن أنه ركز فى يده الشئون الإدارية وأنه عنى مباشرة بإدارة الشئون القضائية وبمشروعات المنافع العامة وكذلك بتنمية أملاكه الخاصة وصيانة قطعانه الجديدة .

وقد أثبتت الحفائر أنه كانت توجد منذ ذلك العهد قواعد لتخطيط مدينة بابل ، تلك القواعد التى صمدت واتبعت حتى نهاية عهد الإمبراطورية البابلية الجديدة رغم الثورات وعهود الاحتلال الأجنبى .

ويغطى مدنية عهد حمورابى القصر وتل عمران بن على والمركز ، وكان يوجد فى المنطقة الواقعة التى شمال المركز حى خاص بنيت بيوته باللبن المقام على أساس من الآجر وهى الطريقة الى اتبعت دائما بعد ذلك فى البناء . وقد كان جزء من ذلك الحى تحت مستوى الماء الحالى والجزء الآخر فوقه . وتدل طبقة كثيفة من الرماد على أن هذا الحى دمره حريق ربما شب وقت الغزو الحيثى ، وكانت الطرق الكبيرة الموازية جميعا للطريق المقدس تتقاطع متعامدة مع طرق أخرى ، فى حين أن بيوت المدن السومرية القديمة كانت مجمعة دون ترتيب كما أنه لم يكن للطرق اتجاه ثابت[٩] « قارن ذلك مع تخطيط مدينة الرب فى آخت آتون » .

ولدينا سلسلة من نصوص تدشين المعابد مدونة باللغتين السومرية والأكادية ، فهى تخبرنا عن تشييد أبنية سيبار وإنجاز معبد شمش فى لارسا ، والنص التالى يحدثنا عن بناء معبد فى مدينة لارسا باللغة السومرية :

« من أجل شمش سيد السماء والأرض قام حمورابى رسول آنو وخادم إنليل وحبيب شمش ، الراعى الذى أبهج قلب مردوك ، الملك القوى ، ملك بلاد بابل ، ملك بلاد سومر وأكاد ، ملك الجهات الأربع ، الملك الذى جدد معابد الآلهة الكبيرة ، عندما منحه شمش السلطة ليصبح سيد سومر وأكاد ، ومنحه الصولجان ليسوس به ، من أجل شمش السيد الذى يصون حياته ، قام حمورابى بتشييد معبد أبابار ، معبده الحبيب فى مدينة لارسا مدينة عزه وسلطانه » .

ومما يلفت النظر فى النص السابق – كمل يعلق الأستاذ هورست كلينكل – أن حمورابى يعرفنا بنفسه على أنه من أتباع الإله شمش ، إله الشمس والحق ، وبناء عليه تصبح مسلة حمورابى نصا وتصويرا أطوع فهما ، حيث توضح العلاقة التى تربط حمورابى بإله

الشمس ، وأن الشريعة نفسها هى من خلق وإبداع هذا الإله الـذى يتحـدث حمـورابى باسمه[١٠] .

وهناك نصوص أخرى تجعل هذه العلاقة أكثر وضوحا وتألقا إذ يشير إلى الحب العميق الذى يكنه حمورابى لإله الشمس ، حيث أضفى على مدينة سيبار « مدينة شمش المقدسـة » مزيدا من التبجيل والأبهة مما دعاه إلى جعلها عاصمة للمملكة فى وقت من الأوقات ، فليس من قبيل الصدفة والحال هذه أن يمجد إلهه الحامى شمش فى نص منقوش على حبة عقد مـن حجر الأحات ، ويصفه بسيد السماء والأرض الكبير ويطلب منه أن يمنح حمورابى الملك ، العبد المطيع له ، حياة مديدة .

وهذا دليل « كما يذكر كلينكل » يشير إلى تمجيد الإله بمناسبة ومن غـير مناسـبة ، فحبة العقد هذه لا ترتبط بمكان أو زمان ، حيث يسهل نقلها وتداولها مع الزمن .

مما تقدم يخلص كلينكل إلى أن المرء يخرج بانطباع بأن إله الشمس هو إلـه حمـورابى الشخصى ، يتوجه إليه فى الملمات ويمنحه الثقة المطلقة فى كل الظروف . ولهذه الأسـباب مجتمعة نفهم اهتمام حمورابى الكبير بمعبد إله الشمس ومدينته المقدسة فى سيبار ، وقوى هذا الانطباع نص مدون على وتد طينى كتب بمناسبة تدشين أعمال الترميم والصـيانة لسـور مدينة سيبار ، يقول النص ما يلى :

« وعندما نظر شمش ، سيد السماء والأرض الكبير ، ملك الآلهة ، بوجهـه المتلألـئ المغمور بالسعادة إلىّ ، إلىّ أنا حمورابى أميره المحبوب ، منحنى ملكا أبديا وحكمـا طـويلا ، وثبت دعائم المملكة التى منحنى إياها لأحكمها ، وأمرنى بكلمته العذبة الصافية أن أعمـل على أن يعيش شعب سيبار وبلاد بابل فى سلام ووئام ، ومنحنى ثقته الغالية لأرفع أسـوار سيبار من جديد . آنذاك قمت أنا حمورابى ، ملك بلاد بابل العظيم والموقر ، والمطيع لأوامر شمش حبيب الإلهة أيا ، بإدخال الفرح إلى قلب مردوك ، وبقدر القوة العظيمة التى مـنحنى إياها شمش ، وبسواعد شعب بلادى عملت على أن أرفع أسوار المدينة بالكتل الطينية مـن أساسها حتى بدت فى سموها تضاهى علو الجبال . لقد شيدت سورا ضخما لم يستطع إقامتة ملك من الملوك فى عصور خلت ، فمن أجل شمش ، سيدى ، أنجزت هذا العمل » .

« وخلال أيام حكمى الساطعة التى وهبنى إياها شمش عملت على تحرير سكان مدينة سيبار ، مدينة شمش الخالدة من العمل لأجل شمش ، ليحفروا قناة المدينة من جديد ، وبذلت قصارى جهدى لتجرى مياه القناة باستمرار فى مدينتهم ، وعملت على أن يعم الرخاء والغنى البلاد ، ويسعد سكان سيبار بهما ، وهم سوف يصلون من أجلى من أعماق القلب ، فأنا أنجزت ما يروق لسيدى شمش وسيدتى آيا ، وتركت الناس يلهجون باسمى اللامع مثل أى إله وسوف تتداوله الأجيال على مر العصور »[11] .

لا شك أن هذه الوثيقة تروى لنا حدثا هاما أريد له أن يبقى خالدا تتحدث عنه الأجيال اللاحقة ، وكانت مثل هذه الوثائق المدونة على أوتاد طينية مخروطية الشكل تزرع فى جسم جدار البناء ، وكانت تستخدم فى الأصل فى عقود البيع والشراء ، ثم اكتسبت معنى رمزيا يشير إلى عقد تم الاتفاق عليه بين الإله الذى دشن له البناء ومنفذ العمل ، وكانت هذه الأوتاد تستخدم منذ مئات السنين فى بلاد الرافدين ، فقد عثر على العديد منها فى آشور ، والغاية منها كما هو واضح تمجيد البانى وذلك بذكر أعماله الخيرة التى قام بها فى حياته ، وكما فهمنا من النص الآنف الذكر فإن مدينة سيبار هى المقصودة بالرعاية ، إذ كانت تعتبر من أهم الأماكن المقدسة لعبادة الإله شمش ، كما كانت تمتاز بموقعها التجارى الهام ، واستفاد أهلها من التجارة ومن موارد الحجاج الوافدين إليها بقصد التعبد ، ويستبعد كلينكل كليا أن يكون حمورابى قد قام بهذه الأعمال الجليلة حبا لسكان المدينة أو طمعا فى كسب ودهم ، وإنما أراد ان يسجل مأثرة لدى إلهه الشخصى المحبوب .

والمدهش حقا أن لا يحتل مردوك ، إله العاصمة بابل تلك المنزلة الرفيعة فى نفس حمورابى التى احتلها شمش ولم يتبوأ مردوك الصدارة فى مجمع الآلهة البابلى سواء فى عصر حمورابى أو فى عهد من تبعه على العرش فيما بعد ، حتى أن مقدمة شريعته التى دونت فى أواخر أيامه تشير إلى المقام الرفيع للإلهين آنو وإنليل فى المعابد ، ومن تصفح أسماء الأعلام التى ترد كثيرا فى رسائل حمورابى ووثائقه نجد أن أسماء الأشخاص اللاهوتية المركبة من اسم الإله مردوك نادرة جدا ، كما أننا لا نستطيع أن نجزم أن مردوك تمكن من أن يفرض نفسه إلها على هذه الإمبراطورية .

قوانين حمورابى ـ إلهية ؟!

تعود بنا الذاكرة – كما يعلق كلينكل – إلى أواخر القرن التاسع عشر عندما اكتشف المنقبون الأثاريون رقما مكتوبة جذبت إليها انتباه اللغويين فى حينه نظرا لما تحويه من مضامين تشريعية ، وكانت هذه الرقم محفوظة ضمن مكتبة نينوى – المدينة التى كانت عاصمة الإمبراطور الآشورية فى أوج عظمتها وقمة ازدهارها ، وقد تأسست هذه المكتبة بعد مضى « ألف عام » على حكم حمورابى فى بابل ، وكان من بين محتوياتها نسخ عن أصول قديمة ذات مضامين متنوعة ، وقد تبين بعد دراستها أنها تحوى فقرات ومواد قانونية ترقى إلى عصر حمورابى مما قوى الاعتقاد بوجود مجموعة قوانين تشريعية من هذا العصر . وجاء القول الفصل باكتشاف مسلة حمورابى . ففى مطلع عام ١٩٠٢ م عثر الأثاريون الفرنسيون بقيادة الأستاذ « دى مورجان » على ثلاثة ألواح كبيرة من الديوريت فى مدينة « سوسا » التى كانت يوما ما عاصمة الدولة العيلامية ، وبعد أن أعيد لصق الألواح الثلاثة ببعضها تبين أنها تشكل فى مجموعها مسلة حمورابى ، وهى بطول ٢,٢٥ مترا وقريبة من الشكل المخروطى تحمل على صفحتها الأمامية صورة رجل يرتدى ثوبا طويلا يحيط بكل أجزاء جسمه ، ومعتمرا قبعة ذات حافة عريضة ، رافعا ذراعه اليمنى للتحية بكل خشوع ، وأمامه يتربع إله على عرشه يستقبل التحية ، ونستدل على سمو مرتبة هذا الإله من عدد القرون المزينة تاج الألوهية ، وتنبثق أشعة الشمس مشرقة من كتفى الإله ، وهذا الرمز يدعم اعتقادنا بأن هذا الإله ما هو فى الحقيقة إلا إله الشمس أو آتون ، وإن كان لا يلغى الاحتمال الآخر كليا بكونه الإله مردوخ ، ومعروف عن إله الشمس أنه مبعث الضياء والحق والنور ، نراها ، ونراه هنا مادا ذراعه اليمنى ليسلم بها حلقة وصولجانا وهما رمزان للسلطة والقيادة .

وقد غطت الكتابة كل ما تبقى من المسلة من كافة جوانبها ، والكتابة مدونة بالأسلوب القديم على شكل أسطر مرتبة تحت بعضها ومفصولة بخطوط عمودية باتجاه اليسار ، وهذا الأسلوب من الكتابة لا يستخدم إلا على التماثيل والأنصاب الرسمية فى حين

أن العادة فى التدوينات اليومية أن تتجه الكتابة من اليسار إلى اليمين على شكل أسطر أفقية .

ولأسباب نجهلها نجد أن قسما فقط قد أزيل عن مسلة حمورابى ، ويجمع العلماء على أن المسلة كانت منصوبة فى مدينة زيبار ، مدينة حمورابى المحببة إلى قلبه[١٢] .

ويميل الأستاذ كلينكل إلى الاعتقاد بأن المسلة المذكورة تم نحتها فى السنين السابعة والثلاثين أو الثامنة والثلاثين أو ربما السنة الأربعين من حكم حمورابى .

حول نص المسلة : يتألف نص المسلة من ثلاثة مقاطع كبيرة وواضحة ، تأتى على رأسها المقدمة ، ثم يلى ذلك نص القوانين ، وأخيرا الخاتمة .

والمقدمة نص هو إنجاز أدبى مبدع تجاوز حدود البيانات السياسية المألوفة ، وهى مرجع هام للمؤرخ المعاصر الذى بإمكانه أن يطلع على إنجازات حمورابى العسكرية التى عددها فى نص المقدمة المؤلفة من ٣٠٣ أسطر ، وتشكل المقاطع الثلاثة : المقدمة والقوانين والخاتمة ، وحدة عضوية متماسكة لاغنى لأحدها عن الآخر ، إذ أن الغاية والهدف هو التعريف وشرح ما جاء فى النص التشريعى ، ولذا لا يمكن اعتبار المقدمة عملا منفصلا قائما بذاته جاء وليد وقته ليملأ أعمدة المسلة دونما ارتباط بالنص الأصلى لمواد التشريع .

وإذا كانت مواد القوانين لا تفصح فى أية فقرة من فقراتها عن أنها وحى من السماء ، فإن القارئ النبيه كما يرى كلينكل يفهم من بين الأسطر أن مردها فى نهاية المطاف إلى « الإله » ، إذ إنه هو الذى اختاره دون الناس جميعا ليكون « رسوله » ، وينفذ مشيئته ، « ليجسد العدالة فى الأرض ويقضى على البغاة والمفسدين وليأخذ حق الضعيف من القوى ، وليكون مثل الشمس التى تشرق فوق الرؤوس السود ، وتنير لهم معالم الطريق على الأرض » .

أما خاتمة النص على المسلة فتصف القوانين بأنها « دعاوى حق العدالة التى أرسى قواعدها حمورابى الملك النشيط وعلى هديها تسير القيادة الرشيدة فى البلاد لإحقاق الحق » .

ومجموعة القوانين التى دونها الملك على مسلته هى فى نظره قوانين عامة تصلح لكل زمان ومكان ويوصى كل من جاء من بعده باتباعها ويحذر من مخالفتها أو عدم تطبيقها كأنه أراد بها أن تكون قوانين عالمية دائمة .

ولسنا هنا فى مقام عرض هذه القوانين أو شرحها ، فقد فعل ذلك كتاب كثيرون ، كما أن نص القوانين موجود أيضا فى أمهات المراجع والكتب التى تبحث فى تاريخ القوانين ، وقد تمت مقارنتها بالتشريع الموسوى فى مراجع كثيرة فثبت أنها من جنسها ، ولكنا هنا نؤكد على أن هذه القوانين هى بالفعل موحى بها من عند الله ، وقد بلغها إلى الملك النبى والرسول حمورابى عن طريق الوحى الذى رمز له بمردوك ، وكلمة مردوخ تكتب بالعبرية هكذا : לְ- דְ- « ارامية » حرف إضافة « يعود إلى » ،

الذى ، من

مر : מָר (2) – السيّد ، سيّد وتعنى : السيد أو الرجل

دوك أو دوخ : דּוּךְ – اسم أحد الآلهة القدماء ويعتقد أنه الإله ساتورن ، زحل أى رسول الإله ، وهذه الكلمة متكررة جدا فى الأسماء العبرية فى اسم : مردخاى[١٣] .

ويكاد يوافق معنى اسم مردوخ هذا الاسم الإله عند الداعية إخناتون الذى يحمل اسم « حور آختى » الذى يعنى فى المصرية القديمة :

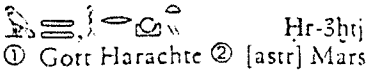
Hr-3ḫtj
① Gott Harachte ② [astr] Mars

بل إنه ينطبق تمام الانطباق .

مشكلة تزمين عصر حورابى : ونقصد بذلك وضع حمورابى فى مكانه فى التاريخ الصحيح المعمول به ، فقد لاحظنا أن العلماء للآن لم يستقروا بزمن الأسرات فى كل الحضارة البابلية ، ولعل بعضهم يعول على مظاهر كونية كظاهرة الخسوف والكسوف ، وهذا ثبت أنه ليس منهجا دقيقا ، لاسيما بعد أن عرفنا وأصبح ذلك بديهيا الآن أن ظواهر

الخسوف والكسوف هى ظواهر متكررة جدا يمكن أن تحدث فى فترات قريبة من بعضها ، ويمكن أن تحدث فى حالات كثيرة دون أن نسجلها لأنها تحدث بالفعل فى أماكن لا يمكن تسجيلها منها .

والملاحظة الجديرة بالذكر تتلخص فى أنه رغم تقدير عصر حمورابى المنقطع النظير إلا أن أحدا من بعده لم يتسم باسمه ، وهذا له دلالته أن حمورابى نفسه غريب عن هذا المكان فلم يرد تخليده أحد رغم ما أنجزه ، وإنجازاته نفسها لا نظير لها حتى قيام دولة آشور بعد عهده بما يقارب الألف سنة ، بمعنى أننا لو نحينا عصر حمورابى جانبا ما بقى فى حضارة الرافدين سوى ممالك بدائية لا ترقى لأن تسمى إمبراطوريات ، ولا تعد ولا تقارن بنظيراتها من جيرانها فى عيلام وميتان وحث ومصر . وهذا يدفعنا ثانية إلى رفض المسمارية كوسيلة دبلوماسية عالمية فى المراسلات ، ولم تظهر أرض الرافدين نتاجا يستأهل أن نطلق عليه حضارة منافسة لجيرانها إلا فى إمبراطورية آشور ، وهى نفسها قائمة على تراث حمورابى وفلسفته رغم رفضهم لشخصيته كما ذكرنا .

بقى أن نقول إن حركة العبرنة السالفة الذكر قد حولت اسم الملك جلجامش من خل شمش إلى حمورابى ، وكلمة حمورابى هى عبارة عن كلمتين :

حم أو حمو وتكتب بالعبرية : חַמָּה – الشمس ، حرارة ، دفء ، صيف ، حمىّ وتساوى كلمة شمش فى اللغة البابلية أو الأكادية .

وكلمة رابى : تكتب هكذا بالعبرية רַב (3) – حاخام ، معلّم ، وزير ، ضابط

רַבָּא, רַבָּה – (آرامية) عظيم ، هامّ ، كبير ، سيّد تماما ككلمة « أخ » فى أخ ن آتون اسم الملك المصرى الموحد[١٤] .

נִבְרָא רַבָּא – رجل عظيم

وعلى هذا تكون شخصية إخناتون هى هى شخصية جلجامش أو « خل شمش » ، وهى هى أيضا : حمورابى .

وحتى أسماء زوجاته : فقد غيرها أيضا ونقلها إلى اللغة العبرية أى عبرنها :

فالملكة تفرتيتى 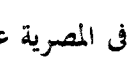 التى تعنى الجميلة أو النبيلة فى المصرية عبرنت إلى : سارا ، وتكتب هكذا بالعبرية : שָׂרָה – نبيلة ، إمرأة من طبقة الاشراف ، وتعنى فى قاموس الغة العبرية : وزيرة ، شسارة : اسم إمرأة (زوجة إبراهيم) .

أما عن الزوجة الثانية السيدة : كيا ، والتى قلنا إن الكلمة تعنى الغريبة أو الأجنبية فى اللغة المصرية ، نجد أنها عبرنت إلى هاجر ، وكلمة هاجر : عبارة عن أداة التعريف فى العبرية « ها » : ثم « جر » : والتى تكتب فى العبرية هكذا : גֵּר – غريب ، اجنبى ، متهوّد وهى تعنى : الغريبة أو الأجنبية[١٦] .

ولا شك أن كثيرا من أتباعه المصريين قد حرفت اسماؤهم لتعادل صوتيات فى اللغة العبرية .

فإذا كنا أدركنا أن حمورابى هو هو جلجامش أو « خلشمش » ، وأدركنا أن حمورابى وجلجامش هو هو إخناتون ، فلا بد أن يكون الزمن واحد سواء فى تاريخ مصر أو فى تاريخ بلاد الرافدين .

أما تلك المحاولات اليائسة لتزوير التاريخ فقد تم كشفها بسهولة ، حتى لو صنعوا لها وثائقها لأن وثائق الزور عرجاء .

وما كان فى مقدور حمورابى أن ينشئ حضارة كبرى فى هذه المدة القصيرة جدا بهذا الشكل وهذا الحجم لولا أنه اصطحب معه دولة بأكملها إلى جنوب الرافدين ألا وهى دولة آخت آتون .

نهاية نبى ومشرع : لقد حاول إخناتون بعدما عاش تجربته الأولى المريرة فى مصر أن يغير من منهجه وأسلوبه فى الدعوة للوحدانية لأن الزمن لم يكن قد نضج لذلك والعقل البشرى لم يكن بعد مستعدا لتقبل كل هذا فى تلك اللحظة فضحى بعرشه فى مصر ولم يفقد الأمل وبدأ بداية جديدة فى الرافدين أولا تحت مسمى جلجامش « خل شمش » إلى أن جمع

لنفسه أسباب النجاح ، ثم تحت مسمى حمورابى وكون إمبراطورية كبرى توجت بتلقيه الوحى بالقوانين فدونها على مسلات حجرية من الديوريت المقاوم لعوادى الزمن وما كان لغير المصريين أن يتقنوا فن النقش على تلك الحجارة الصلبة ، وأراد نشر دينه وتوحيده فى العالم كله ، ولكن تآمرت كل قوى البغى والوثنية ضده ، فكان أن تحالفت كلها من قوات مصر على قوات الحيثين إلى قوات العيلاميين لضربه الضربة القاصمة التى أودت بعرشه للمرة الثانية ، وكل ذلك من أجل كلمة « لا إله إلا الله » .

لقد انكشفت شخصية حمورابى رغم التمويه مرة بتغيير الإيديولوجية من المصرية إلى البابلية ، وثانية إلى العبرية فى حركة العبرنة التى قام بها ، ورغم التمويه حتى فى الشكل والزى فقد لبس قناعا يخفى به شخصيته الحقيقية ، ولكن سرعان ما انكشفت شخصيته وعرفت فيها شخصية الموحد إخناتون ، ورغم التزمين الخاطئ لمملكته من قبل المعنيين بالأمر ، فكان أن اجتاحت مملكته قوات غاشمة مكونة على الأقل من أربع إمبراطوريات – مصرية وحيثية وميتانية وعيلامية ، لكى يحولوا عرشه إلى هباء ، ويضرموا النار فى مدنه وأتباعه ، ليترك عرشه ويهرب هو وأتباعه ويلوذ مرة ثانية بالصحراء العربية ، مشتتين فى كل اتجاه . فقد أخذت الفلول الهاربة اتجاه الخليج العربى وكونت دول البحر ثم فرت فلول اخرى بمحاذاة الساحل حتى وصلت أرض اليمن فاستقر بعضها وتابع الباقى السير حتى وصلوا إلى أرض الحجاز حيث كان يقيم إخوتهم الذين تخلفوا من قبل فى هذا المكان فدخلوا عليهم ورحب بهم وساد الضيوف بحكم مناصبهم القديمة التى كانوا يعرفونها لهم وهذا يفسر موقف قبائل الأوس والخزرج ، الذين دخلوا يثرب على ساكنيها الذين رحبوا بهم وسيدوهم على أنفسهم . وكذا النضير .

أما الملك وما تبقى من البيت الملكى فقد دخل الحجاز ثم إلى كنعان حيث استقروا فيها ، ولكنهم أبدا لم يقاطعوا الأتباع الذين استقروا فى الجزيرة ، حيث ساد على الكل الابن الملكى إسماعيل « القربان » أو نفر نفرو آتون مرى كيا أو حبيب هاجر .

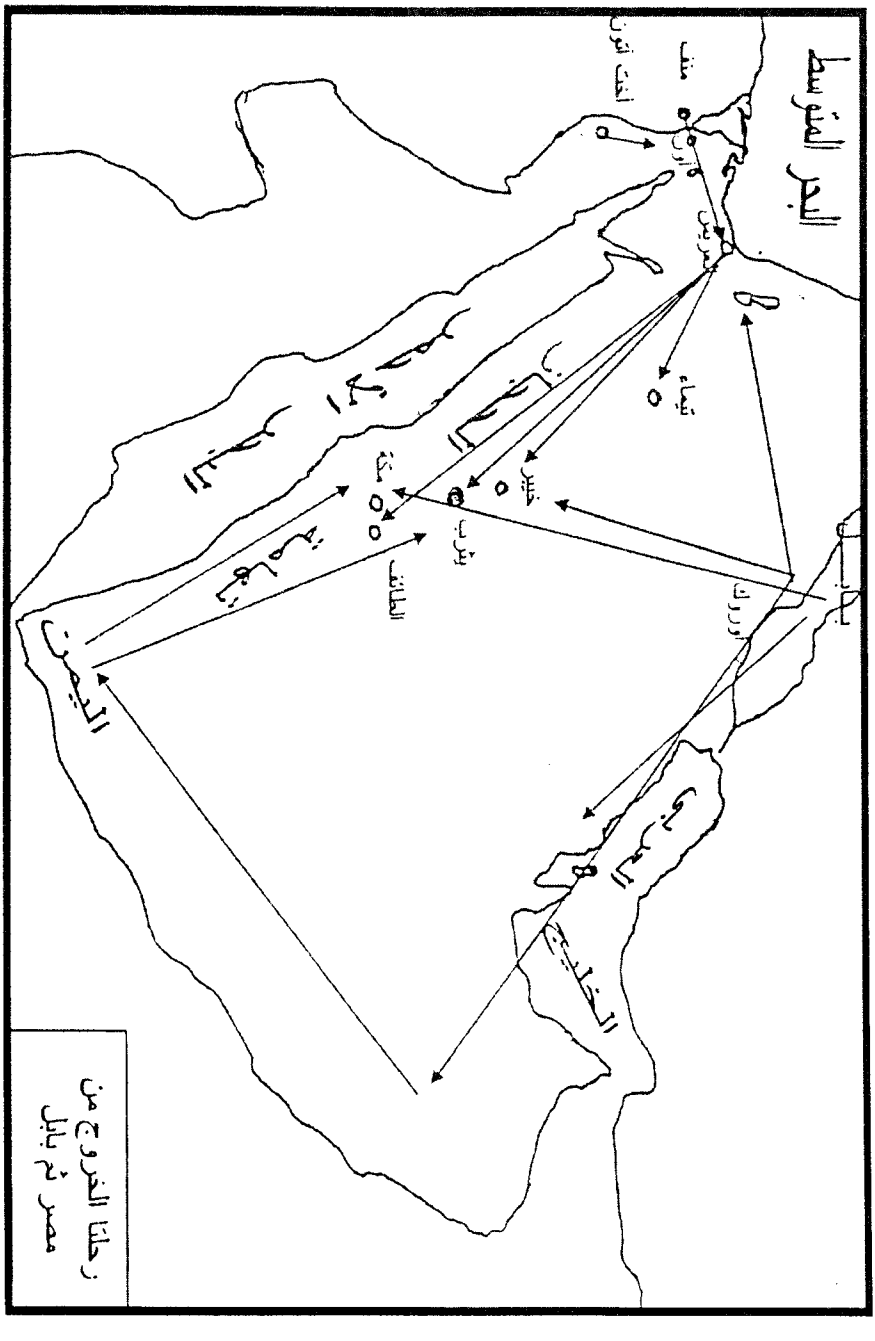
البحر المتوسط
منف
أخيتاتون
أرمنت
عين شمس
تل بسطة
تانيس
بلبيس
بابليون
أورشليم
الطائف
مكة
يثرب
خيبر
تيماء
البحر الأحمر
الخليج
رحلتا الخروج من مصر ثم بابل

هوامش الفصل الخامس

(١) جلجامش – فراس السواح – سومر للنشر – ١٩٨٧ – نيقوسيا – قبرص – العربى للطباعة والنشر – دمشق .

(٢) المرجع السابق .

(3) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning

(٤) بلاد ما بين النهرين – ل. ديلابورت – مترجم – الهيئة المصرية العامة للكتاب – ١٩٩٧ .

(٥) نفس المرجع السابق .

(٦) نفس المرجع السابق

(٧) موسوعة مصر القديمة – سليم حسن – ج٣ .

(٨) قاموس عبرى عربى – يحزقيل قوجمان – دار الجيل بيروت – ١٩٧٠ .

(٩) حمورابى البابلى وعصره – هورست كلينكل – مترجم – ١٩٩٠ .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) المرجع السابق .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) قاموس عبرى عربى – يحزقيل قوجمان – دار الجيل بيروت – ١٩٧٠ .

(١٤) (١٥) (١٦) نفس قاموس العبرية السابق .

الفصل السادس

العهد القديم يتقادم

تبدأ قصة إبراهيم فى العهد القديم من التوراة بميلاده من أبيه تارح ، وتارح هو تخريج عبرانى لاسم الملك المصرى أمنحتب الثالث واسمه الحورى ، نب معت رع ، وقلنا قبل ذلك أن التخريج البابلى لهذا الاسم هو نمرووا الذى هو النمرود ، أما التخريج العبرانى لنفس الاسم فهو تارح من نب معت رع ، حيث تحول حرف العين الأخيرة فى الاسم إلى حرف الحاء ، فيكون الأصل فيه : تارع ، وهو نفسه معت رع أو فى الأصل نب معت رع .

وقد وصلت إلينا تخريجات كثيرة لهذا الاسم : تسارخ ، زارع ، إلى أن قال القرآن : آزر هو تخريج من كلمة زارع ، بعد حذف الحرف المخفف حرف العين ، فمن زار إلى آزر .

أما أبناؤه إبرام وهاران وناحور ، فإن لدينا الدليل على أن هاران ابن أمنحتب الثالث وهو فى التاريخ المصرى سمنخ كارع ، وخففت الكاف إلى الهاء وزيد على الاسم النهايات ألف مد ونون وهى نهاية مميزة للأسماء فى اللغات السامية ، كيقظان ويقشان ومديان وغيرها فكانت فى الأصل بدون الألف مد والنون .

أما أن أمنحتب الثالث كان له ابن ثالث باسم ناحور ، فقد سكتت كتب التاريخ عن ذلك ، ربما عن قصد أو إهمال .

وقالت التوراة إن تارح قد رحل مع القبيلة الإبراهيمية ، وأنه قد آمن برسالة ابنه التوحيدية فهذا ليس صحيحا على الإطلاق ، بل كان عدوا له ، وخير ما نستشهد به كدليل فى هذا المقام هذا المثل الشعبى اليهودى :

يقول المثل : - תרח זקן (שכמותו) : تارح مسن

وهو قول خاص باليهود ، يشبه به العجوز المسن الذى يهذى بكلام غير مفهوم بتارح أبى إبراهيم الذى كان يعبد الأصنام كما ورد فى المدارش ٣٦ – بريشيت ربـاه/٣٨ . وفى تفسير آخر يقال إن حرف التاء فى الأصل طاء فيكون القول :

טרח זקן بمعنى זקן טרח : عجوز متعب أو خرفان .

فلو كان تارح أبو إبراهيم موقرا ، لما نعت فى أمثالهم الشعبية بهذه النعـوت لدرجـة يضرب بها الأمثال[1] .

أما ابنه إبرام فقد علمنا أنه الفارس إخناتون ، وإبرام هو اسم شهرة له أطلـق عليـه عندما كان هو وأتباعه يحطمون أصنام الدولة المصرية وأصنام أبيه كما أوضحنا فى الفصـل الثانى .

وابتداء من أحداث الرحيل من أور الكلدان ، ودلالة كلمة الكلـدان هنـا هـى أن التوراة لم تكتب وتدون فى عهد النبى موسى ، بل إنها كتبت فى تواريخ متاخرة مـن ذلـك بكثير جدا ، ودولة الكلدان لم تكن بعد موجودة على عهد موسى .

وعندما بلغ إبراهيم سن الخامسة والسبعين واتجه إلى صـحراء الجزيـرة ثم إلى أرض الكنعانيين ، تكاد تكون هذه هى نهاية قصته وليست بدايتها ، أما كل الأحداث التى تلتـها التوراة فهى نوع من أنواع « الفلاش باك » لبعض ما حدث فى الخمسة والسبعين سنة الأولى من حياة إبراهيم ، وربما أن مسألة « الفلاش باك » فى القصة لم تفهم من واضـعى التـوراة ومترجميها هذا الفهم الصحيح مما أدى إلى ما هم عليه الآن من التخبط .

وتزوج إبرام من سارای ، وقلنا إن سارای:

سار : تعنى الجميلة أو النبيلة ، والمقطع « رای » فى نهاية الكلمـة : ويعـنى بالعبريـة طلعت أو رؤيت[2] .

فيكون الاسم مطابقا تمام التطابق مع اسم الملكة نفرتيتى زوجة إخناتون الموحد ، ومعنى الاسم فى كلا اللغتين : جميلة الطلعة أو ذات الطلعة الجميلة أو نبيلة الطلعة . أما ترجمة اسم نفرتيتى بأنه الجميلة أتت أو اقبلت كما عند علماء اللغة المصرية فهى ترجمة غير دقيقة . وتكون القصة هى كما قلنا « فلاش باك » لما حدث له فى شبابه فى مصر قبل ذلك بما يزيد على الستين عاما .

أما خروجه من أرض الكلدان وقد قلنا إنه كان يحمل اسم حمورابى فى تلك اللحظات الحاسمة من حياته وأن أربع قوى عظمى كانت تطارده ، فإن توجهه إلى أى اتجاه غير الجزيرة العربية هو أمر غير منطقى ، وإلا ستكون نهايته أن يسلم نفسه بنفسه فى يد أعدائه ومهاجميه الذين أتوا له من الشرق والشمال والشمال الغربى من عيلام وسورية .

وعندما وصل إبراهيم إلى كنعان بعد حين من الزمن – طبعا متخفيا ومغيرا ومموها فى شخصيته ، ظهر له ملاك الرب وقال له « لك ولنسلك أعطى هذه الارض » أو مع الزيادة « من الفرات إلى النيل » فهذه الهدية التى يكافئة بها الله هى من نوع ما ضحى به الملك والفارس إخناتون مرتين ، وهى المملكة المصرية بحدودها المعروفة والمتطابقة مع الوعد الإلهى له . ولا بد أن نحذر من تعميم هذا الوعد الإلهى لينسحب على الأتباع من اليهود ، فالنص صريح « لك ولنسلك من بعدك » أى ليس الأتباع من أتباع الديانة مشمولين بهذا الوعد ، وهذا ما يقع فيه اليهود الآن من خطأ ، فهم يعتقدون أنهم من نسل إبراهيم ، وهذا ليس صحيحا . فهم مجرد أتباع له وليسوا أقرباء له قرابة دم .

ولم يتحقق هذا الوعد مطلقا إلا على يد حفيده من ابنه اسماعيل محمد بن عبد الله نبى الإسلام .

وبمجرد أن وصل إبراهيم إلى أرض كنعان ، فقد انتهت قصته عند ذلك الحد . أما ما يلى ذلك من أحداث ، فهو كما قلنا وكما سيتضح من معاملة النص التوراتى هو نوع من « الفلاش باك » .

قصة التغريب فى مصر : هى قصة موضوعة ومتعمدة خشية أن تظهر الآثار على مر الزمن علاقة إبراهيم بمصر فألف واضعوا التوراة هذه الزيارة الغير منطقية ، ولكن بها أحداث « فلاشباكية » نستفيد منها فى مقارنتها مع الحدث الأصلى الحقيقى ، ولم يحدث أن زار إبراهيم مصر وهو فى هذه السن على الإطلاق ، أولا لأسباب تاريخية عرضنا لها فيما سلف ، وثانيا لأسباب منطقية تمنع دخوله إلى أرض مصر على أى الأحوال .

أولا : فقد قلنا إن إخناتون أرغم على التنازل عن عرشه والخروج بدعوته خارج نطاق المملكة المصرية كلها والتى كانت تمتد من الفرات إلى النيل العظيم ، فلم تسعه أى أرض سوى أرض الجزيرة العربية ، وقد أثبتنا صحة ذلك بالدراسة اللغوية التى قمنا بها فى أرض الحجاز . ولا يحق له أن يدخلها مرة ثانية طبقا لهذا إلا متخفيا أو متقمصا شخصية أخرى كستار أو بصك أمان كما أشرنا من قبل وهو ما تحقق على يد يوسف الصديق عليه السلام.

أما من ناحية المنطق ، فلا يعقل أن يستقبل إبراهيم فى مصر معقل عبادة الأوثان وعبادة الملوك ، وهو ما عرف عنه أنه محطم أصنام وداع إلى الوحدانية فى مكانه أيا كان هذا المكان . ولا يمكن له أن يخترق حدود مصر بسهولة لأن « بوابات الحاكم » التى كانت تحرس الحدود لم تكن لتعطى له جواز دخول ، وهو المعروف عنه تحطيمه للأصنام التى هى لب الإيديولوجية المصرية آنذاك . ونحن نعرف من قصص الأدب المصرى كم كان ذلك عسيرا بل مستحيلا اختراق هذه الحدود وتخطى هذه البوابات دون مساءلة ، وقصة سنوهى هى خير برهان على ذلك ، وكان سنوهى مصريا ، فما بالنا لو كان غريبا .

إذن ما كان إبراهيم ليدخل أرض مصر بأى شكل من الأشكال .

وبناء على ذلك تصبح قصة كذب إبراهيم على المصريين وعلى فرعون مصر بالتعاون مع زوجته السيدة سارة ، قصة وضيعة لا أساس لها ، ولا يليق بأبى الأنبياء ذلك ، ولم يفعل .

ولكن فى غضون القصة معلومات « فلاشباكية » حقيقية ، منها أنه عندما خرج من مصر ، وهذه الواقعة تشير إلى خروج إخناتون من مصر منفيا خارج المملكة المصرية ، فتقول النص التوراتى أنه اتجه جنوبا « فصعد إبرام من مصر من الجنوب إلى بيت إيل » ،

فلا يكون أبدا الصعود من مصر والاتجاه جنوبا إلى الجزيرة العربية إلا إلى كنعان التى هى فى الشمال ، ثم يحدد النص هذا الاتجاه تحديدا فى منتهى الدقة حيث يقول « إلى بيت إيل ، إلى المكان الذى كانت خيمته فيه فى البداءة » ، فهذا النص يحمل معلومة دقيقة فى منتهى الخطورة ، اتجه إبراهيم بعدما صعد من مصر ثم إلى الجنوب إلى بيت الرب ، إلى المكان الذى كانت خيمته فيه ، والخيمة هى لفظ مفحم أو ترجمة خاطئة بدل كلمة بيت ، وضمير « هاء الغائب » فى « خيمته » لا يعود على إبراهيم بل يعود على الرب ، وهذه الخيمة التى كانت هناك فى البداءة ، ليصبح صحيح النص كما يلى : « فصعد إبرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان له ولوط معه إلى الجنوب . وكان إبرام « إخناتون » غنيا جدا فى المواشى والفضة والذهب . وسار فى رحلاته !! من الجنوب إلى بيت إيل ، إلى المكان الذى كان بيته فيه فى البداءة أى فى بداية الخليقة وهى الكعبة المشرفة « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » .

« وأما سارای امرأة إبرام فلم تلد له ، وكان له جاريه مصرية اسمها « هاجر » ؛ قلنا إن أسماء زوجات إبراهيم وإخناتون مترجمة ترجمة حرفية ومتطابقة فى حركة العبرنة التى أشرنا إليها ، فساره أو سارای هو الترجمة الحرفية لاسم نفرتيتى وهى فى كلتا اللغتين العبرية والمصرية تعنى : جميلة أو نبيلة الطلعة ، وهى لم تنجب له فى مقتبل حياتها البنين الذين يرثون العرش ، أما هاجر فكانت الزوجة الثانية ، والكلمة معناها كما أوضحنا : الغريبة أو الأجنبية تماما كما تعنى كلمة « كيا » زوجة إخناتون الثانوية أيضا الغريبة أو الأجنبية ، وقد نوهنا فى حينه أن حركة الترجمة هذه حدثت فى بلاد الرافدين فى إطار حركة « العبرنة » التى تمت سواء لأسباب أمنية أم لغيرها من الأسباب الإيديولوجية وتسمى العبرانيون بها .

وقد دفعت سارای التى هى نفرتيتى بالزوجة الثانوية كيا « هاجر » إلى زوجها « إخناتون » فأنجبت له الولد الذى كان يحمل اسم نفر نفرو آتون مرى كيا أو مرى واع إن رع ، والذى سمى فيما بعد إسماعيل لما وقع حدث القربان والفداء الذى حددنا له منطقة قلعة الكبش فى مصر ، وقد وصف فى التوراة بأنه البرى أو الوحشى وهذا الوصف مزيف وليس صحيحا ويتضح بالدليل حالا .

أما السيدة سارة التى هى نفرتيتى فقد أنجبت ابنها فى بلدة « تيماء » بشمال الجزيرة العربية بعد ولادة إسماعيل بعشر سنوات ، وسمى إسحق ، وكلمة اسحق كلمة مصرية قديمة وتكتب هكذا :

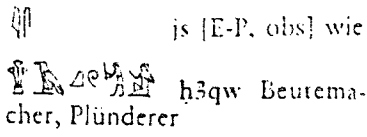

وتعنى : البرى أو الوحشى ، نظرا لولادته ف البرية[٣] .

وهنا يتضح التزوير فقد قلبت صفات إسحق وأعطيت لإسماعيل ، ولكن هذا الدليل العلمى يكشف هذا الزيف .

أما مسألة الإبن البكر والمشكل الذى يثيره واضعو التوراة فالثابت أن إسماعيل ولد أولا ثم إسحق بعده بعشر سنوات وهذا منصوص عليه عندهم ، ولكن هذا نأخذه دليلا نثبت به قضية أخرى ؛ فلو كان إبراهيم مجرد راعى غنم وماشية ، فمشلكة البكورية هذه لا تلعب أى دور وليس لها أهمية على الإطلاق ، اللهم إلا إذا كان الأب ملكا كما اثبتنا فتكون مسألة الإبن البكر غاية فى الأهمية بسبب مشكلة وراثة العرش ، وفى حالتنا هذه يكون ابن السيدة سارة « نفرتيتى » الزوجة الملكية الرئيسية أحق فى وراثة العرش من الإبن الثانى من الزوجة الثانوية حسب قوانين وراثة العرش فى المملكة المصرية القديمة حتى لو ولد إسماعيل أولا . أما مسألة القربان والذبيح فقد وضح أنها حدثت لإسماعيل بالدليل العلمى وليس لإسحق . وهذا كله يبرر إصرار السيدة سارة على التخلص من منافس ابنها على العرش ومحاولة التملص منه ومن أمه بإبعادهما ، وهذا الإبعاد يحتمل أنه حدث فى بابل لما مكن لإخناتون فى الأرض فخافت السيدة سارة « نفرتيتى » على عرش ابنها .

ومن الأدلة على أن السيدة سارة هى نفرتيتى جميلة الطلعة نسوق الآن دليلا لاحقا من المدارش ، على لسان يوسف بن يعقوب :

« فلما شكا فوطيفار إلى فرعون لأنه أقام عبده الذى اشتراه بعشرين دينارا حاكما على مصر « يعنى يوسف الصديق » قال يوسف : بل أنت اقترفت خطيئة عظمى يوم

اشتريت أميرا من نسل سام بالثمن كما يشترى العبيد ، وإنما يشترى بالثمن أبناء كنعان ، وإن أردت برهانا على نسبى فدونك التمثال الذى صنعه فرعون لجدتى سارة ، فهو ينبئك بالشبه الذى بينى وبينها ، ثم جاءوا بالتمثال فإذا بالشبه بينه وبين يوسف جد قريب »[٤].

ولا نعرف تمثالا لجدته سوى تمثال الملكة نفرتيتى الجميلة ، اجمل تمثال لامرأة فى مصر بل وفى العالم كله حتى الآن .

– حرص إبراهيم على ألا يتزوج ابنه إسحق من كنعانية هو حرص ملك على بقاء النسل الملكى من بعده نقيا ملكيا ، ولذا أخذ العهد على خادمه بأن يذهب ويأتى له بزوجة من أرضه وعشيرته التى هى مصر وهذا يؤكد صحة ما ذهبنا إليه ودليل آخر مؤكد لذلك هو تحذير إبراهيم « إخناتون » لعبده من أن يأخذ إسحق إلى هذا المكان خوفا عليه ، وهو ما شرحناه قبلا من أن إبراهيم ونسله ليس مسموحا لهم بالرجوع إلى مصر ولا أمان لهم فيها . ولم يكن لهم الأمان فى مصر إلا فى عهد لاحق عندما حصل لهم يوسف الصديق على صك أمان من فرعونه أما المكان الذى حدده بآرام النهرين فهو عند التقاء الدلتا فى مصر ، وتقع هناك مدينة ناحور التى هى مدينة أون حور أو أونوريس

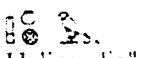

أو « أون » عين شمس فى مصر أيضا .

والسن التى مات فيها إبراهيم فهى تحت المائة وليس مائة وخمسا وسبعين سنة . فواضعو التوراة وقعوا تحت ضغط حساب الزمن لأنهم عرضوا القصة كما لو كانت حدثت كلها بعد سن الخامسة والسبعين ، ولكننا قلنا إن هذا العرض كان عرضا فلاشباكيا .

أما بقية القصة مع لوط وأولاد إبراهيم فنفرد لها كتابا آخر يصدر تباعا وفيه من المفآجات ما يكفى .

نجمة داوود

فى سلسلة أعمال التشويه والتزوير الساذج لإبعاد كل شئ عن أصله وسياقه المصرى تظهر نجمة داوود حاليا كشعار لدولة إسرائيل فى شكل سداسى على علم دولتهم . ولم تنج هذه النجمة المسكينة من أعمال التشويه والتزوير .فاسم الملك داوود فى الأصل مصرى :

dw3t / Lobpreis
rdj = n preisen den

هو الكلمة المصرية القديمة :

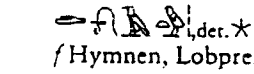
dw3wt
/ Hymnen, Lobpreisungen

والتى تعنى : تراتيل دينية ، ترانيم ، تسابيح ، مزامير ، أناشيد

ولعل الفطن قد اكتشف ما أريد أن اشير إليه ، وهو أن هذه النجمة التى يكتب بها الاسم خماسية ، وليست سداسية ، ولا نعرف فى قصة داوود نجمة أخرى له علاقة بها ، فمن أين أتوا بهذه النجمة السداسية الغريبة ؟!!

ولأنهم لا يستطيعون الإفلات الآن من الحقيقة نقول أن أصل هذه النجمة هى لغتها المصرية الأصل التى يكتب بها الاسم .

فتعلن الحقيقة العلمية الآن

نجمة داوود خماسية .

انتهت اللعبة

يروج اليهود فى العصر الحديث إلى نوع من الإيديولوجية تشير إلى نقاء سلالتهم ويردون أنفسهم إلى سام بن نوح لينفردوا وحدهم بهذا الشرف أن يكونوا وحدهم أولادا لسام دون سائر البشر بينما باقى البشر فهم يعودون فى الأصل إلى حام ويافث المغضوب عليهم كما يدعون .

والحقيقة أننا لا نعرف على وجه التحقيق ما هى الميزة التى ينفرد بها سام عن سائر إخوته أو عن سائر السلالة البشرية المنحدرة من أولئك المؤمنين الذين ركبوا السفينة مع نوح ، مع العلم أن هؤلاء الآخرين فى سفينة نوح أحق بالتكريم من أولاد سام كلهم ، فأولاد نوح بما فيهم سام نفسه إن كانوا آمنوا بالله فربما لأجل أبيهم ، أما الآخرون فقد آمنوا لأنهم عرفوا الله فآمنوا باقتناع به وركبوا السفينة ونجوا بناء على ذلك ، فهم أفضل عند الله من أبناء نوح كلهم الذين آمنوا مجاملة وتعضيدا لأبيهم وعصبية له .

ومع ذلك فلماذا يكون اليهود الآن أفضل من سائر البشر ولماذا يريدون أن ينفردوا وحدهم بانتمائهم لسام بن نوح ، فقد أثبتنا الآن من خلال هذه الدراسة أن سيدنا إخناتون « إبراهيم » لما دعا بدعوته آمن به أتباع بالآلاف من المصريين سكنوا معه آخت آتون وأغلبهم من سواد الشعب المصرى آنذاك ومن الملونين ومن العبيد ، ثم آمن برسالته من الرافدين الآلاف من أبناء بابل وعبيدهم وسود الرءوس ، ثم رحل آخر حياته إلى كنعان وآمن به من آمن من الكنعانيين المغضوب عليهم ، فلمن من هؤلاء ينسبون أنفسهم بالضبط ؟

الأكذوبة الأكبر من ذلك أن يعتقد البعض منهم أنهم من نسل إبراهيم ، وقد عرف الآن التاريخ بالضبط الذى ولد وعاش فيه ، وأيا ما كانت درجة خصوبة إبراهيم وأسرته وأحفاده من يعقوب فلن تزيد عن بضعة آلاف حفيد يعيشون بيننا الآن ، هذا إذا افترضنا

أن النسل لم ينقطع ، وقد انقطع نسله فعلا من يعقوب عند آخر السلالة التى كان آخر حلقة فيها هو يحيى بن زكريا ، ولهذا السبب كانت معجزة ميلاد المسيح بدون أب معجزة إلهية سببها انقطاع النسل من سلالة يعقوب . فكيف لهؤلاء الملايين من اليهود يريدون أن ينسبوا أنفسهم جميعا لإبراهيم وهم مجرد أتباع ديانة وليسوا من نسله ، هذا ليس علميا ولا منطقيا .

وحتى لا يعتقد البعض أننا نتحدى اليهود بالذات وهذا ليس الهدف من الكتاب ، وإنما هذا الكتاب كتاب يصبو إلى الحقيقة من أجل إجلاء الحقيقة والحقيقة وحدها أيا كان مذاقها ، فإن هذا الكلام ينسحب أيضا على من يدعى أن كل العرب أحفاد لإسماعيل ، فليس من المنطق فى شئ أن يكون أكثر من مائة مليون قد انحدروا عن جد واحد هو إسماعيل فى مدى ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة .

فإذا أصر اليهود على نسبتهم لسام كان الكثير من المصريين الذين بقوا فى مصر ولم يؤمنوا برسالة إخناتون فى حينه هم أيضا أولادا لسام ، رغم غياب الحكمة من الانتساب لسام على وجه التحديد .

الواضح أنه حلقة من حلقات التزوير المعروف عنهم ، ليتميزوا بين سائر البشر ، ورائحة السياسة تشتم فيما يدعون ولا علاقة لهذا بدين ولا بعلم سلالة ، وقد كشفنا فى هذا الكتاب مقدار هذا التزوير على مدى العصور ، وهو تزوير من النوع الردئ الساذج الذى ينم عن عقلية متوسطة المستوى وذكاء أقل من العادى وإلا لكان تزويرهم أقوى من أن يكشف .

فلا سامية ولا حامية ولا يافثية ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، وأفكار عرجاء لا تنم عن تميز ولا عن ذكاء ، فى زمن وصل فيه نضج البشرية الفكرى والعلمى إلى مستويات أعلى من أن يدركها أولئك .

ولن تستطيع زكائب الرقم الطينية التى تنشر هنا وهناك أن تزور تاريخا أو تحافظ على تزوير ، ولن تقدر الأموال أو الذهب أن تشترى من العلماء من يشارك فى هذه اللعبة الوضيعة ، فإن العلماء الحقيقيين الشرفاء « حمدا لله » أكثر بكثير من مدعى العلم والباحثين عن الذهب والفضة والعرض الزائل .ولم نسمع عن مدعى علم أو مزور تاريخ حتى الآن قد أفلح وحصل مثلا على جائزة نوبل .

ثم فى النهاية أصبح أبناء كل حضارة ساهرين واعين لحضارتهم فلن يستطيع كائن من كان خداعهم أو شراءهم أو اللعب بمقدراتهم أو تراثهم .

ولن يتمكن أحد بعد الآن أن يحرق مكتبة بأكملها تضم نفائس العلم لأن هذا أصبح دربا من المستحيل حيث العالم كله يسهر على حراسة كنوز البشرية .

مسك الختام

فى وقت كان يعبد فيه العالم القديم مئات ومئات من الآلهة وكانت تقدس أصنامها ويسجد لها تقدم الفارس والخليل إخناتون الملك المصرى بكل ما أوتيت بشريته من جسارة ليحمل أشرف رسالة تنويرية يحملها بشر حربا على كل الآلهة المزيفة متحملا تبعاتها ما تنوء على حمله الجبال ، فقاسى فى حياته الصراع والتحدى والتطاول على فكره ورسالته وبدنه ونزع نزعا من على كرسى عرش الدنيا ، عرش المملكة المصرية ، ليهيم بالمسئولية فى أرجاء المعمورة ، فلم يتوان ولم يكل .

ارتحل الملك المسلوب العرش ارتحالا فى سبيل الله وفى سبيل تبليغ الرسالة وحمل الأمانة ما لم يكن ليحملها إلا هو فبلغ على خير وجه وأسس عرشا قويا فى بابل يقوم على توحيد الله وتنزيهه فبغت عليه قوى الشر والوثنية وسلبوه عرشه للمرة الثانية فلم يتوقف قلبه عن قول لا إله إلا الله فاستحق بذلك أن يكون خليل الرحمن .

ووهبه الله من الولد اثنين فلقنهما التوحيد فأشرباه فكافأه الله بالنبوة فى ذريته فاستحق أن يكون أبا الأنبياء .

وسلب عرشه مرتين فكافأه الله بأحسن منه مملكة أبعد من الفرات إلى النيل فكانت من الصين إلى الأندلس متحققة على يد حفيده من نسل ابنه إسماعيل خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

أما عن صحف إبراهيم الضائعة فقد أثبتناها الآن ليعود الحق إلى نصابه ؛ ففى التوحيد أناشيده وترنيماته بما فيها المزامير قبل تحويرها ، ثم حكمه التى ذكرت عن الحكيم « آنى » فقد نقلها آنى الذى كان يعيش فى أخت آتون إلينا ونسبت خطأ له وأيضا حكم الحكيم « أمنموبى » والتى نقلها النبى سليمان عنه .

أما الجزء التشريعى فى صحف إبراهيم فهى التشريعات المعروفة لحمورابى التى أثبتنا إنه هو هو إخناتون وهو هو إبراهيم خليل الله .

والآن ونحن قد آمنا بما جاء به حفيده محمد بن عبد الله وآمنا بكل ما جاء به ذريته من الأنبياء أجمعين ، بينما الآخرون لم يتزحزحوا عن مراحل الإيمان الأولى ، وما عملوا حتى بتعاليمها ، مالم يوص به إبراهيم ومالم يوص به الله عز وجل .

آمنا بخليل الله إخناتون والذى هو نفسه الفارس إبراهيم الذى هو نفسه خل شمش والذى هو نفسه حمورابى ، آمنا بكل الأنبياء من ذريته ، آمنا بخاتمهم من صلبه محمد بن عبد الله ، فاستحققنا ما وصفنا به « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »

اللهم هل بلغت ، اللهم فاشهد !!

هوامش الفصل السادس

(١) أمثال وأقوال فى حياة اليهود – دراسة د. سيد سليمان عليان – مدبولى – ١٩٩٧ .

(٢) قاموس عبرى عربى – يحزقيل قوجمان – دار الجيل بيروت – ١٩٧٠ .

(3) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning

(٤) إبراهيم أبو الأنبياء – عباس محمود العقاد – نهضة مصر – ١٩٩٣ .

(5) Grosses Handwoerterbuch Aegyptisch - Deutsch - Rainer Hanning

(*) نصوص العهد القديم أخذت من التوراة .

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
الإهـــــــــداء	٧
مقدمة	٩
الفصل الأول	
مدخل إلى المنهج	١٣
أول القصيدة	١٦
من أحرق قلب الأم	١٩
الفصل الثانى	
النمروذ	٣١
« ممنون » جدًّا	٣٤
الآلهة بالمئات	٣٧
البداية	٣٩
ملك أم نبى	٤٢
التوحيد	٤٧
كهنة آمون مهمومون	٤٨
الفصل الثالث	
دار الهجرة آخت آتون	٥٣
إلى توحيد خالص	٥٧
نبوءة أم هرطقة	٦١
آراء وانطباعات	٧٢
رذائل العمارنة	٧٩
المحبوبة كيا	٨٥
زيارة السيدة العجوز	٩٠
أخطر نفى فى التاريخ	٩٣

الموضـــــــــوع	الصفحة
القراءة الصحيحة للتاريخ	١١٢
ترنيمات ودموع	١١٥
إخناتون لم يمت فى تل العمارنة	١١٨
قربان إلى الله بأمر من الله	١٢٠
الفصل الرابع	
موكب الداعية فى بلاد النور	١٢٥
جزيرة العرب تتكلم	١٣٠
الجبال تتكلم	١٣٧
والنباتات تتكلم	١٣٩
أسماء المدن والأماكن تفشى أسرارا	١٤٠
مسميات اليهود تنكر يهوديتهم	١٤٥
كشف الكشوف	١٤٩
مواكب التوحيد فى المنفى	١٥٠
الفصل الخامس	
جلجامش وخمبابا	١٥٣
نظرة فاحصة فى تاريخ الرافدين	١٦٢
بداية التاريخ البابلى ما تزال فى ضباب	١٦٦
أمنيات نفر روهو	١٧٠
العبرانيون والعبريون	١٧٣
حمورابى بداية ونهاية الحضارة فى بابل	١٧٥
قوانين حمورابى إلهية	١٧٩
الفصل السادس	
العهد القديم يتقادم	١٨٧
نجمة داوود	١٩٤
انتهت اللعبة	١٩٥
مسك الختام	١٩٨